

عاصفة اللهب

FIRE STORM



الشباب
YOUNG SHERLOCK HOLMES
شامروك هولمز

أندرو لين

ANDREW LANE



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عاصفةُ اللّهبِ

FIRE STORM

الشّباب من
شأنهم أن يكونوا
مُؤيدين

أندرو لين
ANDREW LANE

ترجمة
سهيل قاسم

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والترجمة



الدار العربية للعلوم النّشرية، إ.م.ك.
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC

تمهيد

أمسك الرجل الصيني الصغير الإبرة بأصابعه الخالية من أي رجفة، وغمّس طرفها في المحبرة التي كان يضعها أمامه على الطاولة. وأسند البحار الذي كان يجلس في الجهة المقابلة من الطاولة ساعده إلى جانب المحبرة. كان ساعده مفتول العضلات، وبدا شبيهاً بقطعة كبيرة من اللحم موضوعة على طاولة جزار.

سأل الرجل الصيني الصغير الذي يدعى كاي لونغ البحار: «هل أنت متأكد من أنك تريد مرساة زرقاء اللون؟». كانت آثار السنين بادية على وجه كاي لونغ، وكانت تتدلى من رأسه إلى وسط ظهره ضفيرة رمادية اللون.

أجابه البحار: «لقد قلت لك إنني أريد مرساة، فأنا أعمل على متن سفينة وأعيش فيها».

أجابه كاي لونغ بهدوء: يمكنني أن أرسم لك سمكة. كان رسم المرساة سهلاً ومملاً بالنسبة إليه، فقد أمضى نصف عمره يرسم مراسي زرقاً على سواعد البحارة، في بعض الأحيان كان يدون أسفل المرساة اسم محبوبه البحار ضمن إطار يشبه لفافة الورق مفتوحة، ولكن المشكلة بالنسبة إليه أنه أمضى النصف الآخر من حياته وهو يحاول تبديل أسماء المحبوبات إلى أشياء أخرى مثل الورود أو الشباك أو أي شيء آخر يمكن أن يتلاءم مع الأحرف الموشومة مسبقاً. «يمكنني أن أرسم لك سمكة جميلة.

ربما سمكة ذهبية مع حراشف بألوان قوس قزح. هل تعجبك الفكرة؟ ألا يعتبر وشم سمكة أمراً جيداً بالنسبة إلى بحار؟». فرد عليه البحار بحزم: «قلت أريد مرساة».

«حسناً كما تريد». أجابه كاي لونغ. هل لديك نوع معين من المراسي أم تريد المرساة العادية.

عبس البحار وقال متسائلاً: «كم نوعاً من المراسي يوجد أصلاً؟».

فرد عليه كاي لونغ قائلاً: «حسناً، سأرسم لك مرساة تقليدية». كان الرجل يستعد لوضع العلامات الأولى بواسطة الإبرة. تدفق الحبر من خلال المثقاب على ذراع البحار وأخذ ينتشر أسفل الأنسجة. في الواقع، كان لون البشرة يذوي مع الأيام ويتغير، ولكن الحبر أسفل الجلد يبقى على حاله. من خلال وجود مثاقيب كافية وألوان مختلفة من الحبر كان بإمكان كاي لونغ رسم أي شيء: سمكة، أو تنين، أو قلب... وحتى مرساة زرقاء. مرساة زرقاء أخرى.

فجأة، فُتح الباب ودُفع بقوة من الخارج، فاصطدم بالحائط، وترك المقبض أثراً عليه. وقف رجل طويل عريض المنكبين عند المدخل ساداً الفراغ الذي تركه الباب، ولم يستطع كاي لونغ رؤية أي شيء خلفه. بدت ثياب الرجل متسخة وغير مرتبة وكأنه

سافر لمدة طويلة ولم يبدل ثيابه، وخمن كاي أن الرجل ينام وهو يرتدي هذه الثياب.

نظر الرجل الضخم إلى البحار وقال له بلهجة أميركية: «غادر المكان». وهز إصبعه فوق كتف البحار مؤكداً على ما قاله. انتصب البحار، وضم أصابعه على شكل قبضة مستعداً لتسديد لكمة، وخطا خطوة باتجاه الباب وصاح قائلاً: «مهلاً لديّ موعد». وفي الوقت نفسه تقدم الرجل الضخم خطوة أيضاً، وبالكاد كان أعلى رأس البحار يصل إلى ذقن الرجل الضخم، ومن دون أن يزيح نظراته عن البحار قبض الضخم على مقبض الباب، ولثوانٍ لم يحصل شيء إلا أن كاي لونغ لاحظ بأسف أن المقبض المعدني كانت ينثني ويتلوى نتيجة الضغط الذي كان يطبقه الرجل الضخم عليه، وفي غضون وقت قصير بدا المقبض شبيهاً بورقة مجعّدة.

عندها قال البحار خائفاً: «ما من مشكلة، هناك كثير من الحوانيت في الجوار التي يمكن أن أرسم وشماً فيها». عندها أفسح الرجل الضخم الطريق فخرج البحار من دون أن ينظر إلى الخلف.

قال كاي لونغ: «لقد تسببت لي بخسارة زبون». لم يكن كاي يخشى الرجل الضخم، فقد بلغ من العمر عتياً، ورأى الكثير، ولم يعد يخشى شيئاً. خاطبه قائلاً: «أتمنى أن تجلب لي زبوناً بدل

الذي جعلتني أخسره». عندها خطا الرجل الضخم خطوة إلى الوراء مفسحاً الطريق لدخول رجل آخر، أصغر حجماً وأفضل ملبساً، وكان يقبض على عصا يتكئ عليها، وبمجرد أن دخل دخلت معه نسمة باردة، غمر شعور غريب كاي لونغ، واستغرقه الأمر بعض الوقت ليدرك ماهية هذا الشعور، لقد شعر بالخوف. وسأل القادم الجديد: «أتريد وشماً؟»، وقد بذل جهداً لإيقاف الرجفة في صوته.

أجابه الرجل بلهجة أميركية: «أريد وشماً على جبيني، أريد أن أدون اسم امرأة». كان صوته هادئاً. وقد غرق وجهه في الظلال نتيجة انبعاث الضوء من المصباح خلفه، لكن من الجهة التي ينظر منها كاي لونغ بدا له رأس العصا وامضاً. تأمل كاي لونغ لبرهة، لقد كان رأس العصا كبيراً ومصنوعاً من الذهب. دهش ولكنه أدرك لاحقاً ماهية هذا الشيء الذهبي الضخم والواضح، لقد كان عبارة عن جمجمة منحوتة في العصا.

عندها سأل كاي لونغ بتعجب: «أتريد أن تدون اسم محبوبتك على جبينك؟ معظم الأشخاص يدونون أسماء محبوباتهم على سواعدهم أو على صدورهم بالقرب من قلوبهم».

أجاب الرجل بصوت هادئ: «الفتاة ليست محبوبيتي». لقد جعل شيء ما في نبرة صوت الرجل كاي لونغ يرتجف. وتابع،

«نعم أريد اسمها على جبيني بالقرب من دماغي كي لا أنساها، ويجب أن تكون دقيقاً في عملك، فأنا لا أؤسّاح مع الخطأ». عندها أجابه كاي لونغ بفخر: «أنا أفضل من يصنع الوشوم في المدينة بأكملها».

فأجابه الرجل: «هذا ما سمعته، وهذا ما دفعني للقدوم إليك». تنهّد كاي لونغ وسأل: «ما اسم الفتاة؟». «لقد دوّنت الاسم، هل تجد قراءة الإنكليزية؟». «أجل بشكل جيد جداً».

عندها مّد الرجل يده التي كان يحمل فيها قصاصة من الورق، فأخذها كاي لونغ بحذر، محاولاً ألا يلمس جلد الرجل، وألقى نظرة على الاسم المدون باحترافية عالية ولم يواجه أي مشكلة بقراءة الاسم.

فقرأ قائلاً: «فرجينيا غروي، هل صحيح ما قرأته؟». «بالضبط هذا اسمها».

حينها سأله كاي لونغ: «بأي لون تريد أن أوشم الاسم». وتوقع أن يقول الرجل بالأزرق ولكنه تفاجأ بما قاله الرجل. «أريده بالأحمر، لون الدم».

الفصل الأول

بكى راف ستون وقال: «توقف إنك على وشك أن تقتلني». رفع شارلوك العصا عن أوتار الكمان وقال: «لا تكن ميلودرامياً».

«لست ميلودرامياً، إن استمررت بما تقوم به لثوانٍ أخرى، سيقفز قلبي من مكانه نحو حنجرتي وسيخنقني لا شيء إلا لكي يتأكد من أنني لن استمر بالاستماع لهذا المواء الذي تصدره».

أحس شارلوك بأن ثقته بنفسه تتبخّر، وكأنها ورقة شجرة في مهب الريح. وقال معترضاً: «لم أكن أظن أن عزفي سيئ إلى هذا الحد».

فرد عليه ستون قائلاً: «هذا هو بيت القصيد، فأنت لا تعلم مقدار سوء عزفك، وما دمت لا تعلم ما هي مشكلتك فبال تأكيد لن تستطيع إيجاد حل لها».

حك رقبتة، وسار مبتعداً عن شارلوك. كان من الواضح أنه يعاني لإيجاد الطريقة التي يتمكن من خلالها شرح الغلط الذي يقوم به شارلوك. كان ستون يرتدي بلوزة وقد لف كميهما حتى يرتفعاً إلى الأعلى، وكان يرتدي فوق البلوزة صدرية بدا واضحاً أنها كانت جزءاً من بذلة أنيقة جداً، ولكن بنطاله كان من مخمل مجعد، وكان ينتعل حذاء جليدياً مخدوش السطح. استدار راف

قليلاً كي ينظر إلى شارلوك، وعلت الحيرة وجهه، وتمكن شارلوك من رؤية شيء آخر غير الحيرة سبب له الانزعاج ألا وهو خيبة الأمل منه.

استدار شارلوك محاولاً عدم رؤية هذا التعبير على وجه الرجل الذي يعتبره صديقاً، بل أكثر من صديق، إنه بمثابة أخ أكبر. جعل شارلوك نظره يجول في الغرفة، ويحدّق إلى أي شيء عدا ستون، كانا موجودين في عليّة أحد الأبنية القديمة في فارنهام. في الواقع، كان ستون قد استأجر الشقة التي تقع أسفل هذه العليّة، ولكن مالكة البناء تكرمت عليه وسمحت له باستخدام هذه العليّة ليعزف فيها ويدرب تلميذه.

كانت العليّة رحبة ومغبرة، وكانت أشعة الشمس تدخلها من خلال الفجوات الموجودة بالقرميد، وكانت هذه الأشعة تشكل من خلال مرورها عبر ذرات الغبار ما يشبه العوارض المائلة التي بدت وكأنها دعائم وهمية تسند السقف بالإضافة إلى الدعائم الحقيقية التي تسنده. ووفقاً لستون، كانت الأصوات التي تصدر عن عزف شارلوك أكثر سوءاً من وحدة من الأصوات التي يمكن أن تسمعها في مزرعة حيث يعم الخوار والثغاء. إلى جانب حائط العليّة كان هناك كدس من الصناديق، وكانت تتخلّل أرضية العليّة فجوة تتيح الوصول إلى الطابق حيث يسكن ستون، كان نزول الدرج من العليّة إلى الطابق وهو ممسك بالكمان أمراً بالغ

الخطورة، إلا أنه كان يجب هذا النوع من المخاطرة نظراً لما تشكّله العليّة من منطقة معزولة له. ذات يوم فكّر بأنه سيكون له مكان خاص به، يستطيع فيه الابتعاد عن إزعاج أي كان، وعندما يمتلك ذلك المكان لن يسمح لأيّ كان بالدخول إليه. كانت طيور الحمام تحلق فوق العليّة وتحجب أشعة الشمس لبعض الوقت أثناء مرورها فوق فجوات القرميد، وكانت البرودة التي في الخارج تتسرّب عبر هذه الفجوات أيضاً.

تنهّد شارلوك، وأحس بالكمان أثقل وزناً، وشعر بأنه يحمله بطريقة خاطئة كما لو أنه لم يحمل كماناً من قبل، كان المنصب الذي أمامه والذي يحمل صفحات النوتة يضم مقطوعة لموزارت حوّلت وغدّلت لتلائم العزف على الكمان بدل الآلة الأساسية التي أعدت لكي تعزف عليها ألا وهي البيانو، وهي حسب ستون قطعة من لحن مشهور وتسمى ذا كوين أوف ذا نايتس سونغ وهي جزء من أوبرا ذا ثري أورنجز. بدت النوتات السود بين أسطر المقطوعة وكأنها شيفرات بالنسبة إلى شارلوك. ولكنه، تمكّن من فكّها بسرعة، فهي لم تبدّ له شيفرات معقّدة، فإذا كان هناك نقطة سوداء فهذا يعني أن الصوت يجب أن يكون على هذا النحو إلا في حال وجد حركة مترافقة معها فهذا يرفع من النوتة قليلاً ويجعلها أكثر حدّة. أما في حال وجد الحرف الثاني من اللغة الإنكليزية، الصغير b مزوي الطرف فهذا يخفض من

النوتة ويجعلها أكثر تسطيحاً. وكانت إشارة الحدة أو التسطيح توضع مباشرة أعلى أو أسفل النوتة التي يعزفها. كانت النوتة سهلة وبسيطة ويمكن فهمها؛ إذاً لماذا لم يكن يستطيع تحويلها إلى موسيقى عذبة بحيث يستسيغ ستون سماعها من دون أن يجفل.

كان شارلوك على يقين من أنه لم يكن يتقدم بالسرعة التي يطمح إليها ستون، وهذا ما كان يزعجه. فقد كان يرغب بأن يقوم بالعزف بطريقة جميلة من المرة الأولى التي يحمل فيها الكمان، ويستمر بالعزف على هذا المنوال دائماً. ولكن، الحياة ليست وردية على هذا النحو؛ وهو يريد أن تكون وردية؛ هذا ما كان يفكر فيه شارلوك. وتذكر أن رغبته هذه بالعزف الجميل من المرة الأولى سبق أن أحس بها عندما كان يجلس أمام البيانو في منزل العائلة ويتأمله ويسأل نفسه لماذا لا يستطيع العزف عليه بمهارة.

فبالنسبة إليه كان يعتقد أن كل إصبع من أصابع البيانو يصدر نغمة ونوتة معينة، وكل ما يجب القيام به هو حفظ النغمة والنوتة التي تصدر عن كل إصبع حتى يتمكن من العزف بطريقة جميلة، ولكن ذلك لم يمكنه من عزف أنغام عذبة كأخته التي كانت الأنغام تنساب من بين أصابعها كالنهر المتدفق.

أوتار أربعة، فالكمان لا يحتوي سوى أربعة أوتار، كم هذا صعب؟

فجأة قال ستون بعد أن استدار ونظر إلى شارلوك: «تكمّن المشكلة في أنك تعزف النوتة فقط وليس اللحن».

أجابه شارلوك بطريقة دفاعية: «إنني لا أرى فرقاً بين الاثنين». أجابه ستون متنهّداً: «بل هناك فرق كبير بينهما. فالأشجار ليست غابة، ولكن الغابة هي كثير من الأشجار بالإضافة إلى الأعشاب والحيوانات والطيور وحتى الهواء، إذا استبعدت كل هذه الأشياء من الغابة لا تكون لديك غابة بل بعض الأخشاب وبذلك تفقد الإحساس والجو».

عندها سأله شارلوك بحزن: «إذاً، كيف يمكننا أن نحدث جواً بالموسيقى؟».

«ليس من خلال النوتة».

اعترض شارلوك: «ولكن الورقة لا تحتوي إلا على نوتات!». «حسناً، أضف إلى النوتات شيئاً من ذاتك. أضف بعض الانفعالات والأحاسيس».

«ولكن كيف؟».

عندها هزّ ستون رأسه وقال: «من خلال الفراغات التي تضيفها والتردد أو من خلال الإسراع أو الإبطاء في العزف. من خلال هذه الأمور يمكنك إضافة أحاسيسك».

أشار شارلوك إلى ورقة النوتة الموجودة على المنصب وقال: «ولكن ما تقوله غير مدوّن على الورقة، فلو أراد المؤلف مني أن أسرع أو أبطئ في العزف كان يجدر به أن يدوّن ذلك على الورقة».

أجابه راف: «لقد كتب ذلك ولكن باللغة الإيطالية، ولكن ما كتبه لا يعدو كونه دليلاً إرشادياً، فأنت من يجب عليه أن يقرر طريقة العزف» تنهّد وتابع: «المشكلة التي تواجهها تتمثل في أنك تتعامل مع الأمر كما لو أنه تمرين على الرياضيات أو قواعد اللغة، فأنت تريد أن تكون كل المعطيات أمامك، وأنت تفكر أن دورك يتمثل في وضع كل المعطيات بعضها مع بعض، ولكن الموسيقى شيء مختلف. فهي تحتاج إلى أفكار جديدة تضيفها إلى النوتة المكتوبة، وهي تفرض عليك أن تضيف شيئاً من ذاتك وأنت تعزفها». تردد وهو يبحث عن الكلمات التي تعبّر خير تعبير عن قصده وتابع: «فالأمر عبارة عن أداء ثنائي بينك وبين المؤلف؛ هو يمنحك الأساس ويفترض بك إضافة العشرة بالمئة التي تعبّر عن شخصية العازف وإحساسه، وهذا يمكن تشبيهه بالفرق بين قراءة قصة والقيام بتمثيل قصة». شاهد نظرة اليأس التي علت وجه شارلوك وتابع قائلاً: «اسمع، هل سبق لك أن رأيت الكاتب تشارلز ديكنز يقرأ قصصه على الجمهور، حاول مشاهدته ذات يوم، فالمشاهدة تستحق كل فلس ينفق عليها،

فهو يُعدّل صوته وفقاً للشخصية التي يقرأ عنها، فهو يسرع عندما يتطلب الأمر مزيداً من التشويق، ويقرأ وكأنه يقرأ للمرة الأولى هذه القصة ويظهر حماسة لمعرفة ما سيحصل شأنه شأن الجمهور، بهذه الطريقة والروحية يجب أن تعزف الموسيقى كما لو أنك لم يسبق لك أن سمعتها». توقف ستون مجفلاً.

سأل شارلوك: «أيجدر بي الاستسلام؟».

أجابه ستون بشدة: «لا تستسلم مطلقاً، مهما كان الشيء الذي تقدم عليه». وتمرر يده في شعره الطويل وتابع: «على الأرجح أنا أسلك الدرب غير الصحيح، دعنا نفكر بطريقة أخرى. أنت تقارب الموسيقى وكأنها مسألة رياضية؛ حسناً، دعنا نبحث عن موسيقيين يكتبون موسيقاهم وكأنها أعمال رياضية».

سأله شارلوك بريبة وتشكك: «هل هناك شيء من هذا القبيل؟».

تأمل ستون لبرهة وقال: «دعنا نفكر. يوهان سيباستيان باخ كان مشهوراً لأنه كان يضع صيغاً رياضية وشيفرات داخل أنغامه. إذا نظرت إلى الميوزيكل أوفرينغ، هناك مقاطع منها تتكرر، حيث تكون أول نوتة هي عينها آخر نوتة، وثاني نوتة هي عينها النوتة ما قبل الأخيرة، وهكذا يستمر الأمر حتى تصل إلى وسط القطعة الموسيقية».

قال شارلوك وقد أدهشته هذه الفكرة: «واو، وهل هذا النوع من الموسيقى يُعتبر موسيقى حقيقية».

«نعم بالتأكيد، فباخ كان مؤلفاً موهوباً جداً، ولم تكن خدعه الرياضية تأخذ من جمالية الموسيقى بل كانت تضيف إليها». ابتسم ستون عندما أدرك أخيراً أنه تمكن من جذب انتباه شارلوك. «أنا لست خبيراً بباخ بأي شكل من الأشكال، ولكنني أعلم أن هناك قطعة موسيقية أخرى بُنيت حول نوع من التتابع الرياضي حيث يقود أحد الأرقام إلى الرقم التالي باستخدام بعض القواعد. الآن، دعنا نحاول مع موزارت مجدداً، ولكن عندما تعزف هذه المرة أريدك أن تسترجع هذه الأحاسيس. تذكر: دع الأحاسيس ترشد أصابعك إلى طريقة العزف».

رفع شارلوك الكمان نحو كتفه مجدداً، ووضعه عند المسافة التي تفصل بين ذقنه وعنقه، وجعل أصابع يده اليسرى تجد الأوتار بالقرب من رقبتة، وتمكن بالإحساس كيف أصبحت أنامله تتحرك تحت تأثير إرشادات ستون التي لا تكل. رفع عصا العزف وأخذ يوازنها فوق الأوتار.

عندها قال ستون: «ابدأ».

ألقي شارلوك نظرة خاطفة على النوتات على الورقة الموجودة على المنصب، وبدل أن يحاول فهمها ألقي عليها نظرة شاملة وليس كنوتات متفرقة ومستقلة بعضها عن بعض. كان ينظر إلى

الغابة وليس إلى الأشجار. وتذكر قبل دقائق قليلة أين كانت النوتات، وأخذ نفساً عميقاً وبدأ العزف.

مرت اللحظات التالية بلمح البصر، وتحركت أنامله من وتر إلى آخر وهو يضغطها كي يتأكد من أنه يعزف النوتات الصحيحة، وكان يقوم بذلك بجزء صغير من الثانية يسبق تمكّن دماغه من إرسال إشارة إلى أنامله يخبرها فيه أين توجد النوتات. بدا له أن جسده يعرف ما يجب عليه القيام به، بينما كان دماغه متحرراً ليخلق فوق الموسيقى باحثاً عن معناها. لقد حاول التفكير بالقطعة الموسيقية وكأنه يقوم بغناء اللحن وليس عزفه، وترك كمانه يتردد على نوتات عدة، وكان يضغط على نوتات أخرى بشدة في محاولة للتأكيد على أهميتها.

ووصل إلى نهاية الورقة قبل أن يلاحظ ذلك.

صرخ ستون: «برافو، لم يكن العزف ممتازاً، ولكن ما من شك أنه أفضل. لقد تمكّنت من إقناعي أنك تشعر بالموسيقى وتحس بها ولا تعزفها فقط». ونظر إلى أشعة الشمس المنحرفة التي تدخل العليّة وقال: «دعنا نتوقف هنا على نوتة مرتفعة. تابع التمرّن على السلالم الموسيقية، ولكنني أريدك أيضاً أن تتمرّن على نوتات منفردة. اعزف نوتة واحدة بطرائق مختلفة؛ كأن تعزفها بفرح وحزن وغضب. دع المشاعر تعبر من خلال النوتات، وسترى كيف تغيّر هذه المشاعر النوتات المعزوفة».

«أنا لست جيداً في ما يتعلق بالمشاعر». اعترف شارلوك بصوت منخفض.

ولكن ستون قال بصوت منخفض: «أما أنا فجيد، هذا يعني أنني أستطيع مساعدتك». ووضع يده على كتف شارلوك للحظة وعصرها، ثم أبعد يده مجدداً. «الآن اذهب وجذ الفتاة الأميركية وامض معها بعض الوقت».

«فرجينيا». تسارعت ضربات قلبه عندما فكر فيها وهو لم يكن متأكداً من سبب هذا التسارع، أهو السعادة أم الرعب؟ «ولكن...».

«ما من ولكن، فقط اذهب وقابلها».

أجابه شارلوك: «حسناً، نلتقي غداً في الوقت ذاته».

«غداً في الوقت ذاته».

وضع الكمان في علبته، بينما كان يتحرك على السلم نزولاً إلى الأسفل. كانت مالكة المنزل الذي يقطن فيه ستون في سنه تقريباً، وكان شعرها أسود وعيناها رماديتين، خرجت من مطبخها، وتقفوحت بشيء وهي تسير، ولكن شارلوك لم يتمكن من التقاط كلماتها. وبعد لحظات كان خارج البناء تحت أشعة الشمس.

كانت فارنهام مزدحمة كحالها دائماً، وكانت شوارعها المرصوفة والموحلة مليئة بالأشخاص الذين يتحركون في شتى

الاتجاهات، توقف شارلوك للحظة في محاولة منه لتبيان المشهد - الثياب، الوضعيات، الحزم، والحقائب التي كان الناس ينقلونها - وحاول أن يفهم المشهد. ذلك الرجل هناك، الذي لديه أثر لطفح أحمر على جبهته، كان يحمل قطعة ورق بيده، وبدأ وكأن حياتها متوقفة عليها. كان شارلوك يعلم أن هناك عيادة طبيب جراح على بعد دقائق من مكان وقوفه، ويعلم أيضاً أن هناك صيدلية على بعد رمية حجر من مكان وقوفه. كان شارلوك متأكداً من أن هذا الرجل كان متجهاً لشراء الدواء من الصيدلية بعدما خرج من عيادة الطبيب، وكان هناك رجل آخر في الجهة المقابلة حسن الهندام، ولكن لم يكن قد حلق ذقنه، وكانت عيناه زائغتين كما لو أنه استفاق لتوه، وكان حذاؤه موحلاً؛ ربما هو متسكع يرتدي بذلة منحه إياها أحد رعايا الأبرشية. وماذا بشأن المرأة التي مرت أمامه وهي تضع يدها على وجهها لتبعد خصلات شعرها عن عينيها؟ لقد بدت يداها أكبر من سنّها فقد كانتا بيضاوين ومجعدتين، كما لو أنها تركتهما في الماء لمدة طويلة. لربما تعمل هذه المرأة في مصبغة.

هل كان هذا ما قصده ستون بقوله: انظر إلى الغابة وليس إلى الأشجار؟ فهو لم يكن ينظر إلى الناس كناس فقط بل كان يرى تاريخهم واحتمالات مستقبلهم في آن.

لبرهة، أحس شارلوك أنه يشعر بالدوار بسبب كثرة الأمور التي يحدث إليها، لم تلبث البرهة أن انتهت، واختفى المشهد برمته بسبب كثرة الناس الذين يغدون ويذهبون في كل الاتجاهات. سأله صوت: «هل أنت على خير ما يرام، لقد ظننت لبرهة أنه سيفمى عليك».

استدار شارلوك، فرأى أن ماثيو أرنت - ماتي - كان يقف إلى جانبه، بدا ماتي أصغر حجماً من شارلوك وكأنه أصغر بسنة أو سنتين، ولكن لبرهة لم ينظر إليه شارلوك كفتى أو صديق، بل كان ينظر إليه كأنه مجموعة من الإشارات والمؤشرات. ولكن بعد مرور هذه البرهة عاد لينظر إليه على أنه ماتي الصلب الذي يُعتمد عليه.

قال شارلوك وهو يشير إلى حصان ماتي: «ألبرت ليس على ما يرام؟». كان قد سبق له أن امتطاه عندما قرر التوجه من مدينة إلى أخرى.

سأله ماتي: «ما الذي جعلك تقول ما قلته؟». فأشار شارلوك: «لأن هناك قليلاً من التبن على ردنك. يبدو أنك كنت تطعمه بيدك، فأنت بالعادة تتركه يأكل المحاصيل أينما ربطته، وأنت لا تطعمه بيدك إلا عندما تكون قلقاً من أنه لا يأكل جيداً».

رفع ماتي حاجبه وقال: «لا، ما من خطب. صحتة كالحديد. ولكنني بين الحين والآخر أسعى لتدليله، ما من سبب يجعلك تفكر على هذا النحو، فألبرت هو أقرب الكائنات إليّ». هز كتفيه بإحباط وتابع: «وأنا أسعى لكي أعامله بطريقة مميزة».

عندها قال شارلوك: «آه». ثم نحى ما قاله صديقه جانباً ليفكر به لاحقاً. وسأله: «كيف عرفت أنني هنا؟».

أجابه ماتي بسخرية: «كنت استمع إلى عزفك، المدينة بأكملها كانت تستمع، وربما لهذا السبب أحجم ألبرت عن تناول الطعام». «كم هذا مسلّ». قال شارلوك.

«أتريد تناول الغداء، هناك كثير من الأشياء الزهيدة الثمن في السوق؟».

فكر شارلوك لبرهة، أيفترض به تمضية بعض الوقت مع ماتي أم يذهب لرؤية فرجينيا؟

فجأة تذكر وقال: «لا أستطيع، عمي يريدني أن أعود وأتناول الغداء معه، فهو يريدني بشيء له علاقة بفهرسة مجموعة من العظاات التي حصل عليها مؤخراً من خلال مزاد علني».

فما كان من ماتي إلا أن قال: «آه جيد، استمتع بهذا العمل». ابتسم وتابع: «ربما يجدر بي أنا أن أذهب لمقابلة فرجينيا بدلاً منك».

فرد عليه شارلوك: «وربما يجدر بي أن أدليك من جسر ما رأساً على عقب بحيث تغطي المياه أنفك».

رد عليه ماتي: «لا تحتد، لم تكن أكثر من مجرد مزحة».

«ولكنني لم أكن أمزح في ما قلته».

لاحظ شارلوك أن نظرة ماتي كانت تبتعد وتتجه نحو الطريق المؤدي إلى السوق فقال له: «اذهب واختر بعض الفاكهة وبعض الفطائر، سأراك لاحقاً أو غداً».

ابتسم ماتي بسرعة، وأخذ يفسح لنفسه طريقاً من خلال الحشد. تابعه شارلوك بنظراته حتى لم يعد باستطاعته رؤيته.

سار شارلوك لبرهة على طول الطريق الذي يقود إلى خارج فارنهام متوجّهاً إلى منزل عمه.

حين كانت تمر بالقرب منه عربة، كان يستدير لينظر إلى الحوذي، ولكن معظم الحوذيين تجنبوا النظر إليه. لم يأخذ شارلوك الأمر بصورة شخصية، وقد تكرر هذا الأمر لوقت طويل. كان يعلم أن نجاح هذا الأمور هو واحد على عشرين من بين العربات المارة. أخيراً، نظر إليه أحد الحوذيين وسأله: «إلى أين أنت متجه يا بني؟».

فأجابه شارلوك: «إلى عزبة آل هولمز».

«في العادة لا يستخدمون أيّاً كان».

«أعلم ذلك، أنا ذاهب بهدف الزيارة».

«إذاً، اصعد فأنا سأمر من أمام بوابة العزبة الرئيسة».

وضع شارلوك كمانه على جانب العربة التي كانت لا تزال تتحرك، ثم قفز إلى العربة، فسقط على كمية كبيرة من التبن، وتساءل عن سبب عدم رغبته بالإفصاح عن أنه يقطن في العزبة، ربما كان يخشى أن يغير الناس رأيهم فيه، إذا علموا أن عائلته هي من ملاكي الأراضي. كان شارلوك ببساطة يعتبر أنه أمر سخيف أن تراث أرضاً أو منزلاً من ذويك وهذا ما قد يجعلك متميزاً عن باقي الناس. فهو اتخذ قراراً بأنه عندما يكبر لن يميز بين الناس من خلال أمور كهذه.

سارت العربة على الطريق لمدة عشرين دقيقة أو نحو ذلك قبل أن يترجل شارلوك منها، شاكراً الحوذي بامتنان. نظر إلى ساعته وأدرك أنه لا يزال لديه نصف ساعة من الوقت قبل أن يحين موعد الغداء، وهذا بالكاد وقت كافٍ ليغتسل ويغير ثيابه.

الغداء كالعادة، كان عبارة عن فترة من الصمت فعم شارلوك السيد شرينفورد هولمز أمضى معظم وقته وهو يوازن بين تناوله للطعام وقراءته لكتاب، ومحاولته إبعاد لحيته للحيلولة دون حجبها لنظره عن الكتاب بينما كانت زوجته آنا تتابع حديثها المستمر مع نفسها حول نباتات الحديقة.

أنهى شارلوك طعامه بسرعة، فقال له عمه: «لقد تركت لك كدسة من المواعظ على طاولة المكتبة أتمنى أن تقوم

غادر شارلوك غرفة الطعام بعد أن شكر عمه، وتوجه إلى المكتبة التي كانت تعبق برائحة الكتب العتيقة، ولاحظ أن العمل يمكن أن يكون أسرع إن تمكن من اتخاذ قرار التصنيف بالاستناد إلى أدلة، كان أحدها خط اليد، فقد كانت بعض المواعظ مكتوبة من قبل الشخص نفسه، وقد تبين الأمر من شكل الحرف الذي بدا مثلماً، وكان شارلوك سعيداً بوضع كل هذه المواعظ في مجموعة واحدة. وقد كانت المواعظ الأخرى تشير إلى أماكن محددة؛ دور عبادة عادة، وهذا يعني أنه كان باستطاعته أن يضع هذه المواعظ ويصنفها على الأقل في المنطقة الجغرافية عينها، وبعد ذلك يمكنه أن يحكم عليها إن كانت تعود للشخص عينه أو لأشخاص عدة. بعد فترة لاحظ أن بعض هذه المواعظ مطبوعة، وكانت بعض الأحرف فيها شاحبة مثل الحرف n والحرف a أيضاً الذي كان مرتفعاً قليلاً عن السطر، وهذا يشير إلى أن هذه المواعظ كانت مطبوعة على الآلة الكاتبة نفسها، وهذا ما يتيح له جمعها في مجموعة واحدة. لم يقم شارلوك بقراءة المواعظ بدقة، لأن ذلك كان يعني هدراً لكثير من الوقت، ولكن بينما كان يلقي نظرة على المواعظ ليكون دليلاً عن الكاتب وتاريخ الكتابة، استطاع أن يطلع على بعض التفاصيل. فمنها ما كان يتحدث عن توسع وانحسار حياة الريف والحب والشوق إلى الخالق بالإضافة

إلى تحليل مفصل للأمور التي لا يستطيع أي كان معرفتها، كما أنه فكر أنه فهم شخصية وصفات الأشخاص الذي كانوا يكتبون هذه المواعظ، فأحدهم كان جدياً وصارماً وخائفاً من نار جهنم، بينما الثاني كانت يتأمل في جمال خلق الله، أما الآخر فكان يركز على التفاصيل، ما جعل المعنى العام يغرق في هذه التفاصيل. لكنه على الأقل تمكن من إدراك أن أحد الكتاب كان امرأة تكتب المواعظ لزوجها كي يتلوها.

بشكل عام لقد استغرق هذا العمل ما بين ساعة أو ساعتين وخلال هذا الوقت لم يقاطعه أي كان.

بعد فترة قرر أن يأخذ استراحة، ويمدد ظهره الذي أخذ يؤلمه، وقف وسار مبتعداً قليلاً عن المكتب وهو مندهش من أكداش الأوراق التي لم يبد أنها بدت أقل حجماً بالرغم من وجود أربعة عشر أو خمسة عشر كدساً على الأرض حول طاولة المكتب.

وجد شارلوك نفسه مندهشاً برفوف كتب عمه، ووجد نفسه يتيح المجال أمام عينيه لكي تمسح العناوين. لبرهة لم يكن متأكداً عما يبحث أو إن كان يبحث عن شيء محدد، ولكن لاحقاً خطر في ذهنه، أن يرى إن كان عمه يمتلك أي كتب عن باخ أو الموسيقى بشكل عام. ربما يستطيع الحصول على بعض التفاصيل حول الطريقة التي استعمل بعض المؤلفين فيها الرياضيات في موسيقاهم، بالرغم من أن شرينفورد أمضى

معظم حياته يكتب مواعظ وكتباً دينية وعظية، من أجل الكهنة والأساقفة حول البلد، إلا أن مكتبته كانت أكثر من مجرد مجموعة من الكتب حول الديانة المسيحية، فمكتبته كانت تضم مجموعة محترمة من الكتب التي تتناول شتى المواضيع التي يمكن التطرق إليها تحت الشمس.

ذكر شارلوك نفسه أن يوهان سيباستيان باخ كان يؤلف موسيقى دينية، وكان قد ألف كثيراً من المواد التي يمكن أن يعزفها أرغن دار العبادة، وكان شارلوك متأكداً من أنه رأى اسم المؤلف مدوناً على كثير من الترنيمات في دار العبادة في مدرسة دييدن للفتيان وأيضاً في دار العبادة المحلية، وكان من المنطقي أن يكون لدى مؤلف ديني كعمه في مجموعته كتب حول باخ.

توجه شارلوك إلى الناحية المعتمدة والأكثر ظلاً في المكتبة، وهو يبحث عن أي كتاب له علاقة بالموسيقى، وكان خارج نطاق المشاهدة عندما سمع باب المكتبة يفتح. توقع أن يكون القادم عمه، وهم بمغادرة مكانه ليخبره عن التقدم الذي أحرزه، ولكنه عندما خرج من الممر الذي يفصل بين خزانتي كتب تمكن من رؤية طرف تنورة سوداء تمر من خلف الخزانة في نهاية الغرفة.

السيدة إيغلانتين؟! ماذا كانت تفعل هنا؟!

بدا له أنها كانت تعرف ما تقوم به. بارتباك تقدم شارلوك، وحاول أن يخفي نفسه قدر الإمكان ويحافظ على الهدوء، لم يكن يعرف السبب الكامن وراء نيته إبقاء نفسه مخفياً، ولكن كان لديه شعور بأنها تقوم بشيء خلسة وبسرية ولا تريد لأي كان أن يعلم به. من الواضح أنها لم تكن تمسح الغبار عن رفوف الكتب فهذا الأمر كان من مهام الخادومات وليس مدبرة المنزل. نظر شارلوك إلى حافة خزانة الكتب، وهو يسعى لإبقاء الجزء الأكبر من رأسه وجسمه مخفيين، نعم إنها هي السيدة إيغلانتين كانت منحنية نحو الصف الأوسط من رفوف الكتب، وكانت تنورتها منتشرة حولها، وأخرجت كدساً من الكتب بقبضة يدها وتركتها تقع على السجادة. أجفل شارلوك لرؤيته الكتب تُعامل بهذا الاستهتار وقد سقط بعض الكتب مفتوحاً على الأرض وانثنت بعض أوراقه، ولكن عندما أخرجت الكتب انحنت أكثر وأصبح رأسها قريباً من السجادة، وأخذت عيناها تمسحان المساحة الفارغة التي أحدثتها. ولكن أياً يكن الشيء الذي كانت تبحث عنه لم يكن هناك. وبخيبة أمل أعادت الكتب كيفما اتفق إلى مكانها بسرعة، ولم تعر الترتيب الذي كانت الكتب موضوعة فيه أي اهتمام.

نظرت إلى يسارها بعيداً عن المكان الذي كان شارلوك يقف فيه، وفي الوقت عينه تنبّه للأمر وتراجع إلى الخلف.

عدّ شارلوك إلى الرقم عشرين، ونظر إلى الخلف عندما سمع صوتاً غير طبيعي. وبارتياح ورضا، لأن لا أحد يراها، كانت إيغلانتين تدفع رفاً آخر من الكتب، كان أعلى هذه المرة من الرف السابق، وتدع الكتب التي عليه تسقط على الأرض. مجدداً نظرت إلى المنطقة التي أفرغتها من الكتب قبل أن تكشر وتبدو خيبة الأمل عليها مجدداً، وما لبثت أن أعادت الكتب بالطريقة عينها التي أعادت بها الكتب إلى الرف السابق.

«كيف تجرئين على دخول مكتبتني؟ اخرجي من هنا حالاً»
صاح صوت.

نظر شارلوك إلى الأعلى باندعاش، فقد كان يقف عند الصف الأخير من خزائن الكتب شرينفورد هولمز، يبدو أنه دخل المكتبة بصمت مما حال دون أن يلاحظه شارلوك أو السيدة إيغلانتين. استقامت السيدة إيغلانتين ببطء وقالت: «أنت معتوه». قالت ذلك ببطء وبوضوح «ليس لديك أي سلطة في هذا البيت أنا من أصبحت صاحبة السلطة هنا».

الفصل الثاني

أحس شارلوك بأنه يكاد يختنق بأنفاسه التي يبدو أنها قد علقت في حنجرتة. من أين لها هذه الجرأة للتكلم مع عمه بهذه الطريقة. تلى ذلك الشعور بالاختناق شعور بالحبور والفرح، فقد أدرك ما ستكون عليه عاقبة حديثها مع عمه بهذه الطريقة، فقد أذفت ساعة طردها، ولن يأسف أحد على رحيلها.

كانت قبضة يد شرينفورد محكمة على ساقه، ولكن شارلوك لم ير تعابير الغضب والثوران ترتسم على وجه عمه، بل على العكس ارتسم تعبير المحبط على وجهه، ذلك التعبير الذي يكسو وجوه من لا حول ولا قوة لهم. لربما هذا هو التعبير الذي يرتسم على وجوه الرجال المسنين عندما يُصدمون بحقيقة أن مدبرة المنزل تنقب في مقتنياتهم الخاصة. انتظر شارلوك أن ينفجر عمه في ثورة غضب، وأن يقوم بطرد السيدة إيغلانتين فوراً عقاباً لها، ولكن عوضاً عن ذلك، اكتفى بهز رأسه بينما ضرب فخذه بقبضته ضربة عديمة الفاعلية وصرخ بها قائلاً: «بأي حق تقومين بهذا؟».

ردّت عليه السيدة إيغلانتين بسرعة: «ما من شيء يمنعني من القيام بأي أمر في هذا المنزل، إنني أقوم بما أقوم به مستندة إلى حقيقة أنك وزوجتك التي لا تُطاق تعرفان ما يمكن أن يحصل إن قمتما بإزعاجي».

تمتم شرينفورد هولمز قائلاً: «يا لك من شريرة». ولم تستطع عيناه أن تنظرا إلى السيدة إيغلانتين، وبدلاً من ذلك حدقتا إلى السجادة، وذهل شارلوك عندما رأى عيني عمه تترقرقان بالدموع.

ابتعدت السيدة إيغلانتين ببطء عن الممر بين الرفوف، ووقفت أمام عم شارلوك. كانت إيغلانتين أصغر حجماً منه، ولكن الطريقة المحدودة التي وقف فيها جعلتها تبدو كالبرج أمامه. خاطبته بكل غطرسة قائلة: «أنت ساذج تحمل على الشفقة» وأتبعته كلماتها ببصقة. ورفعت يدها وأمسكت بذقنه بين إبهامها وأصابعها، تمكن شارلوك من رؤية الاحمرار الذي سببته إيغلانتين على وجنتي عمه، فراعته الأمر. وتابعت قائلة: «أنت تجلس هنا يوماً تلو آخر، وتكتب كلمات عديمة المعنى لأناس يثيرون الشفقة مثلك وسذج وضالين كي يرددوا ما تكتبه كالبيغاوات، وأنت تفكر حقاً أنك تقوم بشيء يستحق الاحترام. إن ما تقوم به لا يعني شيئاً أيها الكهل، سأحطم لك كل هذا حتى أثبت لك أن الناس لن يهتموا إن توقفت عما تقوم به، أنت تعرف أنني أستطيع القيام بالكثير ومن خلال ما أعرفه أستطيع أن أدمر هذه العائلة».

عندها سألتها شرينفورد: «وما الذي يمنعك؟». وهو يكتم صوته من خلال أصابعه التي كانت تحيط بوجهه.

فتحت السيدة إيغلانتين فمها لكنها لم تنبس ببنت شفة.
تابع شرينفورد: «إنك لا تستطيعين. صحيح أنك إذا تكلمت بما
تعرفين فسوف تدمرين عائلتي، ولكنك في الوقت عينه
ستخسرين إمكانية البحث في هذا المنزل وعندها إلى أين
ستذهبين؟ لقد مر عليك سنة وأنت تبحثين من الأعلى إلى
الأسفل ومن جهة إلى أخرى. إنني لا أعرف عما تبحثين، ولكنني
أعلم كم هو مهم هذا الشيء الذي تبحثين عنه بالنسبة إليك. وأنا
أعلم أنك قد تقدمين على القيام بأي شيء يمكنه أن يساعدك
في الحصول على ما تبحثين عنه».

«أعتقد أنك تعلم عما أبحث» قالت عبارتها هذه باحتقار وهي
تبتعد عنه وتابعت: «وأنا أظن أن ما أبحث عنه موجود هنا في
هذه المكتبة، وهذا هو سبب جلوسك هنا يوماً بعد آخر، كما لو
أنك دجاجة تحتضن بيوضها ريثما تفقس، وهي لن تفقس أبداً،
لقد بحثت في كل الأمكنة وأنا أعلم أن ما أبحث عنه موجود في
هذه الغرفة».

عندها قال شرينفورد: «أخرجي وإلا قتلتك، وبذلك ينجيني
الله من النتائج، سوف أقتلك لكي أنتهي من هذا الكابوس، ولكي
أوقفك عن البحث عن هذا الكنز المثير للشفقة الذي تبحثين عنه
وتظنين أنه موجود هنا».

مرت السيدة إيغلانتين من أمامه وهي تتجه نحو الباب، وعندما وصلت إلى نهاية الصف، استدارت وواجهته. وحدث إليه بعينين بدتا وكأنهما جمرتان وقالت بصوت كالهسيس: «لن تستطيع التخلص مني من دون عواقب، وأنا لا أستطيع أن أخلصك من هذه العواقب، السؤال هو من يخشى هذه العواقب أكثر؟». عندها استدارت لتغادر إلا أنها بدلت رأيها وعادت تنظر إليه وقالت: «إنني أطلب منك التخلص من ابن أخيك المثير للشفقة. تخلص منه، وأرسله بعيداً».

فسألها شرينفورد: «لماذا تخافينه؟ هل تخافين أن يكتشف وضعك الحقيقي في هذا المنزل ويقوم بشيء ما؟». «ما الذي يستطيع القيام به؟ فهو لا يعدو كونه فتى، والأسوأ من كونه فتى أنه فتى من آل هولمز». وما إن أنهت كلامها حتى استدارت وغادرت. بعد بضع لحظات سمع شارلوك باب المكتبة يُفتح ثم يُغلق.

قال شرينفورد بصوت خافت: «إنها تخافك». استغرق الأمر لحظة قبل أن ينتبه شارلوك إلى أن عمه كان يتحدث إليه، فهو بطريقة ما تمكن من معرفة أن شارلوك يوجد هنا.

قال وهو يخرج من الممر المضاء: «إنني لا أفهم». «ما من سبب حتى تفهم» قال العم ذلك بينما كان يهز رأسه، الذي بدا فجأة ثقيلًا جداً. انس أي شيء سمعته أو رأيته، أبعد

كل شيء عن دماغك، تخيّل كما سأتخيّل أنا أنه ما من مشكلة في هذا المنزل، وأن كل شيء هادئ وعلى خير ما يُرام وتشمله رعاية الله، وتخيّل بأن الثعبان الذي هو عبارة عن تجسيد للشيطان لم ينزل بيننا».

«ولكن يا عمي...».

عبس شرينفورد ورفع يده وقال: «كلا». وهو يعتزم إنهاء الحديث وتابع «لن أتكلّم في هذا الأمر لمزيد من الوقت، أو بالأحرى لن أتكلّم به مجدداً» تنهّد وتابع قائلاً: «أتيت لكي أرى إلى أي حدّ تقدمت في تصنيفك للمواعظ، ولكنني أشعر بالتعب، سأستريح لبعض الوقت بسلام في معتزلي». ثم نظر إلى الكتب المرمية على الأرض وقال: «لاحقاً سأقوم بترتيب هذه الكتب، في العادة كنت سأطلب من مدبرة المنزل أن ترتب الكتب ولكن في مثل هذه الظروف...».

غادر شارلوك المكتبة بصمت، وكان يستطيع سماع عمه يتمتم بينما كان يغلق الباب خلفه.

كانت السيدة إيغلانتين في القاعة، وبقي هو في مكانه في الظلال يراقبها، وكانت تتحدث مع إحدى الخادومات.

«أخبري الطاهية أنني سأنضم إليها بعد قليل. إن قوائم الطعام لهذا الأسبوع غير مناسبة ويجب تغييرها، وأخبريها أنني لن أشعر بالرضا إلا بعد أن تتم مراجعة كل القوائم».

عندما ابتعدت الخادمة، وقفت السيدة إيغلانتين من دون حراك لبرهة، وبدأت مشتتة الأفكار، وفي تلك الأثناء، وجد شارلوك أن أفكاره تأخذ منحى جريئاً جداً. لقد شعرت السيدة إيغلانتين بأنها تملك الحرية في البحث في شتى أرجاء المنزل، وهي تبحث عن هذا الشيء، ولكن ماذا سيحدث إن بحث هو في غرفتها في أثناء انشغالها، ربما يستطيع أن يجد دليلاً على الشيء الذي تبحث عنه، إن تمكن من إيجاد الدليل والعثور على الشيء الذي تبحث عنه قبلها، عندها لن يبقى هناك من سبب لبقائها هنا، وحتى إن لم يتمكن من معرفة الشيء الذي كانت تبحث عنه، ربما بإمكانه أن يعرف سبب السلطة التي تمتلكها على عمه وزوجته. وإن تمكن من تحريرهما من سلطة السيدة إيغلانتين فبذلك يكون قد ردّ لهما جزءاً بسيطاً من جميل استضافتهما الكريمة له.

توجهت السيدة إيغلانتين إلى الجهة البعيدة من المنزل، وعلى الأرجح ذهبت للقاء الطاهية. أحس شارلوك ببعض الإشفاق على الطاهية، فهو يحبها لأنها تخبئ له على الدوام في المطبخ كعكة أو قطعة خبز مع بعض المربى. لقد كانت الطاهية هي الوحيدة من بين كل الخدم التي كانت تملك جرأة التصدي للسيدة إيغلانتين.

وما دام يعلم أن عمه في المكتبة، وزوجته تقوم بالحياسة كعادتها بعد ظهر كل يوم، كان شارلوك على يقين من أن لا أحد سيفتقده أو يسأل عنه، كما أنه كان يعلم من خلال جدول العمل أن الخدم سينظفون المدافئ في هذه الأثناء في غرف النوم الرئيسة ولن يكون هناك أحد في الطابق الأعلى حيث غرف العاملين وحيث تقع غرفة شارلوك أيضاً.

صعد شارلوك إلى الطابق الأعلى من دون أن يصادف أيّاً كان في طريقه، كانت غرفته هي الأولى وإلى جانبها كانت هناك غرفة فارغة وهي بالعادة مخصصة لكبير الخدم هذا إن كان هناك كبير خدم. وعند الزاوية كانت تقع غرفة السيدة إيغلانتين بالإضافة إلى غرف الخدم الآخرين مثل عمال الإسطبل والبستانيين، الذين تقع غرفهم خلف الدرج الذي يمكنهم من الصعود إلى غرفهم من دون أن يراهم أحد. ولم يكن مسموحاً لأي كان سوى شارلوك والسيدة إيغلانتين باستعمال هذا الدرج.

استدار شارلوك عند الزاوية، وكانت كل المنطقة خالية بالطبع. كان باب غرفة السيدة إيغلانتين مغلقاً ولكن لم يكن مقفلاً. كم كان الأمر فظيلاً لو أن هناك بنداً مكتوباً بين المُستخدم والمستخدم يجيز للمستخدم إقفال باب غرفته. من الناحية النظرية كان يمكن لعم شارلوك وزوجته دخول غرف الخدم في أي وقت ومن دون سبب معين، وهذا الحق سيتمد نظرياً أيضاً

ليشمل شارلوك الذي شعر بأن نبضات قلبه تتسارع وراحته تتعرقان عندما توجه ليبرم مقبض الباب. بصمت برم مقبض الباب، ودفعه ودخل، ثم أغلقه الباب خلفه بصمت.

كانت الغرفة تعبق برائحة الخزامى وبودرة الطلك، وكانت هناك رائحة أزهار قوية، ما جعل تفكيره يتجه نحو أزهار الأوركيد. توسطت سجادة صغيرة مستعملة أرضية الغرفة، وبدأ له السرير مرتباً والثياب معلقة في الخزانة أو مطوية وموضوعة في الأدراج، أما فرشاة الشعر فكانت موضوعة على عتبة النافذة. ولاحظ شارلوك وجود صورة لمنظر طبيعي معلقة على الحائط، وكان هناك نسخة من الكتاب المقدس موجودة على رف فوق السرير. عدا هذه الأشياء كانت الغرفة خالية تماماً من أي زخرفة تزيينية.

لم تكن الغرفة تحمل بصمة الخصوصية، ما يجعل من الصعب تصديق أن هناك شخصاً يستعملها وينام فيها يومياً. بمعزل عن وجود السيدة إيغلانتين الحقيقي كان يمكنه تخيلها كائناً غير إنساني تدخل هذه الغرفة في نهاية يوم عملها، وتبقى واقفة هنا كما لو أنها تمثال، وتبقى من دون أي حركة حتى تشرق شمس صباح اليوم التالي، فتضع مجدداً القناع الذي يخفي حقيقتها غير الإنسانية وتعاود العمل مجدداً.

هزّ شارلوك كتفيه ليطرد هذه الفكرة من رأسه، فهي لم تكن كائناً غير طبيعي بل كانت إنساناً، نعم كانت إنساناً ولكنها إنسان مقرف.

ضغط شارلوك بظهره على الباب، وهو يفكر بأن السيدة إيغلانتين سبق لها أن وقفت وقفته هذه وهي تفتش غرفته، وهذا ما جعله يغضب، فإن قامت بتفتيش المنزل كما قالت، فهي بطريقة ما قامت بتفتيش غرفته. يا لها من امرأة! وتساءل عن الشيء الذي تبحث عنه.

حفظ شارلوك بسرعة أماكن الأشياء ووضعياتها؛ فرشاة الشعر والكتاب المقدس والزاوية التي كانت اللوحة معلقة فوقها والمسافة التي تفصل بين غطاء السرير والمخدة. فهو كان يعرف مدى دقة السيدة إيغلانتين، وكان لديه إحساس بأنها ستلاحظ أي تغيير في أماكن هذه الأشياء. لذا، كان عليه التأكد من قدرته على إعادة الأشياء كما كانت قبل أن يغادر الغرفة.

بدأ شارلوك عملية البحث في الأدراج وبسرعة بدأ بتصنيف الألبسة في كل واحد منها، وأحس بقليل من الغضب عندما فكر بأن السيدة إيغلانتين قامت بالشيء عينه في ما يتعلق بملابسه، وعندما لم يجد شيئاً وضع يده في أرضية الدرج، فلربما وضعت شيئاً هناك، ولكنه لم يتمكن من العثور على أي شيء.

استدار فجأة وكأن شيئاً ما فاجأه، وبسرعة قام بفتح كل درج وأخذ يبحث أسفله عن أي ورقة أو مغلف قد يكون قد أخفي أسفله، ثم أخذ يبحث في فجوة إلى جانب الدرج علّه يجد شيئاً، ولكنه لم يجد شيئاً سوى الغبار وشباك العناكب وغطاء رأس. ألقى نظرة أخيرة على الأدراج قبل أن يتركها ليتأكد أنه أعادها إلى حالتها الأولى قبل عملية التفتيش. ثم توجه نحو الخزانة، ولكن ضجة ذات مصدر خارجي جعلته يتجمد في مكانه، وكاد قلبه يتوقف من شدة الفزع. أيمن أن يكون أحدهم يتلصص عليه كما هو يتلصص على الآخرين؟ أيمن أن تكون السيدة إيغلانتين قد أنهت اجتماعها مع الطاهية، وهي في طريقها إلى غرفتها؟

أحس بصوت طقطقة على الأرض، فحاول أن يختبئ، ولكن أين يختبئ؟ أختبئ تحت السرير أم في الخزانة؟ وتردد صوت الضجة مرة أخرى، ولكن الضجة هذه المرة جلبت السكينة إلى نفس شارلوك عكس المرة السابقة، فقد انتبه إلى أن الصوت قادم من المدفأة فأحدهم كان يقوم بتنظيف إحدى المدافئ في الطابق السفلي بواسطة رفش وكان صدى عمله يتردد عبر مدفأة غرفة السيدة إيغلانتين.

جعله هذا الأمر يتقدم نحو المدفأة ويتساءل: لماذا لا يبحث فيها؟ وهذا ما قام به لكن جهوده ذهبت هباء منثوراً فهو لم يجد

شيئاً سوء الحطب والرماد.

بعدها توجه، وبحث أسفل السرير فلم يجد سوى حقيبة ملابس، أما الخزانة فكانت الأثواب معلقة فيها بترتيب، وكانت هناك قبعتان سوداوان فيها، لم يتمكن شارلوك من معرفة هل كل هذه الألبسة السود لها علاقة بعملها في هذا المنزل أم أنها ترتدي دائماً الملابس السود. كان السيدة إيغلانتين متزوجة، ولكنه لم يكن على يقين أن كانت لا تزال متزوجة أم أنها أرملة، فكل ما استطاع أن يتخيله عن السيدة إيغلانتين مرورها عبر ممر دار العبادة يوم زفافها وهي مرتدية فستان زفاف أسود. ارتعش شارلوك وأبعد الفكرة من رأسه.

وقف وسط السجادة التي تتوسط الغرفة، وأخذ يجول في ناظريه باحثاً، ولكن الغرفة كانت صغيرة جداً ومرتبّة جداً وبالتالي كان من المستحيل عليه ألا يلاحظ إن كانت قد خبأت شيئاً هنا. لم يكن هناك شيء غير طبيعي أو غير مألوف، شيء لا يمكنك أن تجده في غرفة مدبرة منزل.

فكر أنه لو أراد أن يخبئ شيئاً في هذه الغرفة فأين يمكن أن يخبئه؟

فجأة، خطرت فكرة بباله، فابتعد عن السجادة، ثم ركع، وقام برفع طرفها من جهة واحدة علّه يجد شيئاً لكنه لم يجد سوى الأرض، كان واثقاً أنه لن يجد شيئاً، ولكنه احتمال لم يكن بوسعه

استبعاده، فالسيدة إيغلانتين لم تكن تمتلك أي خصال حميدة، ولكنها كانت ذكية ومن المستحيل أن تقوم بعمل متهور وتخفي شيئاً في مكان مكشوف إلى هذا الحد.

بينما كان ينظر إلى الأرض قام بتفحص البلاطات كي يتأكد من أنه ما من شيء غير سوي فيها، فلربما قامت برفع إحدى البلاطات وقامت بتخبئة ذلك الشيء تحتها وأعدت تثبيتها، ولكن في هذه الحال عليه استخدام عتلة لنزع البلاطات وهذا سوف يترك أثراً.

طوال عملية البحث التي يقوم بها كانت اللوحة المعلقة على الجدار تستدرج اهتمامه، لدقيقة أو اثنتين تناسى أمر هذه اللوحة، وفكر بأن الزاوية المعلقة فوقها هي ما يزعجه، ولكن أفكاره كانت تعود إلى هذه اللوحة، وظن أن هناك شيئاً مخبئاً خلفها، فتوجه إليه ونظر خلفها، لكنه لم يجد شيئاً سوى لصاقة مدون عليها سعر اللوحة.

تنهد وأعاد اللوحة إلى مكانها وفقاً للزاوية التي كانت معلقة فيها، وقف واضعاً يديه على خصره، وأخذ يفكر بأنه إن كان هناك من سر مخبئ في هذه الغرفة فما من شك أنه مخبئ بطريقة محترفة.

ثم توجه إلى نافذة الغرفة التي تطل على الحديقة الخلفية، لم يستطع أن يرى أحداً، وبالتالي تأكد أن لا أحد يقوم بمراقبته،

كانت النافذة بالكاد مفتوحة ففتحتها على وسعها ونظر منها.
كان هناك شيء متدلّ من جديلة معلّقة بواسطة مسمار مدقوق
بإطار النافذة الخشبي، كان ذلك الشيء شبيهاً بعلبة صغيرة،
وكان من المستحيل رؤيته من الحديقة، ما لم يكن هناك شخص
يبحث عن هذا الشيء بالتحديد، وإلا لن يستطيع تمييزه.
سحب شارلوك الجديلة التي كانت مصنوعة بشكل متقن، ما
جعلها متينة وقادرة على تحمل عوامل الطقس، ووضع الشيء
الذي في نهايتها على عتبة النافذة، فترك أثراً من بودرة قرمزية
اللون، كانت العلبة مغلفة بقطعة قماش زيتية اللون، حُفّت سابقاً
على قطعة من القرميد بحيث لا تكون مرئية عند النظر إليها من
الأسفل.

إنه عمل بارع أياً يكن من قام به. وبقليل من التردد قام بفك
الجديلة عن العلبة ونزع قطعة القماش التي تغلف العلبة ونظر
إلى داخلها.

وجد قطعة من الورقة مطوية طيّاتٍ عدة، مسح شارلوك يديه
بمنديل قبل أن يمسك بالورقة ويفتحها، وهو في غاية الانتباه
للطريقة التي كانت الورقة مطوية وفقها، فوجده في غرفة
السيدة إيغلانتين كان في غاية السوء، وهو لا يريد أن يفاقم
هذا السوء بأن يترك لها مجالاً لتعرف أنه دخل غرفتها، وتمكّن
من العثور على ما تخفيه. كانت الورقة المطوية عبارة عن

ورقتين إحداهما عبارة عن مخطط هندسي لمنزل آل هولمز يظهر كل غرف البيت، وكانت بعض الغرف قد رُسم عليها علامة إكس حمراء وكانت توجد علامات استفهام في بعض أنحاء الغرف بالإضافة إلى ملاحظات مكتوبة. كان الحائط الذي يفصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام سميكاً على الرسم وكانت هناك ملاحظة مدونة تفيد بضرورة البحث عن أي فجوات مخفيه في أنحائه.

كانت الورقة الأخرى أصغر من السابقة، وكانت هناك عبارات مدونة عليها، وكانت بالخط ذاته المدون على الورقة السابقة. كانت هناك مربعات بالقرب من هذه العبارات وكانت تربط بينها خطوط. يبدو أن السيدة إيغلانتين، كانت هي من رسمت هذه المربعات والخطوط وهي تبحث عن بناء نسق معين ولكن يبدو أنها فشلت في بنائه. قرأ شارلوك بجانب المربعات أسماء بعض أفراد آل هولمز، كان يعرف بعضهم بالإضافة إلى أسماء أماكن كان قد سمع بها، وكلمات أخرى لم تعن له شيئاً وفي وسط هذه الشبكة وجد رسم عنكبوت مكتوب أسفله أطباق ذهبية ومطوق بدائرتين.

أعاد شارلوك طي الورقتين متوخياً أقصى درجات الحيلة والحذر مع أنه كان يرغب بمطالعتهما مجدداً، وودّ لو يستطيع

نسخهما ولكن الوقت كان داهماً، وربما دخلت السيدة إيغلانتين في أي لحظة.

أخيراً، فكّر بأن لديه معلومات قيمة، ولكنه لا يعلم إن كانت هذه المعلومات ستفيده. أعاد الأوراق إلى العلبة، ثم لفها بقطعة القماش، وربطها بالجديلة ودلاها من النافذة وهو يتأكد أن لا أحد ينظر إليه من الحديقة، وأعاد إغلاق النافذة منتبهاً إلى أنها لم تكن مغلقة بالكامل.

قبل أن يغادر شارلوك الغرفة تساءل إن نسي شيئاً أو ترك أثراً وكان الجواب على كلا السؤالين لا. استرق السمع من خلف الباب، ليتأكد أن لا أحد في الخارج قبل أن يفتح ويغادر الغرفة. مرّ عبر الممر من أمام غرفته، وخطرت له فكرة الدخول إليها، ولكن لم يكن لديه أي سبب للدخول سوى أخذ قيلولة، ولكنه لم يكن يريد أخذ قيلولة فالوقت وقت العمل الآن. نزل الدرج إلى الطابق الأسفل، وشاهد أمامه باب المدخل الكبير المصنوع من خشب البلوط والذي كان يؤدي إلى الحديقة والمرأب حيث العربية. وفجأة سمع صوت الباب يغلق، لا بد أن أحداً غادر البيت للتو، فألقى نظرة من خلال إحدى النوافذ الجانبية، فتمكن من رؤية شخص يسير مرتدياً ملابس سوداء. لا بد أنها السيدة إيغلانتين تنتظر العربية، يبدو أنها كانت متجهة نحو البلدة، فلا شك أنها أنهت اجتماعها مع الطاهية، عندها سرت في جسمه

قشعريرة، فلو أن السيدة إيغلانتين قررت الصعود إلى غرفتها بدل المغادرة إلى البلدة لكانت ضبطته لا محال بالجرم المشهود. أصدرت عجلات العربة صوتاً وهي تغادر بوابة العزبة متجهة إلى الطريق، عندها استدار شارلوك وتوجّه إلى المطبخ.

صرخت الطاهية: «سيد شارلوك». كانت الطاهية كبيرة في السن وكانت وجنتاها حمراوين من حرارة الفرن ويدها مغطّاتين على الدوام بدقيق القمح. ولكن وجهها اليوم، كان شاحباً وكانت بشرتها حول عينيها مجعّدة، كما لو أنها كانت تحمل نفسها على عدم البكاء. قالت له: «لقد وضعت الخبر بالفرن منذ بعض الوقت، غُذ بعد قليل أعطك رغيفاً طازجاً وبعض الزبدة».

أجابها شارلوك: «شكراً لك، ولكنني كنت أبحث عن السيدة إيغلانتين».

بدا وجه الطاهية وكأنه كبر خمس سنوات في غضون هذه الثواني.

«لقد غادرت إلى البلدة، والحمد لله أن تخلّصنا منها، يبدو أن الخُضر التي كنت أحضرها لم تكن تتلاءم ومعاييرها، يظن الجميع أنها هي ربة البيت وليس السيدة هولمز، وكأنها تحضر الطعام لفندق فخم».

عندها سألتها شارلوك: «يبدو أنها شخص صعب الإرضاء». لقد تعلم شارلوك من قبل أستاذه أميوس غروي أن لا يعلق على

الجمال الطويلة، وهذا ما يترك عادة الأشخاص الذين يتكلمون كثيراً يتكلمون أكثر، ويبدو أن الطاهية هي أحد هؤلاء الأشخاص.

«معك حق لم يسبق لي أن قابلت أحداً مثلها، ولسانها حاد كسكين الجزار، لقد عملت مع مئات مدبرات المنازل ولكني لم ألتق مثلها».

سألها شارلوك: «ما دامت تتمتع بمثل هذه الصفات فما الذي جعل عمي وزوجته يقومان بتوظيفها، فأنا لا أراها تقوم بأي شيء سوى الاستماع أو المشاهدة».

«لقد أحسنت وصفها، إنها كالغراب، تقف على أحد الأغصان تنتظر دودة». لاحظ شارلوك أن اللون يعود إلى خديها وتابعت: «عندما أتت قامت بتغيير هذا المطبخ بشكل كامل وجعلتنا نخرج كل شيء في المطبخ إلى الحديقة، وقامت بفرك كل الجدران بنفسها، وقالت إن لها تجربة سابقة سيئة مع الفئران والجرذان. يا لها من امرأة! أعتقد أنني سأسمح لفأر أن يدخل إلى مطبخي».

أجابها شارلوك: «إنها امرأة غريبة».

عندها قالت الطاهية: «لديّ قليل من البسكويت سبق أن أعددت، هل تريد قليلاً منه قبل الشاي».

أجابها شارلوك مبتسماً: «بكل امتنان. في الحقيقة سأكون مسروراً لو أُتيحت لي فرصة تناول البسكويت وتخطي تناول الشاي».

فردت عليه: «كم هو أمر يبعث السرور في النفس أن أشعر أن أحدهم يقدر جهودي ويستذوق طعامي». بدأت الآن أكثر سروراً.

بعد أن التهم شارلوك بسرعة ثلاث قطع من البسكويت التي أعدتها الطاهية، غادر المطبخ، وكان مسروراً بالتقدم الطفيف الذي أحرزه في بحثه، فعلى الأقل إنه يعلم الآن أن السيدة إيغلانتين دخلت هذا المنزل بنية البحث عن شيء ما. أيمن أن تبحث عن أطباق ذهبية؟ لكنه حاول أن يقنع نفسه أنه ليس معقولاً. لماذا يمكن أن يكون هناك أطباق ذهبية في هذا المنزل ولم يسبق له أن رأى مثل هذه الأطباق بالرغم من مكوثه هنا لسنة تقريباً. فهو لم يَرَ إلا أطباق البورسلين التي تُستعمل يومياً بالإضافة إلى طقم الخزف الصيني الذي يُستعمل نهار الأحد للضيوف، كما أن أيّاً من هذه الأطباق لم يكن مذهباً.

فجأة، لم يكن باستطاعته التعامل مع مسألة البقاء طوال اليوم في المنزل، وقد جعله هذا الأمر يشعر بثقل كما لو أنه يرتدي معطفاً ثقيل الوزن، وأحس بضرورة مغادرة المنزل. فكّر للحظة بالذهاب لمقابلة أميوس غروي وفرجينيا، ولكنه شعر بأن هناك

مزيداً من الأشياء يُفترض به القيام بها بخصوص السيدة إيغلانتين، فإن كانت في فارنهايم تجلب خُصراً أفضل من التي جلبتها الطاهية، فهي فرصة مناسبة لكي يتعقبها متخفياً، فربما كان جلب الخُصَر ستارة لقيامها بأمر آخر. توجّه نحو الإسطبلات وبحث عن حصانه. إنه يعتبره حصانه، بالرغم من أنه قام بسرقة من الكونت موبرتس. ولحسن الحظ، لم يأت البارون ويسأل باحثاً عن حصانه، وقد أبدى الحصان سروره بوجوده مع شخص مثل شارلوك يعتنى به ويمتطيه دائماً، وقد سمى هذا الحصان فيلادلفيا، ويبدو أن الاسم راق للحصان.

وضع شارلوك السرج على صهوة الحصان كما علّمه السائس الذي يعمل لدى آل هولمز، وامتطاه وأخذ الحصان يخبّ خارجاً من عربة آل هولمز متجهاً نحو فارنهايم. لقد أصبح ماهراً في امتطاء هذا الحصان خلال الأشهر القليلة الماضية بعد عودته من الرحلة إلى روسيا برفقة شقيقه والتي كانت مليئة بالأحداث.

أسرع الحصان الخطى على طول الطريق ماراً أمام الأشجار الطويلة لغابة أليس هولت الذي انضم إلى المنظمة الإجرامية العالمية «بارادول تشامبر» التي كانت متورطة بمخططات البارون الضخمة، والتي فشلت خطتها باغتيال رئيس الشرطة السرية الروسية، ولكنهم كانوا لا يزالون في مكان ما هناك.

بدأت فارنهام تظهر قبل أن يدرك شارلوك ذلك، فقد لاحظت أبنية الآجر التي تعلوها سطوح قرميدية بدلاً من الأكواخ التي كانت توجد على الطريق المؤدي إلى عزبة آل هولمز، وبدل أن يخاطر بالدخول إلى فارنهام على صهوة الحصان وبالتالي يتيح لإيغلانتين فرصة رؤيته، قرر ربط حصانه في أحد الإسطبلات التي سبق له أن استعملها، ودفع للسائس النقود ليهتم بالحصان ويشربه، وتابع طريقه سيراً على القدمين.

إن كانت السيدة إيغلانتين صادقة بموضوع الخُضر فيفترض به أن يجدها في السوق. توجه شارلوك نحو السوق التي تقع في ظل أحد الأبنية المؤلفة من طابقين وكثير الأروقة. كانت السوق مزدحمة بالأكشاك التي تبيع شتى أنواع الطعام من الفاكهة إلى الحبوب والأسماك واللحوم المدخنة.

لم يتمكن من رؤية السيدة إيغلانتين في أي مكان، ولكنه رأى ماتي الذي كان يقف أما أحد الأكشاك وبدا كأنه ينتظر أن يتقدم أحدهم نحوه.

نظر ماتي إلى شارلوك ولوّح له، ولكنه لاحظ كيف أن نظرة صديقه تتجه نحو الكشك، وعلا وجهه لبرهة تعبير غريب قبل أن يسير.

سأله شارلوك: «أنتتظر الغداء؟».

أجابه: «شارلوك، إنني عادة لا أهتم بأسماء مواقيت الطعام بل أتناول الطعام متى أجده».

«إنه تصرف حكيم، هل شاهدت السيدة إيغلانتين في الأرجاء؟».

هز ماتي كتفيه وسأله: «مديرة المنزل، إنني أحاول دائماً تجنبها، إن وجودها هنا خبر سيئ».

«ولكن هل شاهدتها؟».

أوماً ماتي برأسه ناحية كشك يبيع سمك الترويت الملقى على عشب وقال: «كانت هناك منذ دقائق، وقالت مشتكية إن الأسماك صغيرة جداً».

«هل انتبهت في أي اتجاه ذهبت؟».

هز ماتي كتفيه وقال: «لم أهتم لأمرها، لأنها كانت بعيدة عني، لماذا تسأل عنها؟ هل من خطب ما؟».

فكر شارلوك إن كان يجدر به إخبار ماتي عما حصل بين عمه والسيدة إيغلانتين، ولكنه في النهاية قرر أن يعتصم بحبل الصمت، فالأمر كان من الأمور العائلية الخاصة على الأقل حتى الآن. فأجابه «لا، أريد أن أعرف أين هي فقط».

أجابه ماتي: «ليس من الصعب عليك إيجادها فهي ترتدي دائماً ملابس سوداً وكأنه نهار الأحد وهناك شخص ميت وتقوم بواجب العزاء..».

بينما كان الفتیان یمران عبر السوق بین الباعة والمشتريين، تمكن شارلوك من التقاط مقاطع من أحاديث من مختلف الجهات.

«... أنا قلت له إنه هو سيأتي من دونها، لذا، سأغادر...».

«... أنت وعدتني بأن الصفقة كانت جاهزة، بل...».

«... إن شاهدتك مجدداً مع هذه الفتاة فسوف أضربك بشدة لدرجة أنك ستلتف حول نفسك لأسبوع...».

لفت أحد الأصوات انتباهه، كان صاحب الصوت يتحدث ولكنه أميركية، وهو يعرفها من خلال تحدثه مع أميوس غروي، ومن خلال الوقت الذي أمضاه في نيويورك. استدار ظناً منه أن المتحدث هو غروي ولكن الوجه الذي رآه كان يعود لرجل أصغر سناً، قاسي الملامح. كان شعر الرجل مرفوعاً إلى الخلف، وبدأ لشارلوك أن أذن الشخص مفقودة، وكل ما استطاع رؤيته مكان الأذن عبارة عن أنسجة متجمعة على شكل ندبة. كانت ثياب الرجل مغبرة، وبدأ كما لو أنه يرتدي هذه الثياب منذ فترة طويلة. وكان الرجل يحدث رجلاً آخر أشقر الشعر ذا وجه كثير الندوب الدائرية، كما لو أنه يعاني من حالة جذري سيئة.

«... سيسلخون جلدنا ونحن أحياء وسيجعلون جلودنا

قبعات». قال الرجل ذو الأذن المفقودة.

«يجدر بنا إيجاد غروي وابنته فهما أملنا الوحيد».

«حسنًا، نحن نعلم ما سيحل بنا إن لم نجدهما. أتذكر أبنار؟».

«ياه» قال الرجل الداكن الشعر، وتغصن وجهه عندما سمع ما قاله الرجل الآخر ويبدو أن ذلك ذكره بأمر بغيض.

كان الرجلان يسيران بعكس اتجاه شارلوك وماتي، وهذا كل ما استطاع شارلوك سماعه قبل أن يصبح خارج نطاق سمعه. بدا لشارلوك أن ما سمعه على جانب من الخطورة، لذا قرر التوجّه إلى غروي وإخباره بما سمع فيجدر بغروي أن يعلم أن أحدهم يبحث عنه.

في هذه الأثناء، كان شارلوك وماتي في الجهة المقابلة للرجلين من السوق.

قال ماتي: «انتظر هنا لدقيقة»، وابتعد نحو المبنى المؤلف من طابقين والذي يمتلك أروقة، فقد شارلوك أثره عندما اختفى داخل الظل، وكان على وشك أن يستدير ويمسح بعينه الحشد لكي يرى إن كانت السيدة إيغلانتين بينهم، عندما ظهر رأس ماتي من فوق حاجز سطح البناء وهو يركض على سطح المبنى. لوح أحدهما للآخر، وقد دهش شارلوك من السرعة التي تمكن من خلالها ماتي الوصول إلى الأعلى، مسحت عينا الفتى الحشد، وفي غضون لحظة أشار إلى شيء ما.

أوماً شارلوك قائلاً: السيدة إيغلانتين، وهو يثق بقدرة ماتي على قراءة الشفاه وفهم كلماته. فرد عليه: لا، فطيرة لحم غنم.

لم يكن شارلوك واثقاً من أن ماتي أصدر صوتاً. ولكن حركة فمه كانت واضحة. عبس ماتي وأوماً مجدداً: «إنني أمزح، إنها هناك. رفع شارلوك إبهامه وبسرعة اختفى رأس ماتي خلف حاجز السطح.

اقتحم شارلوك حشد البائعين والمشتريين، وتقدم بالاتجاه الذي أشار إليه ماتي، وهو ينظر إلى رؤوس الأشخاص باحثاً عن تسريحة شعر تشبه تسريحة السيدة إيغلانتين، بعد لحظات، كان قد شاهد كل تصفيفات الشعر من المجعد إلى الأملس إلى المربوط فالأصلع وكل ما يُعتمر بشتى الألوان من أحمر إلى أسود فأبيض. في النهاية، وجد السيدة التي يبحث عنها؛ كانت تقف عند الزاوية اليمنى للسوق، وكان توليه ظهرها، وكانت تتحدث مع رجل قصير القامة طويل الشعر، يسرحه إلى الخلف، وكانت سترته ملطخة بالدهن المتجمع عليها مع الأوساخ القديمة عند الكتفين والمرفقين. لم يكن هذا الرجل يتناسب والنوعية التي ظن شارلوك أن السيدة إيغلانتين تتعامل معهم.

تقدم شارلوك أكثر وهو ينظر بعيداً عنهما كي لا ينتبها أن أحداً يصيح السمع إليهما.

عندما دنا منهما سمع الرجل يقول: «الوقت يمر، وليس هناك أي أثر، هل أنت متأكدة أنه موجود في المنزل؟».

أجابته السيدة إيغلانتين: «ما من مكان آخر يمكن أن يوجد فيه». تابعت حديثها ببرودة: «وأنت لا يفترض بك أن تذكرني دائماً بمقدار الوقت الذي أمضيته وأنا أعمل هناك».

سألها الرجل: «هل يمكنني القيام بأي شيء من أجل تسريع الأمر».

«هل يمكنك أن تتخلص من ذلك الفتى المزعج المدعو شارلوك. إنه يستمع على الدوام، وهو ذكي جداً، وقد يتمكن من معرفة ما أقوم به».

«أتريد أن تتخلصي منه مؤقتاً أم إلى الأبد».

«إلى الأبد». هسهست. «أريد منك أن تُقَطِّعه وتضع أوصاله في أماكن مختلفة بحيث يتعذر على أيِّ كان إيجادَه وتجميعه».

الفصل الثالث

فغر فم شارلوك من هول الصدمة. كان يعلم أن السيدة إيغلانتين لا تحبه، وأنها تكرهه، ولكن أن يصل كرهها له إلى حد الرغبة بقتله فهذا شكّل صدمة له. ما الذي قام به وأجج فيها كل هذا الحقد؟ فهو لم يقم بشيء سوى السؤال عن وضعها في المنزل وتحدي سلطتها بين الحين والآخر.

قال الرجل ذو الشعر المدهن شيئاً، وحاول شارلوك التركيز كي يسمعه.

قال الرجل: «سوف آخذ هذا الأمر بعين الاعتبار. ولكن المشكلة أنني أستطيع أن أذهب إلى عائلة هولمز، وأجني منهم النقود أسبوعياً، ولكنني لا أقوم بذلك من أجل أن أحافظ على عملك. دعينا نواجه الأمر. من سيقوم بتوظيف امرأة عجوز وبشعة مثلك؟ في الحقيقة، هذه الصفقة خاسرة بالنسبة إليّ ولكنك أنت من تجنين فوائدها».

ما إن بدأت السيدة إيغلانتين الكلام حتى رفع الرجل يده وأوقفها، قائلاً: «أعرف ما ستقولينه، ستقولين إنك حين تجدين الكنز المخبأ في هذا المنزل، ستقاسمينه معي، وهذا ما سيجعل كلانا غنياً. المشكلة أن الكنز الذي نتحدث عنه لا يعدو كونه افتراضياً. إنني لم أره ولست مقنعاً بوجوده. كذلك فإن الأموال الذي تمنحني إياها عائلة هولمز لكي أبقى سرها طي الكتمان

يمكنك وصفها بالنقود السائلة باليد. لذا يجدر بي أن أطرح على نفسي السؤال التالي: أيهما أفضل بالنسبة إليّ: مقدار قليل من النقود المضمونة أم مقدار كبير من النقود المفترض الحصول عليها؟».

شخرت السيدة إيغلانتين وردت عليه: «ولكنّ هناك اتفاقاً بيننا سيد هاركينز، وإن تراجعت عن هذا الاتفاق فلن يثق بك أيّ كان مجدداً».

أجابها السيد هاركينز بهدوء: «أنا شخص أقوم بابتزاز الناس، والشيء الوحيد الذي يثق الناس بأنني أقوم به هو أنني لن ابتز من اكتشفت أسرارهم إن هم دفعوا لي بصورة منتظمة». تنهّد وتابع قائلاً: «انظري عزيزتي، لقد قمنا بكثير من الأمور الناجحة معاً عبر السنين فأنت تفشين لي أسرار المنازل التي تعملين فيها وأنا أقوم بجني بعض النقود بشكل منتظم من خلال هذه الأسرار، ولكن منذ أن انشغلت بأمر هذا الكنز المزعوم، لم تعد الأمور كما كانت، ألا يمكننا أن نعيد الأمور إلى سابق عهدها؟».

أخيراً، أجابته السيدة إيغلانتين ببرودة شديدة: «أولاً، أنا لست عزيزتك ولن أكون عزيزتك في يوم من الأيام. ثانياً، إن طريقتك المبتذلة في ابتزاز المحليين بسبب سرقاتهم التافهة وعلاقاتهم الرومانسية بالكاد تدر عليك مبالغ كافية لتنفق على مراهناتك

الكبيرة على سباقات الأحصنة والملاكمة غير الشرعية، وإذا أردت أن تقوم بأي شيء خاص بك فأنا فرصتك الوحيدة». تنهّد السيد هاركينز: «أنت تملكين لساناً سليطاً بتي، ولكنك مقنعة أيتها المعتوهة. حسناً، سأنتظر شهراً إضافياً ثم سأتوجه إلى آل هولمز وسأطلب منهم الأموال».

أجابته: «بالنسبة إليك أنا السيدة إيغلانتين، وطوال حياتك لا ترفع التكلفة بيننا وتدعوني باسمي الأول». بدأت تبدو أكثر هدوءاً، واتجهت نحوه وأمسكت بيده. «إنني على يقين بأنني أوشكت على إيجاد الكنز يا جوش، امنحني مزيداً من الوقت، كل ما أطلبه منك في الوقت الحالي أن تزيح من دربي ذلك الفتى المزعج المدعو شارلوك، أيمكنك القيام بذلك».

وعدها قائلاً: «سأطلب من بعض أتباعي مساعدتي، هل لا يزال لديك بعض الوقت كي نأكل؟».

هزت رأسها وقالت: «إن تلك العائلة اللعينة تنتظر مني أن أعد لها وجبة، أستطيع أن أقسم لك بأنني أفكر في بعض الأحيان أن أدس السم في طعامهم، وأتشفى منهم برؤيتهم يتألمون على سجادة غرفة الطعام، ولكن الوقت لم يحن بعد. حسناً يجدر بي العودة الآن».

وضّح الرجل وقال: «لنبقَ على تواصل، وأعلميني إن وجدت تلك الأطباق الذهبية التي تتحدثين عنها على الدوام».

«هذا ما سيحصل». استدارت لتغادر ثم التفت إليه مجدداً قائلة: «كنت سأنسى، لقد وجدت هذه في غرفة إحدى الخادومات». مدت يدها إلى إحدى ثنيات تنورتها، وأخرجت رسالة وقالت: «هذه رسالة من فتى يدّعي حبها».

أجابها هاركينز: «إنه أمر لا يهمني».

أجابته قائلة: «سيهمك الأمر عندما تعلم أن هذا الفتى هو ابن عمدة فارنهام».

أحنى هاركينز رأسه وقال: «رسالة من ابن العمدة إلى خادمة، إنه أمر يمكنني أن أجني منه بعض النقود، فالعمدة يهتم بالمظاهر، وهو دائماً يشيع بأن ابنه سيرتبط يوماً ما بابنة أحد النبلاء. هل هذه الرسالة تحمل توقيع ابن العمدة؟».

أجابته السيدة إيغلانتين: «إنها تحمل توقيعاً بالحب والقبلات».

ابتسم هاركيز وقال: «الناس لا تتعلم من أخطاء الآخرين، أنا لا أكتب أي شيء وبذلك لا يمكن لأي كان أن يأخذ عليّ مستمسكاً». مَدَّ يده، وأخذ الرسالة من السيدة إيغلانتين وقال: «شكراً لهذه المعلومة، أتريدون النقود الآن أم أضيفها إلى حسابك». فأجابته: «أفضل أن تدفع لاحقاً، ولكن أحرص أن لا تنسى».

أجابها: «كوني على ثقة أنني لن أنسى، فذاكرتي كحدّ السيف».

عندها سار كل من جوش هاركينز والسيدة إيغلانتين كل في اتجاه مختلف. توقّع شارلوك أن يقوم هاركينز بطبع قبلة على خد السيدة إيغلانتين بسبب الود الذي ترافق مع نهاية الحديث، ولكن هذا لم يحصل.

احتار شارلوك من يتبع منهما السيد جوش هاركينز أم السيدة الشمطاء إيغلانتين. فكر شارلوك أن لا يتبع أيّاً منهما، وأن يذهب إلى ماتي الذي ينتظره، ويمضياً نهارهما معاً في فارنهام، ولكنه كان على يقين من أنه لا يجب ألا يدع الأمور تجري وكأنه لم يسمع شيئاً. لقد كانت الأمور أخطر مما بدت عليه، فالأمر لا يتعلق بأمنه وحياته التي كانت مهددة بل الأمر يتخطاه ليشمل مستقبل أسرته.

بعد برهة، قرر شارلوك أن يتبع الرجل ذا الشعر المدهن، فالسيدة إيغلانتين قالت إنها ذاهبة إلى العزبة، وهو يستطيع أن يتدبر أمرها لاحقاً، ولكنه لم يكن يعلم شيئاً عن الرجل وبالتالي عليه تتّبعه ومعرفة ما سيقوم به.

أدرك شارلوك الآن، أن هاركينز يملك وسيلة ابتزاز على إحدى الخادومات. في الحقيقة، لم يكن يعلم أي واحدة منهن، حتى إنه لم يكن يعلم أسماء الخادومات في منزل عمه، ولكنه كان يعلم

أنهن مخلصات في أعمالهن، فكل ما اقترفته هذه الفتاة من ذنب لا يعدو عن كونها أحببت فتى من طبقة اجتماعية مختلفة. لم يكن شارلوك يعرف لماذا يجب أن تُعاقب الفتاة أو الفتى أو والده العمدة على مثل هذا التصرف.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يفكر فيها شارلوك بأن تقسيم المجتمع البريطاني إلى طبقات العمال والطبقة الوسطى والنبلاء أمراً لم يكن في صالح انتظام الحياة.

عندما تأكد شارلوك أن السيدة إيغلانتين لن تعود وتلتفت إلى الخلف، اندفع بين الحشد يتبع الرجل المدهن الشعر.

حافظ شارلوك على مسافة تفصله عن هاركينز، كي لا يكتشفه في حال ألقى نظرة إلى الخلف. في الحقيقة، كان شارلوك متأكداً من أن غريمه لم يكن يعرف شكله، ولكنه كان أيضاً متيقناً من أن هذا الرجل لا يسير إلا ويلتفت بين الحين والآخر إلى الخلف كي يتأكد أن ما من شخص يتعقبه. بينما كان شارلوك يتعقب الرجل، لاحظ كيف أن أهل البلدة كانوا أفضل هندياً من هاركينز، وكانوا يشيخون بنظرهم كي لا ينظروا إليه. بدا الرجل أنه يعرف كثيراً من الأشخاص ولكن من الواضح أن معرفتهم به لم تكن ودية. لم يستطع شارلوك إلا أن يتذكر كيف كان التلاميذ الكبار في مدرسة ديبدن يتنمّرون على التلاميذ الصغار عندما يسيرون في ردهات المدرسة.

أحس شارلوك أن أحدهم يقف إلى جانبه. في الواقع، لم يكن واثقاً من رغبته بمعرفة من يقف إلى جانبه، فقد خُيِّل إليه أن السيدة إيغلانتين قد عادت واكتشفت أنه كان يتنصّت عليها، ولكن كان ماتي وليس إيغلانتين هو من يقف إلى جانبه. ابتسم ماتي الذي كان يحمل قرنيطة نيئة ويقضمها. سأل ماتي وكان فمه محشواً:

«ما الأمر؟».

«إنني أتعقب أحدهم».

«من تتعقب؟ السيدة الشمطاء إيغلانتين؟».

هز شارلوك رأسه وقال: «كلا، إنني لا أتعقب السيدة إيغلانتين، بل أتعقب رجلاً قابلته يدعى على ما أظن جوش هاركينز». علت الدهشة وجه ماتي، وبدا القلق في عينيه وبدأ يقول: «جوش هاركينز؟! ذلك الرجل القصير القامة المدهن الشعر؟».

«إنه بعينه».

هز ماتي رأسه وقال: «من الأفضل، شارلوك، أن لا تتورط معه، لقد سمعت عنه كثيراً من الأمور، عمال القناة يتحدثون عنه همساً، إنه يأخذ عمولة من كل لصوص هذه البلدة، فهو يتقاضى خمسة بالمئة من كل ما يجنونه أسبوعياً، وإذا لم يدفعوا له يتقاضى خمسة بالمئة من أجسامهم فهو قد يقطع أصابعهم أو أصابع أقدامهم أو آذانهم أو أنوفهم... فهو يقطع أي شيء منهم

حتى يحصل على خمسة بالمئة من مجمل وزنهم، هذه هي شريعته، ودأبه الدائم، لقد سبق لي أن تحدثت إليه عندما قدمت إلى فارنهام للمرة الأولى، فقد أمسك بكتفي وأخذني جانباً وقال لي: لقد لاحظت أنك تأخذ بعض الطعام من هنا وهناك، ما من خطب في الأمر ولن أقبل أن يقول أحدهم إن جوش هاركينز يتقاضى عمولة من فتى يسعى وراء تناول الطعام. ولكن سجّل هذه الملاحظة من صديق: عندما تكبر وتأخذ أموالاً بدلاً من الخُضِر والفطائر فسوف آخذ حصتي منك. اسأل أيّاً كان، فإذا لم أحصل على حصتي طواعية أشار بأصابعه، فساخذ القسم الذي يحلو لي. تابع ماتي وقال: إنه شخص سيئ وإذا قارنته بالأشخاص السيئين فسيحتل رأس القائمة.

أوماً شارلوك برأسه بامتنان، بينما كانا يسيران بين الحشد وقال: «أتفهمك، لقد وصلتني هذه الفكرة عنه، ولكن لديه شيء ضد عائلتي، لديه بعض المعلومات التي يستخدمها للضغط على عائلتي».

«صحيح، إنك مصيب، فهو جيد بالابتزاز. إنه يقوم بتجميع بعض الأسرار عن الأشخاص، ويجبر الأشخاص الذين يعرف أسرارهم على أن يدفعوا له أموالاً كل أسبوع كي لا يفشي أسرارهم». هز ماتي رأسه وتابع: «إنه يجمع قليلاً من المال من

كل مكان وهو يجني من وراء هذه الأعمال ثروة من دون أن يقوم بأي جهد».

قال شارلوك: «إنه يجني الأموال من خلال تعاسة الناس». جعلت هذه الفكرة شارلوك يشعر بالغضب، فقد بدا له هذا الرجل طفيلياً مزعجاً، لا بد من قيام أحدهم بالتصدي له. أجابه ماتي: «يخشى الأشخاص الذين يقوم بابتزازهم من فضح أسرارهم، فإن لجأوا إلى الشرطة ستصبح أسرارهم على كل شفة ولسان، أضف إلى ذلك فهو ربما يبتز نصف رجال شرطة فارنهام أيضاً وهؤلاء بدورهم لا يريدون أن تفتضح أسرارهم».

عندها قال شارلوك: «إذاً لا يجدر بي القيام بأي شيء بنفسى». وقد تفاجأ شارلوك عندما سمع الكلمات التي تفوه بها.

كان ماتي على وشك قول شيء، ولكن جوش هاركينز الذي كان يسير أمامهما انعطف فجأة مغادراً السوق، وكان لا يزال يحمل الرسالة التي أعطته إياها إيغلانتين. أشار شارلوك لماتي كي يلتزم الصمت، وخرجا معاً من بين حشد الناس. توقف شارلوك عند حائط الآجر، ونظر من هناك وتوقع أن تلتقي نظراته بنظرات المبتز جوش هاركينز، ولكنه كان يتقدمهم ويسير في شارع فارغ. لم يبرح شارلوك مكانه حتى أصبح هاركينز في نهاية الشارع تقريباً. لو قاما بتعقبه وهو لا يزال في وسط هذا الشارع، وقام بالالتفات إلى الخلف لكان من السهل عليه

ملاحظتهما، لأنهما سيكونان الشخصين الوحيدين عداه في هذا الشارع.

وصل هاركينز إلى نهاية الشارع، وانعطف نحو اليسار، عندما اختفى عن نطاق رؤيتهما، دفع شارلوك ماتي في هذا الشارع وبدأ بالركض.

لم يستغرق الأمر منهما إلا ثواني معدودة حتى يصلا إلى نهاية الشارع، وقاما بما قاما به سابقاً، تنحى ماتي جانباً، وأخذ شارلوك يتلصص مستكشفاً الشارع. كان هاركينز على بعد عشرين قدماً منهما، وكان يتابع السير متجاهلاً كل شيء حوله، قدّر شارلوك أن هاركينز كان واثقاً جداً من نفسه.

وصلت رائحة إلى أنف شارلوك، كانت رائحة حادة وكأنها مزيج من روائح مواد التنظيف بالإضافة إلى مياه الصرف الصحي. أحس شارلوك بعينه تدمعان من أبخرة الرائحة التي شمها، وشعر بالانزعاج.

في نهاية هذا الشارع، وبدل أن ينعطف هاركينز إلى شارع أو زقاق آخر، توجه نحو أحد الأبواب وقام بفتحه بواسطة مفتاح، ونظر إلى اليمين واليسار، وكان لا يزال يحمل الرسالة. تراجع شارلوك كي لا يتمكن هاركينز من رؤيته، وحاول أن لا يعطس، وعندما استعاد شارلوك ثقته بنفسه، ومد رأسه كي ينظر إلى الشارع، كان هاركينز قد اختفى.

سأله ماتي: «ماذا يوجد هناك؟».

بدوره أطل ماتي برأسه أسفل رأس شارلوك فقال ماتي بحزم: «مدبغة، هنا يجلبون جلود الأبقار من المزارع ويقومون بمعالجتها، كي يصنعوا منها جلوداً صالحة للاستعمال».

سأل شارلوك بتعجب: «يعالجون الجلود؟!». لقد سمع هذه العبارة من قبل، ولكنه لم يكن متأكداً من معنى العبارة. أجابه ماتي: «نعم يعالجونها، عندما يعالجون الجلود يحولون جلد الأبقار إلى جلود صالحة للاستعمال، والمعالجة تزيد من متانتها وتجعلها تصلح لمدة طويلة وتحول دون تعفنها».

«كيف يقومون بهذا الأمر؟».

«من خلال نزع اللحم عن جلد الأبقار بواسطة سكاكين حادة، وبعدها يغسلون الجلود بمواد كيميائية».

تنشق شارلوك مجدداً، وتمكن من الإحساس برائحة غاز الأمونيا في حنجرته وأنفه وقال: «حسناً، أستطيع شم رائحة المواد الكيميائية».

أجفل ماتي: «يمكن شم الرائحة في شتى أنحاء فارنهام، فالمواد المستخدمة ذات رائحة مريضة».

عبس شارلوك وقال: «ماذا تقصد؟».

«حسناً، ذات يوم أخبرني أحد الأشخاص أنهم يستخدمون مادة اليوريا».

فكر شارلوك لبرهة. اليوريا؟ كانت كلمة يوريا تذكره بالبول ونظر نحو ماتي وقال له: «أنت تقول لي إنهم يعالجون الجلود بواسطة البول».

أوماً ماتي برأسه وقال: «إنهم يستخدمون اليوريا وغيرها من المواد، ولكن لا يجدر بك التفكير بالأمر. كنصيحة صديق يجدر بك كلما مررت بالقرب من مدبغة أن تقوم بالركض أو سد فتحتي أنفك». هز برأسه: «لقد سمعت قصة شخص كان يعمل في مدبغة وعندما كان يحاول خلط الجلود داخل إحدى الخوابي مستخدماً عصا طويلة، فقد توازنه وسقط داخل الخابية؟ أحس شارلوك بأن عينيه اتسعتا وقال: «سقط داخل خابية...؟».

«بالضبط».

«ماذا حل به».

«غرق. نعم، عندما أموت أتمنى أن أموت بسلام وأنا نائم، وليس غرقاً داخل خابية تحتوي...». عندها قال شارلوك: حسناً، يجب أن ندخل. «ماذا؟».

«قلت يجب أن ندخل».

«هل أنت مجنون؟».

«لقد دخل جوش هاركينز».

«نعم أعلم، هذه وجهة نظر، لن تكون رائحة هذا المكان أكثر سواء من رائحة الكوخ الخشبي في محطة سكة الحديد الذي أنقذتني منه العام الماضي في أميركا. وكانت رائحته كرائحة الجثث المتحللة. ولكن، في داخل هذا المكان هناك رجل خطير وربما الأكثر خطورة على مدى أميال. في بعض الأحيان أتساءل عن ذكائك يا شارلوك.

تنهد شارلوك: «أتمنى لو أنني لا أقدم على هذا الأمر، ولكنه أمر ملح، فهاركينز يمتلك معلومات عن عائلتي، وهو يقوم بابتزاز عمي وزوجته، وهما شخصان جيدان، وفي حياتهما لم يقوما بإيذاء أي كان، وهما يرعيانني ويطعمانني منذ أكثر من سنة، وأنا مدين لهما بهذه الخدمة. نظر إلى نهاية الشارع، وأحس أن هناك تعبيراً داكناً يعتلي وجهه وقال: «لقد توصلت إلى نتيجة مفادها أنني أكره المبتزين».

قال ماتي وهو يتلفت حوله: «حسناً، إن محاولة الدخول من خلال الباب لن تعدو كونها مضيعة للوقت، ربما أقفل هاركينز الباب خلفه، وإن لم يفعل لا نعلم إلى أين سيقودنا الباب، ربما إلى غرفة مليئة بالناس، هناك نافذة محطمة يمكننا استعمالها للدخول».

«كيف عرفت بأمر النافذة المحطمة؟». نظر ماتي نحو شارلوك بسخط وقال: «إنني أعلم أين توجد النوافذ المحطمة في شتى

أنحاء فارنهايم، فربما احتجت لها يوماً ما، أيمكنك أن تتخيل كم هي عديدة وكثيرة الأشياء التي يتركها الناس على طاولة المطبخ، ولكنني لم أقرر استعمال هذه النافذة عندما عرفت نافذة أي مكان هي ومن هو مالك هذا المكان».

عبس شارلوك وقال: «ما هو السبب الكامن وراء عدم إصلاح هاركينز للنافذة؟».

هز ماتي كتفيه: «لأنه ربما يعلم أن ما من شخص لا يعاني من خلل عقلي سيقدم على دخول هذا المكان، وهو يعرف من هو مالكه، وربما تسمح هذه النافذة للهواء بالدخول إلى المدبغة. وحده الله يعلم سبب ترك النافذة محطمة، ربما يريد للنسمات أن تعبر».

أوماً شارلوك وتقدم المسير، وعندما وصلا إلى أمام الباب المغلق الذي دخله هاركينز، لم ينظر إلى جانبه، لأنه خشي أن يكون الباب غير محكم الإغلاق، وهاركينز يقف خلفه لكي يرى إن كان هناك من شخص يتتبعه، فالثقة التي بدت عليه وهو يدخل المكان توحى بأنه لا يهتم ولا يخشى إن كان أحدهم يتبعه، ولكن شارلوك لم يكن بوسعه المخاطرة فربما كان هذا الرجل أكثر خطورة مما يبدو عليه.

شعر شارلوك بالقشعريرة تسري عبر جسده، وتنهد عند اجتياز الباب ووصل إلى نهاية الشارع.

كان ماتي يقف إلى جانبه، ومعاً استدارا وانعطفا إلى زقاق ضيق.

كان باب المدبغة يؤلف أحد جوانب الزقاق، وكان باستطاعة شارلوك رؤية النافذة التي أخبره ماتي عنها والتي كانت على ارتفاع ثماني أقدام، وكان زجاجها مشبكاً. وكانت الجهة السفلى اليمنى من النافذة محطمة.

جعلته الرائحة المنبعثة من هذه الفتحة بالنافذة يشعر بالإعياء، ولكن بدل أن يبتعد، قبض على معدته، وابتلع لعبه أكثر من مرة، ولم يكن يسمح لجسده أن يخونه الآن، كان يجدر به التعامل مع الوضع.

نظر إلى النافذة، التي كانت مرتفعة جداً، مما لا يتيح له المرور، وكان حص الحائط طرياً جداً ما يعني أنه سيتحطم من جراء أي ضغط يطبقه عليه.

كان يجب عليه التفكير بطريقة للدخول عبر النافذة فقال لماتي: «سأرفعك عبر كتفي، وتقوم بفتح النافذة والدخول وعندها تقوم بسحبي».

أجابه ماتي: «لن ينفع اقتراحك، خذ بنصيحة شخص متخصص باقتحام المباني، أستطيع الصعود عبر كتفيك، ولكنني لن أستطيع سحبك، لذا يجب القيام بالأمر بطريقة معكوسة أي

أنت من يصعد على كتفي، وتفتح النافذة وبعد ذلك تقوم بسحبي».

نقل شارلوك نظره بين النافذة المرتفعة وماتي الضئيل الجسم وأوماً بسخط وقال: «إنك، محق، ولكنني لا أريد أن أجرحك». هزّ ماتي كتفيه وقال بطبيعية: «الأمر يمكن أن تحدث، الجروح والخدوش أمور متوقعة ولكن إن اصطدم حذاؤك بوجهي سيكون الأمر سيئاً وسأكون مسروراً مثل لاري». سأله شارلوك: «من هو لاري؟».

حذق إليه ماتي وقال: «هذه عبارة يتداولها الناس طوال الوقت».

«لم يسبق لي أن سمعت هذه العبارة من قبل». «كما قلت لك يجب عليك أن تكثر من الخروج، وتحتك بالناس». ابتسم وتابع قائلاً: «تعال الآن لننجز الأمر، دعنا من هدر الوقت». انحنى ووضع يديه على فخذه، وقال له اصعد بسرعة إنك لا تزال نحيلاً كعهدي بك منذ لقائنا الأول، ولكنني أعتقد أنك اكتسبت بعض العضلات وهي بالرغم من صغر حجمها ثقيلة الوزن».

قبل أن يفكر، وضع شارلوك ركبته اليمنى على ظهر ماتي، وثم قدمه اليسرى وهو يدفع نفسه بقوة حتى يقف، أصدر ماتي صوتاً لكن ظهره ظل متماسكاً، بسرعة تمدد شارلوك نحو الفجوة

في النافذة، وأخذ يبحث عن المقبض الذي يفتح النافذة وفي النهاية وجدته، وحاول القفز إلى داخل الغرفة وهو يشعر بماتي يتحرك أسفل قدميه، علق بطن شارلوك بإطار النافذة، وأخذ يهز نفسه ليحرره، مسّ الخشب جلده، قبل أن يتمكن من السقوط على أرض الغرفة. سيطر على حركته وجثم، وأخذ ينظر حوله.

وجد نفسه في غرفة خالية من الناس، ولكنها مليئة بالصناديق. على الحائط المقابل كان هناك منحدر خشبي يشبه مزلقة الأطفال، وكانت الأرض أسفل النافذة من الداخل على عمق خمسة أقدام، يبدو أن الغرفة مبنية على ارتفاع أقدام عدة عن الأرض، وهذا ما سهل الأمر عليه، فنزل إلى الأرض، وأخذ ينظر من النافذة، كان ماتي ينظر إلى الأعلى بانتظاره، وعندما وجد شارلوك مَدَّ يديه، ودفع شارلوك نفسه نحو الأسفل من أجل الإمساك بيده ورفعته، شعر شارلوك بثقل وزن صديقه على نحو غير متوقع، وأحس بعضلاته تتعب، ولكنه تمكن من سحبه، من دون أن يتأذى. تحركا معاً مروراً بالصناديق متجهين نحو باب مغلق. برم شارلوك مقبضه، وفتح الباب قليلاً قرابة الإنش.

ما إن فتح الباب، حتى وجد غرفة كبيرة كانت تتوسط المبنى، قادهما ممر متجه إلى الأعلى نحو جانب الغرفة، وكان هناك أبواب عدة قادتهما إلى فجوة على اليمين والتي ربما كانت باباً يؤدي نحو الشارع، ولكن معظم هذه الأبواب كانت بمستوى

الأرض في الخارج. في وسط الغرفة كان هناك أربع خوابٍ تشبه الأنصاف السفلى لبراميل عملاقة. وكانت كل واحدة من هذه خوابي تحتوي سائلاً، وفي اثنتين من هذه خوابي كان السائل عديم اللون ويحتوي تكتلات. بدا السائل كحساء تخرج منه فقاقيع ببطء، ولكن الخابيتين الآخرين كان السائل فيهما أصفى ويشبه الماء.

كانت الرائحة التي تتصاعد من هذه خوابي قوية جداً إلى درجة أنه كان باستطاعة شارلوك أن يقسم إن الهواء كان يتموِّج أعلى هذه خوابي.

«أنا لن أتناول الطعام لمدة أسبوع منذ اليوم». اشتكى ماتي بهمس.

اقترح شارلوك عليه قائلاً: «تنفّس عبر أنفك فقط». «هذا ما أقوم به فعلاً، ولكن كم كان الأمر أفضل لو باستطاعتي التنفّس عبر أذني».

لم يجد أثراً لجوش هاركينز، ولكنهما وجدا رجلين يتحركان من خابية إلى أخرى، ويحملان عصوين بطولهما تقريباً، ويقومان بتحريك الأشياء الموجودة داخل الخابية بشكل دوامة، وفي كل مرة يقومان بالتحريك، كانت الرائحة تصبح أكثر سوءاً. قال ماتي: «أنا أعرف هذين الرجلين، إنهما يقومان بجمع الأموال من البلدة لحساب هاركينز، يا للأخبار السيئة». نظر شارلوك إلى

الأبواب العديدة المقفلة، وكان جوش هاركينز يقبع خلف أحدها، ولكنه لم يمتلك الجرأة للاكتشاف قبل أن يعرف أين يوجد المبتز حقيقة.

وبينما كانت الفكرة تعبر رأسه، فُتح باب من الجهة الأخرى من الغرفة، وخرج منه هاركينز، ولكنه لم يكن يحمل الرسالة. صرخ هاركينز على الرجلين بالقرب من الخوابي قائلاً: «استمرا بتحريك الجلود، الكمية الأخيرة كانت مبقعة ومترهلة، إنني لا أدفع لكما لكي تقفا هنا ولا تقوما بعملكما».

«الأمر لا علاقة له بالتحريك أو عدمه سيدي» صرخ أحدهما «الأمر مرتبط بجودة الجلود المستخدمة فالأبقار التي تجلبون جلودها هرمة، وجلودها مترهلة، وإذا أردت نوعية أفضل يجب عليك إحضار جلود أفضل».

صرخ هاركينز: «لا أريد أن أسمع أي كلمة، وإذا وجدت نفسك تملك مهارات تفوق قدراتي، اذهب وأنشئ مدبغتك الخاصة، وإلى حين قيامك بذلك يفترض بك القيام بالعمل وفقاً لطريقتي ووفقاً للمواد التي أجلبها».

هزّ الرجلان بأكتافهما، ونظرا أحدهما إلى الآخر، وتابعا التحريك. حلق هاركينز إليهما لبرهة ثم تابع طريقه، حيث قادته درجات عدة إلى الوسط، مرّ بالقرب من إحدى الخوابي، ونظر

داخلها، وهو يقف على أصابع قدميه كي يتمكن من النظر إلى الداخل، ولم يبدُ أن الرائحة أزعجته.
صرخ قائلاً: «الجلود غير كافية هنا، أضيفاً مزيداً إلى هذه الخابية».

توجّه الرجلان نحو منطقة تخفيها الخوابي عن نظر شارلوك ومّر هاركينز لينضم إليهما، وللحظة بدت الغرفة فارغة.
استغل شارلوك الفرصة، فركض بسرعة وصمت على الممر الخشبي وتوجه نحو الباب الذي خرج منه هاركينز قبل لحظات وتبعه ماتي بصمت.

ما إن وصل إلى الباب، حتى فتحه بسرعة، وانزلق إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه قبل أن يتمكن الرجال الثلاثة من الخروج مجدداً من خلف الخوابي. جزء من دماغه وهو الجزء العاطفي قلق من إمكانية قدرته على الخروج مجدداً، ولكن الجزء الآخر المنطقي طمأنه بأنه طالما أنهم اختفوا مرة فمن الممكن أن يختفوا مجدداً. كل ما كان يجدر القيام به الآن هو القيام بالبحث عن الأسرار المخبأة في الغرفة، ثم انتظار فرصة مواتية لمغادرة الغرفة.

نظر حوله فوجد حائطاً أسندت إليه عصي عديدة تحتوي عقافات في نهاياتها، وهي على الأرجح تُستخدم لرفع الجلود من الخوابي، أما الجدران الأخرى فكانت تغطيها الرفوف، وعلى كل

رف كان هناك صناديق خشبية، وقد دُون على كل صندوق حرف من حروف الأبجدية الإنكليزية. توجّه نحو الصندوق الأول وأنزله عن الرف ورفع غطاءه.

كان الصندوق مليئاً بالأوراق: مقتطفات من الجرائد ورسائل ومعاملات رسمية وصور، وقام بمسح اثنتين منها بطريقة عشوائية. كانت المقتطفات من الجرائد عبارة عن خلطة غريبة من الجرائم مثل السرقة والقتل وغيرهما، بالإضافة إلى تقارير عادية جداً من قبيل الزواج والولادة والموت. أما المعاملات الرسمية فمنها ما كان عبارة عن أحكام قضائية وشهادات شهود بالإضافة إلى قليل من وثائق الولادة والزواج، وبدأت وثيقة أو اثنتان وكأنهما ممزقتان مباشرة من سجلات الكنيسة. وتراوحت الرسائل بين اعترافات بالحب أو البغض أو مثل طلبات توظيف، بالإضافة إلى دعوات للمبارزة. بعض الصور كانت رسومات بريئة وقد دُون اسم الرسام على خلفية الرسمة إلا أن بعضها جعل شارلوك يبرمها محرّجاً. بشكل عام كان الصندوق يحتوي كل شيء يمكن أن يصادفه الإنسان في الحياة.

فكّر للحظة، بالرغم من أن معظم الأشياء باستثناء بعض الرسوم كانت بريئة إلا أنها كانت تحمل معنى أكثر جدية وخطورة مما هو ظاهر. وافترض شارلوك أن رسالة الخادمة التي تعمل في عربة آل هولمز إلى صديقها موجودة في صندوق آخر،

وهي لا تعدو كونها تعبيراً عن الحب، إلا أن خطورتها وأهميتها تكمن بالشخص الذي كتبها وهو ابن العمدة، وهو شخص من طبقة رفيعة المقام. وما ينطبق على رسالة الحب البريئة هذه من ابن العمدة إلى الخادمة يمكن أن ينطبق على وثيقة ولادة فليس بالضرورة أن تكون الأم متزوجة، وهذه الوثيقة تمثل الأداة التي يستخدمها هذا الحقير جوش للابتزاز. كما أن وثائق الزواج هي وثائق لا يمكن استخدامها كوسيلة ابتزاز إلا إذا كان الزوج قد سبق له الزواج قبلاً وكانت زوجته الأولى لا تزال على قيد الحياة. حتى وثائق الوفاة يمكن أن تكون وسيلة للابتزاز في حال كان هذا الحقير يعرف بوجود أقرباء يمكنهم أن يرثوا المتوفى، وكان بإمكانه تهديدهم بأنه يمتلك أدلة تورطهم وتعتبرهم أصحاب مصلحة بموت هذا القريب وربما يتهمهم بالقتل على سبيل الابتزاز.

نظر شارلوك في أرجاء الغرفة بإحباط وغضب، فهذه الأوراق يمكنها أن تدمر حياة الناس إذا استخدمت بالطريقة غير الصحيحة. لقد كان بإمكان جوش هاركينز أن يبتز الأشخاص الذين يبتزهم ويأخذ منهم الأموال ولو كانوا عاطلين عن العمل. تركزت عينا شارلوك على صندوق دَوْن عليه الحرف ايتش (ه بالعربية) في هذا الصندوق كان يقبع السر الذي تمكنت السيدة إيغلانتين من اكتشافه عن آل هولمز. أراد بسرعة أن يعرف ما

هو هذا السر، ذلك السر الذي يفضل عمه وزوجته المحافظة عليه
طي الكتمان من خلال إبقاء تلك الأفعى السامة إيغلانتين بالقرب
منهما كي لا تفشي هذا السر.

كان بإمكانه أن يدمر هذا الصندوق والصناديق الأخرى ويحرر
المئات من البؤس.

بعد أن توصل إلى هذه النتيجة كان السؤال الذي يُطرح على
نفسه: هل لديه الخيار بين تدمير أو عدم تدمير هذه الصناديق.
ولكن السؤال الأكثر إلحاحاً كان: ما هي الوسيلة التي يجب
استخدامها لتدمير هذه الصناديق.

الفصل الرابع

علم شارلوك أنه يجدر به استخدام الأدوات المتاحة بين يديه لتدمير هذه الرسائل والصور وغيرها من المستندات. كان هناك كثير من الصناديق التي لن يستطيع وماتي رفعها من المدبغة، وإن حاولا إخراجها فسيتم رصدهما بسرعة، لذا لا بد من تدمير هذه الصناديق في مكانها.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ فكّر بإحراقها، وبذلك يدمر الكنز الذي كان يستخدمه هاركينز في ابتزاز الناس، ولكن إحراق هذا الكنز سوف يدمر المبنى وربما تنتشر النيران إلى جهة أخرى، وهو لا يريد أن يتحمل وزر مقتل أحد الأبرياء. وأخيراً، خطرت له فكرة جيدة، أن يضع الصناديق في الخوابي، وإذا لم تدمر المواد القلوية الكيميائية هذه الأوراق وتقشط الحبر عنها، فإنها على الأقل ستجعل هذه المستندات غير صالحة. لقد وجد فكرة استخدام جزء من إمبراطورية هاركينز ليدمر الجزء الآخر فكرة شاعرية.

قال: «حسناً، هيا بنا».

استجاب ماتي قائلاً: «شكراً لله، إنني على وشك أن يغمر عليّ بسبب الرائحة».

أجابه شارلوك موضحاً: «لم أقصد الرحيل، بل قصدت: هيا بنا ندمر هذه الصناديق». اكتفى ماتي بالتحديق إلى شارلوك.

فقال شارلوك: «لا يمكننا أن ندع هاركينز ينجو بما يقوم به من دون عقاب، فهو يقوم بتدمير حياة الناس».

هز ماتي رأسه بئس وقال: «وهو سيقوم بتدمير حياتنا بشكل أسرع مما يدمر حياة الآخرين إذا سببنا له أي إزعاج، هذا الرجل حيوان وهو أشد خطورة من حيوان حُشر في زاوية».

هز شارلوك رأسه بعناد وقال: «إنني لا أبالي، فأنا لا أستطيع أن أغادر وأسير في البلدة، وأنا أعرف أن ثلث أو ربع الأشخاص الذين أعرفهم يقومون بالدفع له كي لا يفشي أسرارهم».

سأله ماتي: «حتى ولو كان إفشاء أسرارهم سيؤدي إلى أن ينتهي بهم المطاف مسجونين».

فأجابه شارلوك: «حتى لو أدّى الأمر إلى سجنهم، فعندما تحصل جريمة ما هناك إجراءات يجب أن تتبع من أجل إحقاق الحق، فتُخبر الشرطة التي تقوم بالتحقيقات، ويتم جمع الأدلة، وإن كانت الأدلة كافية يتم إلقاء القبض على الجناة. وجوش هاركينز لا يقوم بمعاينة الأشخاص لأنه يظن نفسه جزءاً غير رسمي من الشرطة، بل يقوم بتعقب الأشخاص المذنبين بهدف جني الأموال منهم وابتزازهم».

قال ماتي بغضب: «أيّا يكن الأمر فالمستندات التي يستخدمها هاركينز تبقى أدلة وأنا أعتقد أنك تمتلك فكرة عن الشرطة من قبل. لقد أخبرتك قبلاً، فرجال الشرطة يتقاضون الأموال أو

يقوم بسرقاتهم الخاصة على جنب، فإن ألبست المجرم زي الشرطة يبقى مجرمًا».

قال: «أنا اعترف أن النظام غير مثالي، حتى إنني لا أعرف كيف يكون النظام المثالي. ربما يجدر رفع مرتبات رجال الشرطة، وربما يجب أن يخضعوا لفحص وتمحيص أكثر شدة، وربما يحتاجون لمزيد من التدريب، وربما يحتاجون إلى مساعدين لكي يمدّوا لهم يد المساعدة في الجرائم الصعبة، لا أعلم. أنا أعلم أن الأشخاص الذين يشبهون جوش هاركينز ليسوا هم الحل، فهو لا يقوم بأي شيء لمنع حصول الجرائم. في الحقيقة، ومن وجهة نظره، كلما حصلت جرائم فالأمر أفضل، لأنه يعني مزيداً من النقود».

«لن أستطيع إقناعك أن تتوقف عما تنوي القيام به، أليس كذلك؟».

«صحيح، لن تستطيع».

«وستنقذ ما تريد القيام به سواء أساعدتك أم لا؟».

«صحيح».

«لذا، من الأفضل لي أن أساعدك، وذلك كي أحافظ على حياتك، لأن حياتي من دونك مملة».

أجابه شارلوك قائلاً: «شكراً».

رد عليه ماتي: «أنا لا أقول أن ما ستقدم عليه أمر حسن أو سيئ» تنهّد وتابع «حسناً، ما هي خطتك».

«سنقوم بنقل كل هذه الصناديق ونرمي محتوياتها في الخوابي الموجودة في الخارج».

هز ماتي كتفيه: «بطريقة ما كنت أعلم أن هذا يعني أنني يجب أن أقرب مجدداً من تلك الخوابي، وأنت تعلم أن هذين العاملين لن يسمحا لنا بالاقتراب من الخوابي ولو مرة، فكيف إذا كنا سنمر مرتين وربما أكثر؟».

«إذاً، يجب علينا أن نصرف انتباههما».

«كيف؟».

«إنني لا أزال أفكر بالطريقة». فكَرَّ لبرهة وتابع: «يجب أن يكون الأمر الذي سوف يصرف انتباههما شيئاً يجذبهما معاً إلى إحدى جهات المبنى».

اقترح ماتي: «حريق؟».

«الحريق أمر خطر».

«ما رأيك إن جعلتهما يريانني ويتبعانني؟».

«اقتراحك جيد، ولكنه يتركني مع ستة وعشرين صندوقاً

يجب عليّ نقلها بمفردي».

«آخ». بدا على وجه ماتي تعبير لافت. «لِمَ لا ننتظر إلى أن

يحل الظلام، وبعدها نقتحم المدبغة حيث يكون الهدوء يعم

المكان، وعندها نقوم بتدمير ما نشاء وبالطريقة التي نشاء». هزّ شارلوك رأسه وقال: «هذا المكان مهم بالنسبة إلى هاركينز، ولن يتركه من دون حراسة ليلاً. ونحن لم نستطع الدخول إلى هنا إلا لأننا دخلنا نهائياً حيث الحركة محمومة في المدبغة، في سكون الليل سيتمكن أي حارس من رؤيتنا وسماعنا. لذا يُفترض بناء البقاء هنا ريثما تغيب الشمس». فكر لبرهة ثم قال: «لا، يجدر بنا إنجاز الأمر الآن». فكر للحظة: «إنني افترض أننا نستطيع قلع بعض البلاطات، فهذه الغرفة مبنية أعلى من مستوى الأرض. ربما نستطيع إخفاء الصناديق في الأسفل، وعندها لن يستطيع هاركينز أن يعرف ما حل بها». عبس وهو يفكر بالمشكلة الواضحة وقال: «لا يمكننا قلع البلاط من دون أن نترك أثراً، وعندها سيتمكن هاركينز من معرفة ما قمنا به». «حسناً، أنا مرتبك. دعنا نؤخر التنفيذ ليوم واحد فقط، ما رأيك؟».

«لا يمكننا التأخر، لا بد من حل». توقف عن التفكير وهو يتمنى أن تنتظم قطع الأحجية بالطريقة الصحيحة في رأسه، وهذا ما حصل أخيراً. «حسناً، إليك ما سنقوم به، ستتوجه نحو إحدى الخوابي من الجهة البعيدة وستثقب إحداها». «كيف سأحدث هذا الثقب؟». «أتحمل سكيناً».

أدخل ماتي يده في جيبه، وأخرج سكيناً، كانت شفرة السكين مخفية في مقبض السكين». وقال: «هل تنفع هذه؟».

«استخدمها كي تثقب أسفل الخابية الأبعد، أو ضعها بين شريحتين وأفصلهما إحداهما عن الأخرى. قم بذلك دون أن تدعهما يريانك».

«حسناً، لنفترض أنهما لم يريانني، ماذا سيحصل عندها؟».

«ستبدأ المواد بالتسرب من الخابية، وعندها سينهمكان في سد الثقب، وتنظيف الأرض».

«إذا، عندما ينصرف انتباههما سنقوم برمي الصناديق في الخابية الأقرب؟».

«هذا صحيح، باستثناء أننا نحتاج إلى القيام بذلك بطريقة سريعة، أتذكر عندما دخل ووجدنا المنحدر الخشبي المستند إلى الحائط؟

قال ماتي بتشكك: «نعم».

«أعتقد أنهم يستخدمون هذا الشيء من أجل إدخال جلود الأبقار في الخوابي. إنني لا أستطيع أن أتخيل أنهم يحملون الجلود على أكتافهم، ويلقون بها واحداً تلو آخر في الخوابي. فإن كانوا يقومون بالعمل بهذه الطريقة، فسيكون العمل شاقاً وستعم الفوضى الأرجاء، لذا أعتقد أنهم يقومون بزلق الجلود عبر المنحدر، وعندما يكون العاملان غير منتبهين، سأجلب

المنحدر وأضعه في أقرب خابية، وبذلك نستطيع أن نزلق الصناديق عبره داخل الخابية».

فقال ماتي: «هذه خطتك، ولكنني لست متأكداً من أنها جيدة، ولكنني لا أستطيع بالمقابل التفكير بشيء أفضل».

«حسناً، هيا بنا».

توجه شارلوك نحو باب الغرفة، وفتحه قليلاً، كانت الرائحة المنبعثة في أرجاء الغرفة تدمع العينين، وتزعج الأنف، وكانت في تزايد. حدّق إلى الخارج، ولاحظ أن الغرفة كانت لا تزال فارغة بالرغم من تمكنه من التقاط بعض الأصوات، وأياً يكن الأمر الذي يقوم به جوش هاركينز مع العاملين، كان لا يزال يستغرق وقتاً.

برم رأسه كي يرى ماتي وقال له بهمس: «حسناً، اذهب».

عصر ماتي جسده، وهو يمر عبر الباب المفتوح جزئياً، وتحرك بسرعة، عبر الممر الصاعد حتى وصل إلى درجات خشبية أوصلته إلى وسط الغرفة. ثم مر عبر منحدرات، وأخذ يتحرك من خابية إلى أخرى، ويستخدم كل خابية ليختبئ خلفها قبل التحرك نحو الأخرى، وما لبث أن أصبح غير مرئي من جهة شارلوك.

كانت الدقائق الخمس التالية ثقيلة الوطأة، وانتظر فيها شارلوك مكتوم الأنفاس، ولا يعلم إن تمكن ماتي من الوصول إلى

الخابية الأبعد، وربما وصل وكان يعاني من وقت صعب حيث كانت شفرة سكينه غير قادرة على إحداث فجوة بالخابية، وربما تم القبض عليه من قبل هاركينز أو أحد رجاله؟

لفتت حركة في الجهة المقابلة انتباهه، فقد تقدم أحد العاملين الذي يحمل عصا طويلة منتهية بخطاف، ووقف أمام إحدى الخوابي، وأشعل سيجارة، فألقى شارلوك نظرة خاطفة إلى حيث كان ماتي قد اختفى، ولكن ماتي لم يكن ظاهراً له، ولم يبدُ على العامل أنه رأى شيئاً، وهذا ما جعل شارلوك يفترض أن الأمر لا يزال آمناً.

وعندما كان ينظر إلى بعيد، رأى رأساً يظهر من خلف إحدى الخوابي، لقد كان ماتي، ومن حيث كان ماتي يظهر، لم يكن بوسعه رؤية العامل الذي يحمل السيجارة، ولكن إن تقدم بضع خطوات سيتمكن من رؤيته، حاول شارلوك تنبيه ماتي، لكن ماتي كان يتحرك بتوتر ويرغب بالعودة.

حَضَرَ شارلوك نفسه لإصدار بعض الضجيج الذي سيلفت انتباه ماتي، وعندما نظر ماتي إليه، أشار له شارلوك بالبقاء حيث هو، فأوماً ماتي دليلاً على أنه فهم ما يريد أن يخبره به.

حدّق شارلوك مجدداً إلى العامل الذي أشعل سيجارته، وأخذ يتمشى إلى الأمام، وكان قد علق عصاه على كتفه كبنديقية. إن

تقدم العامل بضع خطوات أخرى ونظر ناحية اليسار فسيرى ماتي.

لم يعرف شارلوك ما يجب القيام به، فإن قام بأي شيء لصرف انتباه العمل عن ماتي فسيكشف نفسه، ولكنه بالوقت عينه لم يكن ليترك العامل يكتشف ماتي.

صرخ أحدهم من الجهة الأخرى، وكان الصوت شبيهاً بصوت الرجل الذي تشاجر مع جوش هاركينز قبل قليل. وقال: «هناك تسرب، أنت تعلم ما يجدر بك القيام به، أجلب بعض الفوط وامسح السائل المتسرب، نيكولسن يجدر بنا أن نسد هذه الفجوة بواسطة قليل من القنب، ثم يجب وضع قطعة من القماش أعلى القنب».

ركض الرجل الذي يحمل العصا لمساعدة الرجل الآخر، عندها أشار شارلوك إلى ماتي الذي ركض عبر الدرجات وركض شارلوك لكي ينضم إليه.

قال: «ابدأ بإخراج الصناديق، وسأقوم بجلب المنحدر». اختفى ماتي داخل الغرفة، وتحرك شارلوك مسرعاً إلى حيث كان المنحدر مستنداً إلى الدرايزين، كان المنحدر أثقل وزناً مما بدا عليه، وهذا ما استنزف كل قوة شارلوك حتى يوصله إلى أقرب خابية.

في ذلك الوقت، كان ماتي قد أحضر أربعة صناديق، وعندما جلب شارلوك المنحدر أخذ يدفع الصندوق تلو الآخر إلى أسفل المنحدر، لم يكن المنحدر يتمتع بالميلان الكافي ليجعل الصناديق تندفع من تلقاء ذاتها، لذا استخدم كل صندوق ليدفع به الصندوق الذي سبقه. في أقل من دقيقة كان قد وضع الصناديق الأربعة الأولى وكان أولها يتمايل في الخابية الآن، وخطى إلى الخلف وأخذ يدفع الصناديق بالطريقة عينها التي كان يدفع بها لاعبي الركبي في مدرسة ديبدن.

اندفع الصندوق ودفع الصناديق الثلاثة الأخرى، وقبل أن يهنئ نفسه، تذكر أن التهنئة لا تزال تحتاج لمزيد من الوقت، فماتي كان لا يزال يجلب مزيداً من الصناديق، وكان يقوم بدفعها في الخابية. كان بإمكان شارلوك رؤية الصناديق تطفو في الخلطة السامة والمؤذية قبل أن تغرق وهو يتمنى أن لا يستطيع أي كان إيجادها.

في الجهة الأخرى من الخوابي كان باستطاعته سماع أصوات مرتفعة وصوت مطرقة.

كان العمل الذي يقوم به يجري وفقاً لروتين معين، يحمل صندوقاً، ويضعه على المنحدر، ثم يدفع به بكل ما أوتي من قوة ثم يحمل صندوقاً آخر. وهذا ما جعله يشعر بألم في عضلاته.

أخيراً، انتبه إلى أن ماتي كان يقف إلى جانبه ويساعده في دفع الصناديق، وقال له: «إنها الصناديق الأخيرة». بدا مستنزف القوة، وكان الغبار يغطي وجهه وشعره. صرخ صوت ما: «ما هذا؟».

نظر شارلوك إلى وسط الغرفة، كان جوش هاركينز يحدق إلى الفتيين، وكان يغطي وجهه قناع من الغضب وعدم التصديق. فقال شارلوك: «بسرعة، دعنا ندفع الصناديق الثلاثة الأخيرة». فقال ماتي: «لقد تركت الصناديق الأخف وزناً إلى النهاية، يمكنك أن ترميها بنفسك».

كان ماتي محقاً، فقد حمل شارلوك الصندوق المدوّن عليه الحرف واي بالإنكليزية، وبينما كان يوازن نفسه ألقى به داخل الخابية.

صرخ هاركينز: «أوي أقف هذا».

اصطدم الصندوق بحافة الخابية، وللحظة ظن شارلوك أن الصندوق سيسقط خارج الخابية لكن قوة الدفع وجهت الصندوق إلى داخلها.

صرخ هاركينز قائلاً: «اقبضا عليهما». ركض العاملان اللذان سبق لشارلوك أن رآهما من قبل من الجهة البعيدة من الغرفة، وقد ترددا عندما رأيا الفتيين، لكن الغضب الذي كان يعلو وجه

هاركينز دفعهما إلى التوجّه نحو الفتيتين وهما يحملان العصي وكأنها رماح.

أمسك شارلوك بكتف ماتي، ودفعه باتجاه المنصة الصاعدة، باتجاه الغرفة التي قدما منها، وسمعا خلفهما وقع الأقدام على الدرجات الخشبية.

وصل ماتي إلى الباب أولاً، واستدار ليقول شيئاً لشارلوك، وقبل أن يتمكن من قول أي شيء دفعه شارلوك وأحناه، فقد مرت عصا فوق رأسيهما، واصطدم خطافها بإطار الباب.

صرخ شارلوك: «اخرج بسرعة».

تراجع ماتي نحو الغرفة على قدميه ويديه، واستدار شارلوك ليواجه الرجل الذي كان خلفه، الذي كان يناضل من أجل تحرير الخطاف من إطار الباب، وكان الرجل الآخر على بعد عشر أقدام خلف زميله. أمسك هاركينز بسلم كان موضوعاً في مكان ما، ووضعه بجانب الخابية، حيث رمى شارلوك بالصناديق، وبدأ بوضوح على وجه هاركينز أنه يأمل بإنقاذ مواد الابتزاز التي رماها شارلوك.

تمنى شارلوك أن يسقط هاركينز في قلب الخابية، ثم تبع ماتي وأغلق الباب خلفه، وهو يعلم أن هذا الأمر لن يعيق متعقبيهما أكثر من بضع ثوانٍ.

كان ماتي قد أصبح بجوار النافذة، استدار ورأى شارلوك، عندها صنع شارلوك من يديه ما يشبه الدرجة، بحيث كانت راحتا يديه إلى الأعلى وأصابه مشبوكة وقال له: «اصعد واسحبني خلفك».

ارتج الباب خلف شارلوك عندما صدم بشيء ما. خطى شارلوك ثلاث خطوات داخل الغرفة، وأمسك بساقي ماتي ورفعته إلى أعلى النافذة وقال له: «اخرج وسأتبعك». بدا على ماتي أنه يريد أن يناقشه، ولكن نصفه كان قد أصبح في الشارع، ووجد صعوبة بالخروج. فجأة فتح الباب، وكان هناك رجل عند العتبة، وكان الرجل الآخر يقف خلفه.

زمجر الرجل الذي في المقدمة قائلاً: «أيها الحقيير الصغير». وخطى إلى الأمام وهو يرفع عصاه. أمسك شارلوك بعصا أخرى كانت موضوعة بجانب الجدار، وقف وحمل العصا بشكل منحرف أمام جسده، وكانت قدماه مبتعدتين عن بعضهما، وكان يعلم أن معركة ستنشب الآن، كان بإمكانه الاستعانة بكل المنطق الموجود في العالم ولكن الأمور كانت ستنتهي بمعركة.

كان الرجل متوسط الطول وكانت بطنه منتفخة، ولكن أذنيه وأنفه المقوس أنبأ شارلوك بأن لهذا الرجل تاريخ مع الملاكمة،

وربما الملاكمة غير الشرعية في الحقول من دون أن يستخدم
أنظمة الكوينزبري. تقدم إلى الأمام وهو يحمل عصاه بشكل مائل
ولكن بشكل معاكس وتبسم.

قال: «سأكون ليتل جون وستكون روبن هوود».

فأجابه شارلوك: «إننا لا نلعب الآن».

فأجابه الرجل: «إنك محق». فجأة ضرب بعصاه وهو يحاول
أن يسحق ركبة شارلوك بنهاية العصا. صد شارلوك الضربة
بواسطة عصاه، ولكن الصدمة الناتجة عن اصطدام العصوين،
جعلت ذراعه ترتج وأسنانه تؤلمه.

أوماً الرجل، شاعراً بمناورة شارلوك غير المتوقعة. حاول أن
يضرب مجدداً بنهاية عصاه، ولكن ما قام به لم يكن سوى هجوم
مخادع، وفجأة غيّر الاتجاه محوّلاً العصا نحو رأس شارلوك،
عندها رفع شارلوك عصاه بكلتا يديه، متصدياً لضربة الرجل
وحائلاً دون أن تؤدي الضربة إلى تحطيم جمجمته، ولكن قبل أن
تمس العصا رأس شارلوك بدّل الرجل الاتجاه ووجه العصا نحو
أربية شارلوك، عندها تنحى شارلوك جانباً، ولكن العصا أصابت
وركه الأيمن، فوقع على ركبته، وذلك عندما وجد أن العصا كانت
على بعد إنش من رأسه.

وقف شارلوك بيأس على قدميه، متجاهلاً ألم وركه والذي كان
يمتد إلى ركبته، كان الرجل قد فقد توازنه، فما كان من شارلوك

إلا أن أمسك بالخطاف الذي في أعلى عصاه وأمسك بواسطته بالجزء الخلفي من حذاء الرجل، وعندها سحب العصا إلى الأمام فسقط الرجل إلى الخلف، وهو يطلق الشتائم، وقد تسبب سقوط الرجل باهتزاز الأرضية.

خطا الرجل الآخر فوق مكان سقوط صديقه، وكان أكثر حذراً، وأخذ يلوح بالعصا محاولاً أن يشتت انتباه شارلوك حول الجهة التي ستأتي منها الضربة، حاول خداعه مرة أو اثنتين، ثم وجه ضربة وكأنه يحمل رمحاً وليس عصا.

سحب الرجل عصاه إلى الخلف، وبدل أن يكرر هجومه تكلم مع صديقه وقال له: «قف أيها الأحمق، وأخرج واجلب الفتى الآخر إن كان لا يزال هنا، وامنع هذا من الخروج من النافذة».

هزّ الرجل رأسه بينما كان يقف على قدميه. وكان التعبير على وجهه مزيجاً بين من الحقد والغضب: «إنني أريد هذا الفتى يا ماركي، إنني حقاً أريده، لقد رأيت ما قام به».

زمجر الرجل وقال: «لقد شاهدتك، وأنت تسقط على كفلك السمين، الآن أخرج، ليس الوقت الآن وقت الحديث عن العضلات أو المشاعر المجروحة، الزعيم يريد التحدث مع هذا، وبعدها قم بما تريده واقطع حنجرتَه لأنه جعلك تبدو غيباً، قبل أن يصب الزعيم جام غضبه علينا».

تراجع نيكولسن إلى الخلف، وتوجه نحو الباب وألقى نظرة
حقد أخيرة على شارلوك قبل أن يغادر.

قال ماركي لشارلوك وهو يبتسم: «أنت لا تريد أن تخرج من
هذه النافذة، لأنه إن قام نيكولسن بالقبض عليك ستكون فرص
موتك قبل أن تطأ قدماك الأرض كبيرة جداً، وبلاستناد إلى ما
قلته له هو لا يحب أن يشعر بالإحباط، حقاً إنه لا يحب أن يشعر
بالإحباط».

عندها سأله شارلوك: «إذاً ما الخيار البديل». وأبقى عينيه
ثابتتين على عيني ماركي، وهو يبحث عن أي إشارة أن هذا
الرجل سيقوم بضربه بالعصا.

«الخيار البديل يتمثل بأن تضع عصاك جانباً وتأتي معي، يريد
الزعيم أن يتحدث معك، هذا كل ما في الأمر. مجرد حديث
قصير».

هز شارلوك رأسه وقال للرجل: «أظن أن لدي فرصة أفضل مع
صديقك الذي في الخارج من جوش هاركينز، على الأقل
سيقتلني بسرعة».

هز ماركي بكتفيه وقال: «إنني أفهمك إن خرجت من النافذة
سوف تموت بسرعة، ولكن إن أتيت معي ستموت بعد فترة
قصيرة، ولكن الموت سيكون بطيئاً ومؤلماً». خفّض الرجل من

صوته في محاولة لتهدئة شارلوك وقال: «أتعلم أيها الفتى لو كنت مكانك...».

ومن دون أي سابق إنذار ضرب بعصاه، وهو يحاول أن يغرز الخطاف بلحم كتف شارلوك، ويقوم بسحبه إلى الأمام. ولكن شارلوك لاحظ من خلال توسع عيني الرجل، أنه قد يقدم على هجوم ما، وكان هذا أحد الأشياء التي علمه إياها أميوس غروي، وهي كيفية توقع، من خلال أشياء صغيرة، ما قد يقدم عليه الناس، والتي أطلق عليها أميوس اسم «لغة الجسد»، حرّك شارلوك عصاه إلى اليمين واليسار صاداً ضربة ماركي ومبعداً العصا عنه.

عندها قال ماركي: «إذاً هذه هي الطريقة التي تريدها». قال ذلك وهو يتراجع، «تريد المبارزة، ولكن عندما يصل الزعيم لن يكون لديك أي فرصة عندما تكون المبارزة بين شخصين ضد شخص واحد».

فأجابه شارلوك: «دائماً هناك فرصة». قال ذلك بشجاعة وثقة أكثر مما يشعر به فعلياً.

أشار ماركي: «هناك طريقان للهرب، وكلاهما مغلق إلا إذا كان باستطاعتك استخدام وسائل سحرية للاختفاء عبر الجدران أو عبر الأرضية، وأنا لا أعتقد أن لديك أي أمل بالنجاة».

«بل لديّ أمل إذا...» توقف شارلوك قبل أن يلفظ اسم ماتي وتابع قائلاً: «إذا تمكن صديقي من الهرب قبل أن يصل نيكولسن إلى النافذة، فهو سيتوجه مباشرة إلى الشرطة، وسيكونون هنا في غضون دقائق».

هز ماركي رأسه باحتقار وقال: «لن يجرؤ رجال الشرطة المحليون على القيام بأي حركة نحو الزعيم، فهو يعلم كثيراً عنهم».

سأله شارلوك: «ولكن كيف سيستطيع إثبات ما يعرف، فكل مواد الابتزاز دمرت؟». عبس ماركي مفكراً.

«عندما يعلم رجال الشرطة أن الرسائل والمستندات التي يحملها هاركينز فوق رؤوسهم قد أتلقت في خوابي المدبغة، ويعلمون أن ما من ابتزاز جديد، عندها أتعلم ما سيقدمون عليه؟». عندما لاحظ تعبير القلق على ماركي ضغط أكثر وقال: «في البدء سيسعون إلى القدوم إلى هنا والتأكد من أن هذه المزاعم صحيحة، ثم سيعمدون إلى معاقبة هاركينز على كل شيء قام به نحوهم، وعندما يخسر قوته سيصبح مثل أي مزارع أو مستعطي في فارنهام. أضف إلى ذلك سيصبح مثل مستعطي يكرهه كل الناس، وعندها سيكون محظوظاً إن تمكن من الوصول إلى السجن قطعة واحدة».

وتمكن شارلوك من خلال النظر إلى وضعية كتفي ماركي أن يدرك أنه وصل إلى ما يريد إيصاله.

عندها سأله: «كيف سيستطيع عندها أن يدفع لك أجرك؟ فكل المواد التي كان يستخدمها للابتزاز دُمّرت، وإحدى الخوابي مثقوبة وتسرب المواد. فأحد مصادر رزقه دمرت، والأخرى تعاني من مشاكل جسيمة. لو كنت مكانك لكنت بحثت عن عمل آخر». توقف للحظة: «إلا إذا كان لديه شيء آخر يبتزك به، وعندها ما من مشكلة لديك فوسيلة ابتزازه دُمّرت أيضاً في الخابية، فجوش هاركينز لا يمتلك الآن سوى الكلمات، وهذه لن تنفعه الآن، فما من أحد سيصدق أي مزاعم تفتقر إلى دليل».

اعترف ماركي قائلاً: «أنت فتى ذكي». وأوماً بينما كان يفكر: «أنت محق، هاركينز انتهى. وإذا لم تلق الشرطة القبض عليه، فإن أحد الملاكين الذين كان يبتزهم سيحقق العدالة بذراعه، وقد ينتهي به المطاف بجمع السماد في أحد الحقول». استرخى بينما كان ينزل العصا، «إن حصل أي شيء وإن ألقى القبض عليّ، تكلم عني بالخير، وأخبر الشرطة بأنني تركتك تذهب في حال سبيلك». أوماً مرة بشكل حاسم وقال: «لقد حان وقت تغيير المهنة». ثم ما لبث أن استدار واختفى.

لم يستطع شارلوك تصديق ما حصل، كان يتوقع أن يخرج من خلال معركة، فكل ما كان يقوم به هو صرف انتباه ماركي، ومنح

نفسه الوقت ليلتقط أنفاسه قبل أن يباشر هجومه، ولكن يبدو أن ما قاله أنقذه من ورطة.

حذق من النافذة، وشعر بإغراء الخروج من خلال النافذة ولكن كان من المرجح أن يكون نيكولسن أسفل النافذة، وبعد كل ما حصل لم يكن شارلوك يظن أن الكلام سينفع مع نيكولسن. في النهاية، سار عبر الباب الذي خرج منه ماركي وتوجه نحو المدبغة.

نظر حوله، وهو يحاول أن يكتشف إن كان جوش هاركينز موجوداً، ولكنه لم يجد أثراً للمبتز، وكل ما كان يشير إلى وجوده هنا هو كدسة من الأوراق المنقوعة والصناديق التي كانت بالقرب من أقرب خابية، وكانت هناك بركة صغيرة من السائل البني حول هذه الأشياء، وكانت الرائحة أسوأ من قبل، ربما لأن هاركينز حاول تحريك هذه المواد في محاولة منه لإنقاذها. نظرة واحدة على الأوراق أظهرت له أنها أصبحت عديمة الجدوى، والكتابة القليلة التي كانت لا تزال ظاهرة على الأوراق كانت تضمحل شيئاً فشيئاً.

توجه عبر الممر الخشبي الذي يقود نحو الباب الرئيسي، وهو يأمل أن يكون هاركينز قد غادر. ولكنه كان مخطئاً.

خرج المبتز من خلف إحدى الخوابي وكان شعره منفوشاً بشكل غريب، وعيناه منتفختين، وكأنهما ستخرجان من محجريهما، وكان يحمل سكيناً بكل يد، وقد انعكس الضوء على نصلي السكينين.

قال بطبيعية: «سكاكين حادة» بالرغم من أنه لم يكن هناك ما هو طبيعي في هذا التعبير وتابع: «تستخدم هذه السكاكين لفصل اللحم عن جلد الأبقار إنها سكاكين حادة، حادة جداً، كما ستختبر بنفسك بعد قليل».

أجابه شارلوك بهدوء بالرغم من أن قلبه كان يخفق بشدة: «لن تجني أي شيء من خلال قتلي».

أجابه هاركينز موافقاً: «لن أجنبي شيئاً من قتلك سوى أنني سأنام قرير العين اليوم، لقد دمرتني، لقد سرقت الطعام من فمي ورفعت الغطاء عني».

أجابه شارلوك: «لم أقم بأي شيء سوى إنقاذ الناس من اليأس والتدمير، وأنا أعتقد أنني قمت بمساومة جيدة».

«لم يطلب منك أحد القيام بما قمت به» غير هاركينز وضعيته وقال: «منذ نصف ساعة كنت رجلاً مرهوب الجانب ومطمئناً على مستقبلي ولكنني الآن أصبحت رجلاً عاطلاً عن العمل وسأبدأ من جديد».

«هذا إن تركك الناس تبدأ من جديد». سار شارلوك بطبيعية، ونزل على الدرجات التي تؤدي إلى وسط الغرفة. «عندما يلاحظ الناس أنك فقدت السلطة، سيأتون ويبحثون عنك، أفضل شيء تقوم به هو الهرب».

أوما هاركينز وقال: «أنت محق، ولكن قبل أن أغادر يجب أن أسلخ جلدك، وأخذ أكبر مقدار منه معي، وما أن أجد مكاناً استقرار فيه سأديغ جلدك وأصنع منه سترة، حتى يتمكن الناس من معرفة ما سيحل بالشخص الذي يعترض طريق جوش هاركينز».

وقبل أن يتمكن شارلوك من قول أي شيء، وضع هاركينز يده اليمنى خلف كتفه ودفع بيده إلى الأمام، ورمى إحدى السكاكين نحو شارلوك، انخفض شارلوك فاصطدمت السكين بخشب أقرب خابية.

أمسك هاركينز بالسكين الأخرى وأخذ ينقلها من يده اليمنى نحو اليسرى وقال: «أنت لن تستطيع الهرب إلى الأبد يا فتى، ولكن حاول فهذا سيجعل الأمور أفضل بالنسبة إلي».

استدار شارلوك، وحاول أن يحرر السكين من خشب الخابية، ولكنها كانت قد انغرزت عميقاً، وفجأة دفعته غريزته إلى أن يخفض رأسه نحو الجانب، بينما كانت السكين الأخرى تمر بالقرب من رأسه. اصطدمت هذه السكين بمقبض الخابية ثم

ارتدت إلى الأرض. انخفض شارلوك للإمساك بها، لكن هاركينز ركض نحوه بسرعة ماداً يديه، فما كان من شارلوك إلا أن تحرك على الأرض مبتعداً عن طريق هاركينز.

أمسك هاركينز السكين عن الأرض، وانتزع الأخرى من الخابية بقوة غير طبيعية، واستدار نحو شارلوك وقال له: «كلما تعاركنا لوقت أطول ستبدو السترة أجمل عندما أرتديها».

عندها قال له شارلوك: «يمكنك أن تحلم بقدر ما تشاء فلن ترتدي سوى ثياب السجن». توجه شارلوك نحو السلم الذي استعمله هاركينز من أجل أن يصعد ويرى الصناديق التي رمى بها شارلوك في الخابية، وأمسك بالسلم من نهايته ووجهة النهاية الأخرى نحو هاركينز، بينما كان هاركينز يهم برمي إحدى السكينين، ضربه شارلوك بالسلم على صدره، وقبل أن يتمكن هاركينز من تثبيت قدميه والدفع إلى الخلف، انزلق كعب قدمه بالأوراق والصناديق المبللة التي أخرجها من الخابية فوق أرضاً، واصطدم بالأرض مصدراً صوتاً قوياً.

قبل أن يستطيع هاركينز تدارك الأمر ألقي شارلوك بالسلم على صدر هاركينز، ووضع ركبته على يدي هاركينز وثبته على الأرض، وانتزع السكينين من يديه اللتين فقد الإحساس فيهما، ووجههما نحو وجهه الذي علاه الرعب. قَرَّب شارلوك السكينين

من رقبة هاركينز، وقام بغرسهما بالأرضية الخشبية فثبتتا سترة الرجل بالأرض.

وقف شارلوك على قدميه وحقق إلى الأسفل نحو هاركينز وقال له: سيجدك رجال الشرطة هنا». استدار شارلوك وتوجه نحو الباب ليغادر.

الفصل الخامس

بعد أن غادر مركز الشرطة، وقد زودهم بوصف شامل عمّا حصل، توقف شارلوك واستنشق هواء نقيّاً. بدا وكأنه غطس في نهر صافٍ بعد أن كانت الوحول تغطيه، وكان باستطاعته أن يشعر بأن الروائح الكريهة للمدبغة تغادر رئتيه. كان يعلم أن الهواء في الخارج ليس نقيّاً جداً، ولكن مقارنة بنتانة المدبغة، كان بإمكانه وصف هذا الهواء بالنقي إلى أقصى حدّ. كان يشعر وكأن ثيابه أصبحت مشبعة بالرائحة، لذلك قرر تغيير ملابسه بأسرع ما يمكن.

وجد ماتي يقف بالقرب من نافذة المدبغة. تنهّد صديقه تعبيراً عن ارتياحه عندما شاهد شارلوك. قال له: «لم أكن متأكداً مما حل بك، ظننت أن هاركينز قضى عليك؟» وعبس وتابع كلامه قائلاً: «ماذا حل بهاركينز؟ لم تقتله أليس كذلك؟».

هزّ شارلوك رأسه بسأم وقال: «لقد تحدثت معه قليلاً، وتركته في المدبغة، وأخبرت الشرطة أين يمكنهم أن يجدوه». هز ماتي كتفيه وقال: «هذا لن يحدث فرقاً كبيراً، وعندما يتم اصطياد السمكة الكبيرة في البحيرة تتولى الأصغر القيادة». أجابه شارلوك قائلاً: «أعلم، ولكن لا يمكنني القيام بأي شيء حيال ذلك على الأقل الآن، لقد أزعنا هاركينز من الدرب، ودمرنا

مواد الابتزاز، وهذا ما سببته السعادة في نفوس كثير من الناس». عندها عبس وهو ينظر إلى الطريقة التي كان ماتي يقف فيها في وسط الطريق وسأله: «ماذا حل بالرجل الذي أرسل إلى الخارج نيكولسن؟».

«ذلك الرجل كبير البطن، لقد خرج وبدا منزعجاً ووقف وبدا عليه أنه سيحطم رأس أحدهم، إن تحدث معه».

«أين كنت؟».

أشار ماتي إلى كديس من العلب في الجهة الأخرى من الزقاق وقال: «عندما سمعت بأنه سيأتي اختفيت هناك، لم يلتزم الرجل الصمت وأطلق شتائم لم يسبق لي أن سمعت بها».

«وبعدها ماذا حصل؟».

«توقف لبضع دقائق، وبعدها أتى زميله».

تأكد شارلوك: «ماركي».

«صحيح ماركي، أمسك بيده وقال له شيئاً، وبعد ذلك رأيتهما يسيران في الزقاق».

أوماً شارلوك: «لقد استطعت إقناع ماركي بأنه مع انتهاء عمل هاركينز بالابتزاز فإن البلدة لن ترحب بأمثاله، أعتقد أنهما قررا البحث عن رزقهما في مكان آخر».

«إلى أين سذهب الآن؟».

أجابه شارلوك: «دعنا نعد إلى المنزل».

«ولكنني لا أملك منزلاً غير الزورق الصغير».

«إنني أعني عزبة آل هولمز».

هزّ ماتي رأسه بقوة وقال: «إنني لا أحب مدبرة المنزل، وهي لا تحبني، وإذا لم يكن لديك مانع أفضل البقاء هنا».

فقال شارلوك: «أظن أنك ستجد أن تأثير السيدة إيغلانتين على آل هولمز سيختفي في غضون ساعة أو أكثر. وأنا واثق أنك ستجد أنه مرحب بك في ذلك منزل من الآن فصاعداً هذا إن نفضت الغبار عن نفسك، وسرّحت شعرك».

بينما كان ماتي يجلس خلفه على صهوة الحصان فيلادلفيا، أسرع الحصان الخطى على الطرق التي يعرفها جيداً متجهاً نحو عزبة آل هولمز.

قال ماتي من خلف كتف شارلوك: «أتظن أن باستطاعتي الحصول على طعام أتناوله عندما أصل إلى هناك؟».

أجابه شارلوك: «أظن أن باستطاعتي تدبّر هذا الأمر».

استغرقهما الوصول إلى العزبة نصف ساعة تقريباً، وعندما وصلا دخلا عبر البوابة الرئيسة، وتوجّها نحو الإسطبل. استطاع شارلوك أن يستشعر توتر ماتي، وعندما وصلا الإسطبل ترك شارلوك فيلادلفيا برعاية أحد السائسين.

قال: «تعال، إنني أشعر بالحماس لإنهاء الأمر».

دخل شارلوك عبر باب المنزل وكان ماتي خلفه، بدا له الرواق فارغاً، ولكنه كان يعلم أن المظاهر قد تخدع.
ونادى: «سيدة إيغلانتين».

برز شيء من الظل، وخطا نحوه، وبدأ أن الحرارة في الرواق قد انخفضت عشر درجات عندما حدثه شخص بنبرة منخفضة ولكن جليدية: «السيد هولمز الصغير، بما أنك تعتبر هذا المنزل فندقاً، وتغادر وتعود ساعة تشاء، لذا ربما يجدر بك الدفع لقاء امتياز بقائك هنا».

أجابها شارلوك: «أعتقد وأتوقع أن يكون فريق مدبري المنزل في الفندق أفضل بكثير مما هو متوفر هنا».
لم يتغير التعبير الذي كان يعلو وجه السيدة إيغلانتين، ولكن شارلوك كان باستطاعته أن يشعر بالجو في القاعة أصبح أكثر برودة.

هسهست إيغلانتين قائلة: «أظهر أيها الفتى كل سخريتك، واستمتع بها، لقد أوشكت مدة إقامتك هنا على الانتهاء».
«إذا كنت تتوقعين أن يقوم صديقك جوش هاركينز بأي شيء بشأنى، فلأسف سيخيب ظنك، هاركينز الآن في السجن، ولن يغادره في القريب العاجل».

فأجابته من خلال أسنانها المطبقة: «أنت تكذب». ولكن شارلوك استطاع أن يرى أنها كانت تتحدث بطريقة دفاعية.

فأجابها ببساطة: «لم يسبق لي أن كذبت ولن أكذب، بكل بساطة أترك هذا الأمر المشين لأمثالك» توقف للحظة وهو يفكر بالأمر الآخر الذي سيقوم به. «أرجوك أعلمي عمي وزوجته أنني أريد التحدث إليهما في غرفة الطعام».

فأجابته بصوت يردد وكان باستطاعته تحطيم الزجاج: «أخبرهما بنفسك».

«أنت الخادمة هنا ولست أنا، رجاء قومي بما طلبته منك فوراً، وأرجو أن تظهر لي لطفك وتطلبين من الطاهية إعداد طبق من الشطائر، وإبريق من الليموناضة فأنا وصديقي جائعان وعطشانان جداً».

حدقت المدبرة إليهما وقد علا وجهها تعبير أنها غير مسرورة بما يحصل، وعندها استدارت واختفت في الظل.

قال شارلوك لماتي: «تعال، دعنا نستعد».

قاد شارلوك الطريق عبر الرواق ونحو غرفة الطعام، وتفاجأ أنه اختار المواجهة في غرفة الاستقبال، ولكنه أراد أن يكون ذلك في مكان رسمي وأقل راحة.

كانت طاولة غرفة الطعام خالية إلا من شمعدانين وطبق فاكهة، صبر ماتي جوعه بإجاسة، بينما جلس شارلوك على كرسي في الجهة البعيدة، وكان النور يدخل إلى الغرفة من خلال

النوافذ خلفه، ولم يلبث ماتي أن وقف خلفه واستمر بقضم الإجازة.

حاول شارلوك أن يتنفس بهدوء، وكان يعلم ما يجب عليه أن يقوله في غضون الدقائق التالية، وهو كان يعلم أنه يتعامل مع بشر وليس ببيادق شطرنج، وفي بعض الأحيان يقومون بأشياء لا يمكنك توقع أن يقوموا بها. ربما كان لدى السيدة إيغلانتين تأثير على عمه وزوجته أكثر من امتلاكها مواد يمكنها أن تبتزهما فيها، ربما سيدافعان عنها بالرغم من كل ما قامت به، وربما سيتضامنان معها ضده.

فتح الباب، ودخل العم شرينفورد هولمز، وتبعته زوجته آنا وأغلقت الباب خلفها.

قال العم بتسامح: «إنه لأمر غريب أن يُستدعى مالك البيت من قبل ضيفه».

فأجابه شارلوك: «إنني أعتذر إن أوحى لكما السيدة إيغلانتين أنني أستدعيكما، ولكنني أريد أن أخبركما بأمر خطير».

فسأله شرينفورد هولمز: «هل للأمر علاقة بما حصل في المكتبة، إن كان للأمر علاقة أذكرك أنني قلت إنني لا أرغب بالتحدث حوله مرة أخرى».

قال شارلوك: «الأمر يتعلق برجل يدعى جوش هاركينز، ويتعلق بمدى تأثيره على هذه العائلة». وأحس شارلوك بأنه

يفترض به الطلب من عمه وزوجته الجلوس، ولكن إن طلب منهما ذلك سيبدو جلفاً جداً، فهذا منزلهما وهذه غرفة طعامهما وهو لا يريد أن يبدو متعجرفاً.

قبل أن يجيب العم دخلت السيدة إيغلانتين غرفة الطعام، ودخلت خلفها خادمتان إحداهما تحمل طبق شطائر بينما الأخرى تحمل صينية عليه إبريق ليموناضة وأربع كؤوس، وقامت بوضع ما تحمله على الطاولة.

عندها قال شارلوك للسيدة إيغلانتين والخادمتين بينما كانتا تهماان بالمغادرة: «أرجوكن ابقين لبرهة فالأمر يعنيكما يعني عمي وزوجته».

فتحت إيغلانتين فمها لتقول شيئاً إلا أنها أغلقته وقد آثرت الصمت، وبدأت متوترة وغير واثقة وحتى خائفة.

عندها سأله عمه: «لم تعرفنا إلى صديقك». قال ذلك وهو يسحب كرسي لزوجته التي جلست وجلس بعدها.

فقال شارلوك: «إنه ماثيو أرنيث، إنه يعيش في فارنهايم».

فقالت السيدة إيغلانتين: «إنه غجري لا قيمة له».

عندها قال ماثي من خلف كتف شارلوك: «لقد قلت لك قبلاً لست غجرياً».

نقر شرينفورد على الطاولة برفق وقال: «حتى وإن كنت... أنا أرحب بك في منزلي».

فقال ماتي: «شكراً».

عندها سألته زوجة عم شارلوك: «هل أنت جائع، على الأرجح أنك تحتاج إلى شطيرة وكأس من الليموناضة». فقال الصبي: «لا أمانع». ومد يده من خلف كتف شارلوك وأمسك بشطيرتين. عندها قال شرينفورد هولمز: «إنذاً، ما هو الأمر المهم الذي جمعتنا لأجله، وما علاقته بالرجل الذي ذكرت اسمه والذي لا أستطيع أن أفضحه».

أخذ شارلوك نفساً عميقاً وقال: «جوش هاركينز هو شخص مبتز، إنه يجمع الحقائق عن الناس، تلك الحقائق التي لا يرغب الناس بإفشائها، ويقوم بتهديدهم بفضح هذه الحقائق إن لم يقوموا بدفع النقود له بصورة منتظمة».

فقال شرينفورد: «هل أنت تقول إن هذا المجرم كان يمتلك سراً يتعلق بعائلتنا؟ فأنا رجل دين محترم وباحث في الكتاب المقدس وزوجتي عضوة في رابطة محلية، أي أسرار لديّ يمكن أن يهتم لها وغد من هذه النوعية».

هزّ شارلوك رأسه وقال: «لا يهم ما هو السر الذي كان لديه، ولكن المهم أن مجموعته الكاملة من الرسائل والمستندات قد دُمّرت».

لهت السيدة إيغلانتين، ووضعت يديها على فمها.

سأله شرينفورد هولمز وقد انحنى إلى الأمام: «هل أنت متأكد؟ ولكن اللسان لا يمكن ترويضه فهو جامح وشرير وممتلئ بالسم؛ جيمس الفصل الرابع الآية الثامنة».

قاطعه ماتي قائلاً وفمه محشو بالطعام: «متأكد بشكل قطعي. لقد كنا معاً».

فسأله شرينفورد هولمز: «هل رأيت المستندات بنفسك؟». «لقد أصبحت مكونات الصناديق غير صالحة للقراءة وبعضها ذاب». تراجع شرينفورد إلى الخلف ووضع يده اليمنى على حاجبه، بينما مد يده اليسرى وربت بها ذراع زوجته وقال متنهداً: «وأخيراً انتهى الكابوس».

عمّ الصمت أرجاء الغرفة لدقيقة. لم يكن هناك من ضجة أو حركة ولكن شيئاً تغيير، بدا وكأن غيمة كانت تحجب نور الشمس قد انزاحت وبدأت الغرفة أكثر نوراً ودفاً من قبل.

عندها قال شرينفورد هولمز: «لقد أسديت يا بني خدمة كبيرة لهذه العائلة ولغيرها من الأشخاص. إنني أستطيع أن أرى فيك صفات شقيقك وأبيك الذي هو شقيقي، إنني مدين لك». ثم نظر ناحية السيدة إيغلانتين وقال: «وأنت لقد تخلصت من سطوتك أيتها الشريرة، وأياً يكن الشيء الذي تبحثين عنه في منزلي، لن تجديه. لديك ساعة واحدة لتحزمي حقائبك وتغادري وإن لم

تفعلي ذلك سأكدر أغراضك وأحرقها أمامك. وأتمنى أن لا أرى وجهك ولا أسمع صوتك طوال حياتي، أنت غير مرحب بك هنا». عندها خطت السيدة إيغلانتين إلى الأمام وقالت: «إنني لا أزال أعرف ما أعرفه، ولن تستطيع التخلص مني بيسر وسهولة».

فردت عليها زوجة عمه: «لن يصدقك أحد». ووقفت وبدأت وكأنها تتناول بالرغم من ضالة جسدها وقصر قامتها على مربية المنزل الطويلة حقاً وتابعت: «إنك لترا مليئة بمدبرات المنازل ذوات الضغينة، ولا أحد يصدق قصصهن وإن كانت صحيحة». أوما شرينفورد واقتبس قائلاً: «يجب أن يكون لسانك خائفاً من غضب الرب، ولا يعمد إلى قذف الناس بالباطل. غادري أيتها المرأة طالما الوقت لم يدهمك».

حدقت السيدة إيغلانتين إلى الأشخاص الأربعة شارلوك، ماتي، شرينفورد وأنا، وفتحت فمها وأغلقتة مرات عدة، كانت تريد أن تقول شيئاً ما، ولكنها لم تعرف ما هو بالتحديد، ثم استدارت وغادرت الغرفة كما لو أنها ظل يختفي بمجرد فتح الستارة. سأل شرينفورد: «هل يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة؟». ومد يده وأمسك بيد زوجته.

أجابه شارلوك: «يجب أن تحذراها، ربما تحاول العودة والدخول عندما يكون البيت فارغاً، إنها تبحث عن شيء ما ولا

أستطيع تخيلها تتخلى عنه بسهولة، ولكنني أستطيع أن أقدر أن بحثها سيصبح أكثر صعوبة لأن سلطتها قد ذهبت».

فقلت أنا زوجة عمه: «إنني لا أستطيع التصديق، لقد كانت شيئاً شريراً وبغيضاً لفترة طويلة حتى إنني لا أستطيع تخيل حياتي من دونها».

عندها سأل ماتي: «هل كانت لديك فكرة عما كانت تبحث عنه؟».

هز شرينفورد رأسه وقال: «لم تصرح يوماً عما تبحث، حتى إنني لم أعرف إلا مؤخراً أنها تبحث عن شيء ما، لقد عملت هنا منذ ثلاث سنوات، ولما كانت التوصيات بها من أشخاص جيدين منحتها العمل، ولكنها كانت امرأة حاقدة وغاضبة على الدوام، لم يرغب بالعمل معها كل الخدم، وعندما طلبت منها أخيراً أن تترك العمل، عندها صرحت بأنها تعرف معلومات أسرية لا أرغب بإفشائها، لقد أرغمتنا على إبقائها، وأرغمتنا على دفع الأموال لذلك المدعو جوش هاركينز» تنهد وتابع قائلاً: «ذات يوم ضبطتها وهي تبحث في غرفة نومنا وعندما طلبت تفسيراً لما تقوم به طلبت مني عدم التدخل فيما لا يعني. وعندما قلت لها إنها تبحث في منزلي ضحكت باحتقار وقالت لي إنه لم يعد منزلي بل منزلها».

وعندما بدا أن شرينفورد لم يكن راغباً بالمتابعة، قالت زوجة العم آنا «كنا نعلم أنها تبحث في كل الغرف واحدة تلو الأخرى، ولكننا لم نستطع يوماً ما أن نعرف عما تبحث، فهذا المنزل لا يحتوي كثيراً من الأشياء الثمينة».

عندها قال شارلوك: «لقد كانت تمتلك مخططاً للمنزل في غرفتها وهي تعلقه بواسطة جديلة متدلية من نافذة غرفتها، يجب إحضار المخطط قبل أن يقع في أيدي آخرين».

هز شرينفورد رأسه وابتسم. لا يتذكر شارلوك أنه رأى عمه يبتسم من قبل وقال: «لقد كنت أحتفظ بزجاجة ماديرا لمناسبة خاصة، وأظن أن ما حدث اليوم هو أقرب مناسبة سعيدة ستحصل لي في حياتي. إنني أقدر أنكما فتیان صغيران ولكن الله سيسامحني إن قدمت لكما كأساً صغيرة بالطبع».

نظر شرينفورد إلى زوجته ورفع حاجبه مستعلماً، فما كان منها إلا أن أومأت وتوجّهت نحو الطاولة من أجل إحضار الزجاجة وبعض الكؤوس.

تراجع العم وجلس وقال: إنني مدين لك بتفسير. لقد جعلت السيدة إيغلانتين حياتنا جحيماً وبفضل جهودك زال هذا الجحيم لذا يجب أن أخبرك بما كانت تعلمه».

هزّ شارلوك رأسه وقال: «ما من ضرورة أن أعرف فكل العائلات تمتلك أسرارها الخاصة».

لكن شرينفورد قال: «هذا السر له علاقة بك، ولقد احتفظنا به لفترة طويلة كافية». عصر ذراع زوجته، فربتت يده مؤكدة. أحس شارلوك بأن الأرض أسفل قدميه تنزاح جانبياً ببطء فسأل: هل السر له علاقة بي؟».

فتح شرينفورد فمه لقول شيء ولكنه احتار، وحدث إلى ماتي وعبس وقال: «ربما...». وخاطر: «ربما يجدر بي كتمان السر لبعض الوقت ريثما نكون بمفردنا».

نظر شارلوك نحو ماتي وقال بصرامة: «أياً يكن، لا أريد أن تكتُم السر لمزيد من الوقت. ماتي صديقي ولا مانع لديّ بأن يطلع عليه».

بدا شرينفورد غير مقتنع: «أياً يكن الأمر شارلوك، إنه أمر عائلي. على الأقل يجب أن نستشير شقيقك قبل أن نفصح عن السر أمام الآخرين».

«الآخرون يعرفونه أصلاً». قاصداً إيغلانتين، ونقل نظره بين عمه وزوجته ثم عمه مجدداً. «لقد سمعت مايكروفت ذات مرة يقول إن نور الشمس أفضل منظف. كنت أظنه يتكلم حرفياً، ولكنه تبين لي لاحقاً أنه كان يتكلم بصورة مجازية، فهو كان يرمي من حديثه ذلك أن إخفاء الأمور عن الناس تجعلها أكثر سوءاً، فمعرفة الحقيقة، وإتاحة المجال أمام الآخرين لمعرفة هي أفضل شيء يمكنك القيام به».

تنهد شرينفورد وقال ببطء: «حسناً». وسكب الماديرا في الكؤوس. «يتعلق الأمر بوالدك، عندما كنا صغيرين، كان والدك ولداً غريباً ففي بعض الأحيان كان يبدو مفعماً بالنشاط يتسلق الأشجار ويقفز فوق الأسيجة ويأكل بسرعة ويتكلم بسرعة حتى أن الناس لم يكونوا قادرين على أن يفهموا ما يقوله. وفي أحيان أخرى كان يتمدد في السرير ويسير في أرجاء المنزل ولا يعير أي شيء اهتماماً، وكان والدنا يقول إنه سيتغير عندما يكبر، ولكن أمنا لم تكن واثقة. لقد أحضرت الأطباء لمعالجته. فالأطباء الذين شاهدوه في حالة النشاط قالوا إنه طبيعي، ولكن الأطباء الذين شاهدوه في حالة اللامبالاة قالوا إنه سوداوي أو ممسوس، وعندما كانت تزداد هذه الحالة كان والدي ووالدتي يدخلانه المصحة ليتم الاعتناء به».

همس شارلوك: «هل كان والدي مجنوناً».

أجابه شرينفورد بصرامة: «لم أستخدم هذه الكلمة مطلقاً في وصف حالته» وتابع: «في بعض الأحيان كان يبدو في غاية الحماسة لدرجة يبدو فيها خطراً وفي أحيان أخرى يبدو حزيناً ويبدأ بالحديث عن نيته بالانتحار. إنني أقول إنه كان موضع اهتمام في المصحة، ولا أستطيع أن أنسى الرعب الذي يحيط به عندما زرته ذات مرة في المصحة، وما من شك أن كل ذلك ترك أثراً فيه». توقف شرينفورد وهو يحدق إلى الطاولة، ورجح

شارلوك أنه يتذكر أشياء من الماضي. وتابع: «كان أحد الأطباء الذي اطلع على حاله في المنزل وفي المصحة هو الوحيد الذي شخّص حالته تشخيصاً سليماً وكان يعرف أن طبيباً فرنسياً شخّص هذه الحالة على أنها نوع من الشخصية المجنونة المزدوجة، فقام بتجريب علاجات عدة عليه: صبغة الخربوق الأسود لتخفيف التقيؤ، ومستخلص يد الثعلب، وشراب الشوكران. كل هذه الأدوية كانت لها نتائج ايجابية وإنما غير كافية، ولم ينفعه أي شيء بشكل جيد إلا المورفين».

«مورفين» صدمت هذه الكلمة شارلوك كما لو أنها خنجر جليدي غرز في قلبه، فهو يمتلك تجربته الخاصة مع المورفين، فقد خدّره رجال البارون موبرتس بالودونيوم وهو عبارة عن كحول ومورفين، وقد استخدمت بارادول تشامبر المورفين على شقيقه مايكروفت. وتساءل شارلوك هل كان لكل أفراد عائلته تجارب مروّعة مع هذا العقار؟

عندها سأل ماتي: «ما هو المورفين بالتحديد؟».

«إنها مادة مستخرجة من الأفيون، وهي عبارة عن النسغ المجفّف للخشخاش. إنه عبارة عن مادة كيميائية شريرة جداً، واسمه مشتق من إله الأحلام اليوناني مورفيوس».

هز شارلوك رأسه: «لست متأكداً أنني فهمت، فقد كان والدي مريضاً والدواء يجعله يشعر بالتحسن، أين المشكلة؟».

أجابه شرينفورد: «المشكلة أن المجتمع الذي نحيا فيه لا يتسامح مع الأشخاص الذين يعانون من مشاكل ذهنية، من خلال المورفين كبر وأصبح طويلاً وقوياً، ولم يكن أي شخص خارج نطاق العائلة يعلم أنه يعاني من خطب ما، وتزوج من امرأة ذات حسب ونسب والتحق بالجيش، وإن اكتشف أنه يعاني من خلل في الرأس يمكن أن يطرد من الجيش. وكان جيرانه وأصدقاؤه سيبتعدون عنه، وكان العار سيلحق بالعائلة أجمع، لم يكن اكتشاف الأمر يؤذيني ولكن اكتشاف الأمر كان سيجعل والديك يخسران كل شيء. فقد كان العار سيرتبط به وبها وبشقيقك وبك، وكان الناس سيطلقون عليكم لقب أولاد المجنون وسيظنون أنكم ستجنون أيضاً».

همس شارلوك: «ولكن كيف تمكنت السيدة إيغلانتين من معرفة الأمر؟».

فأجابته زوجة عمه بهدوء: «لقد كانت تعمل خادمة في المصحة، عندما كانت صغيرة، ورأته ذات يوم، ويبدو أنها شاهدته صدفة وهو يرتدي ثياب الجيش، ولاحظت أن العار سيلحق بالعائلة إن علم الجيش أنه كان في المصحة وأنه يعتمد على المخدرات، وبهذه الطريقة بدأت تبتزنا».

عبس شارلوك وقال: «هذا ما لا أستطيع فهمه، لماذا تقوم بابتزازكما ولا تبتز أبي أو أمي أو حتى مايكروفت؟».

فأجابه شرينفورد ببساطة: «ربما كانت تبتزهم، نحن لم نسألهم».

خطرت فكرة في رأسه، ولكنه توقف قبل أن يتفوه بأي شيء وأخذ يقلبها في ذهنه من كل الزوايا. لقد كانت فكرة كبيرة، وأراد أن يتأكد قبل أن يتفوه بأي شيء محبط. أخيراً، قال بانتباه وبحذر: «من خلال ما أخبرتنا إياه، كان السر يخص والدي، وعائلته وإن أفشي هذا السر لن يلحق بك العار بل به وبعائلته».

ابتسمت زوجة العام أنا، ومدت يدها عبر الطاولة لتربت يده: «ليباركك الله يا شارلوك».. لم نكن بأي حال من الأحوال لنسمح بأن يلحق العار بوالدك فهو وزوجي شقيقان وكبرا معاً، ونحن لا نستطيع تحمل أن يتعرض للإذلال، إنني أتذكر كم شعر بالفخر عندما التحق بالجيش، وسيكون أمراً سيئاً جداً لو خسر هذا الشعور بالفخر».

«ولكن حياتكما تأثرت بشكل سيئ من خلال وجود السيدة إيغلانتين في المنزل معكما».

عندها قال شرينفورد: «في بعض الأحيان يختبرنا الله، ولا يجب علينا أن نكون متذمرين أو متطلبين».

وهنا سألته زوجة عمه: «لم يكن أمامنا خيار آخر، هل كان بوسعنا أن نقول لهاركينز المبتز إننا لا نريد الدفع، اذهب وأفش

السِر؟ هل كان بإمكاننا أن نقف مكتوفي الأيدي ونشاهد والدك يُدمّر؟ بالتأكيد لم يكن هكذا تصرف يعد تصرفاً حكيماً».

حُدد شارلوك إلى عمه وزوجته وبدل نظراته بينهما، فهما لم يكونا أقرباء مسنين، بل كانا شخصين مفعمين بالمشاعر ولديهما اهتماماتهما، وحاول أن يتخيل شرينفورد فتى صغيراً يلعب مع والده، وتخيل زوجة عمه آنا فتاة شابة ترتدي أجمل فستان وهي ذاهبة لحضور حفل زفاف والده ووالدته».

قال شارلوك ببساطة: «شكراً لكما بالنيابة عن أبي وأمي اللذين لن يستطيعا شكركما لأسباب عديدة، أكرر شكري لكما».

قال شرينفورد: «هذا أقل ما كان يفترض بنا أن نقوم به».

فأجابه شارلوك: «على العكس لقد قمتما بأمر نبيل وتضحية كبيرة».

عندها قالت زوجة عمه آنا: «الآن يجب أن أوظف مدبرة منزل أخرى، فالمنزل بحاجة إلى مدبرة، والخادِمات يتلکّان دائماً وهنّ بحاجة إلى من يراقب عملهن على الدوام وإلا لا أحد يعلم ما ستؤول إليه الأمور».

فقال شرينفورد: «وأنا يُفترض بي ترتيب المكتبة، وهذا سيستغرق بعض الوقت».

عندها وقفا معاً وغادرا الغرفة بعد أن ابتسمت له زوجة عمه ولوّح له عمه.

لاحظ ماتى ما حصل وقال: «يا لهما من أناس أفاضل». فأجابه شارلوك: «كلمة أفاضل لا تعبر جيداً عن حالهما ولا تفيهما حقهما».

«إذا، ماذا سنفل الآن؟».

فكر شارلوك لبرهة: «كنت أفكر بالذهاب إلى كوخ أميوس غروي فهو سيهتم بمعرفة ما حصل، كما يفترض بنا أن نخبره عن الرجلين الأميركيين اللذين كانا يبحثان عنه في السوق، لقد ذكرنا اسمه».

هزّ ماتى كتفيه وقال: «أفترض أنه سيكون لديه بعض النصائح حول ما يجب أن نقوم به إن عاد جوش هاركينز وطالبنا بكل الأموال التي فقدها، كما أنني أعتقد أنه لأمر جيد أن أرى فرجينيا مجدداً».

عندها حذق إليه شارلوك، ولكن ماتى نظر إليه ببراءة. أخيراً قال شارلوك: «أظن أنك لست مضطراً للذهاب ربما كان ألبرت بحاجة لكي تطعمه».

أجابه ماتى وهو يهز كتفيه: «ألبرت حسان وقد تركته محاطاً بالطعام، يمكنك تشبيه الوضع كما لو أنك تركتني في متجر للفظائر، سيستمر ألبرت بالأكل حتى يشبع ثم سيغط بالنوم».

فسأله شارلوك: «أتظن أن الأحصنة تشعر بالملل، أقصد أنها تبقى واقفة في الحقول طوال الوقت».

رفع ماتي حاجبه وقال: «لم يسبق لي أن فكرت بالأمر، ربما تمضي الأحصنة الوقت وهي تفكر بالعالم المحيط بها، وربما لا تفكر الأحصنة أبعد من أنوفها» وعبس بوجه شارلوك: «إنك كثير التفكير، هل سبق لأحد أن قال لك هذا؟».

خرجا في أواخر بعد الظهر، استعار شارلوك حصاناً آخر، وامتطيا حصانيهما، وسارا عبر الحقول متجهين إلى حيث كان أميوس وفرجينيا يقيمان.

بينما كان يمتطي الحصان أخذ يفكر بأمرين أحدهما توتره لأنه سيقابل فرجينيا، أما الآخر فكان نظرتة لوالده الذي كان يراه دائماً قوياً وطبيعياً ويحب الطبيعة ولكن ما عرفه اليوم عنه جعله يفكر فيه على أنه شخص معقد جداً.

ولم يستطع التوقف عن التفكير: هل الحالة التي يعاني منها والده وراثية أم أنها حالة يمكنه أن يلتقطها كالأنفلونزا.

قادا الحصانين نحو الكوخ الصغير، ولاحظ شارلوك أن حصان فرجينيا ليس في الحقل.. سانديا ليس في الحقل يعني أن فرجينيا ليست هنا.

سأله ماتي: «هل ستذهب وتبحث عنها؟».

فنظر إليه شارلوك بسوداوية وقال له: «دعنا ندخل ونتر، لقد مر عليك نصف ساعة من دون أن تأكل، لا بد أنك جائع؟».

فأجابه ماتي: «معك حق».

ترجّلا عن حصانئهما وربطاهما بالسياج، ولكن شيئاً جعل شارلوك يشعر بالانزعاج. واستغرقه الأمر برهة لمعرفة فالفؤوس والأحذية الملطخة بالوحل لم تكن أمام الكوخ.

وكان باب الكوخ مغلقاً على غير عادته. طرق شارلوك على الباب، متوقّعاً أن هناك أمراً سيئاً، ورجع بذاكرته إلى ما سمعه في السوق. لقد ظن أن الرجلين يريدان مساعدة السيد أميوس ولكن يبدو أن الأمر كان على خلاف ذلك.

لم يأت جواب من الداخل.

فطرق مجدّداً ولم يأتِه جواب أيضاً.

نظر إلى ماتي الذي كان يقف إلى جانبه فبادله النظرة وقد بدا عابساً.

دفع شارلوك الباب ليفتحه.

كانت الغرفة في الداخل فارغة من أي مقتنيات شخصية. لم يكن أميوس وفرجينيا في الداخل بل لم يكن هناك أي أثر يدل على أنهما عاشا هنا.

الفصل السادس

دفع شارلوك المصدوم الباب وفتحته على وسعه ودخل الغرفة. كان حجم الغرفة والمفروشات مألوفاً لديه، ولكن هناك شيئاً مختلفاً، ففراغ الغرفة جعلها تبدو أكبر مما يتذكرها.

إن مقدار الفراغ على الجدران أحبطه، فقد اعتاد على رؤيتها مليئة بالخرائط والرسوم. جعلته الجدران المعلّمة بالمسامير التي كانت تُعلّق عليها الصور يتأكد من أنه في الكوخ الصحيح وليس في كوخ آخر بنفس حجم كوخ أميوس غروي وعلى الطريق نفسه.

قال ماتي وهو يتبع شارلوك إلى الداخل: «على الأرجح أنهما جمعا متاعهما وغادرا بسرعة».

«ربما تركا أي إشارة» أشار شارلوك إلى حيث يقفان وتابع: «ابحث هنا وسأبحث في الأعلى».

فقال ماتي: «لا شيء هنا. إن تركا إشارة أو ملاحظة فما من شك أنهما تركاها في مكان يمكنك أن تراه»؟

«أرجح أنهما إن تركا إشارة أو ملاحظة فهما لم يكونا يريدان أن يعرف بوجودها أي شخص يدخل إلى هنا».

نظر إليه ماتي بسخرية: «صدّق الحقيقة لقد جمعا متاعهما وغادرا، لقد قمت بذلك مرات عديدة. إن كانت مديناً لأحد بالمال فيأتي ويبحث عنك فما يكون منك إلا أن تجمع متاعك وتغادر

إلى مكان لا يعرفك فيه أحد». عبس وتابع: «أياً يكن الأمر، لم أكن أعتقد أن السيد غروي سريع بالركض، لا بد أن من يتعقبه مربع ومخيف لذلك جمع متاعه وأسرع بالرحيل».

فما كان من شارلوك إلا أن قال له: «يبدو أنك نسيت أمر الرجلين الأميركيين اللذين صادفناهما في السوق، فهما قالا إنهما يريدان تحذير السيد غروي من أمر ما».

«ألا يمكن أن يكونا هما الشخصين اللذين يفر منهما؟».

احتج شارلوك: «لو كان الأمر كذلك لما أقدم على الرحيل، على الأقل قبل أن يخبرنا».

هزّ ماتي كتفيه وقال بجفاء: «ربما أنت أحسنت بهما الظن، وظننتهما صديقين بخلاف حقيقتهما، من خلال تجربتي فإن أموراً مثل الصداقة يمكن أن ترمى في الأوقات الصعبة وعندما تكون النقود شحيحة».

حذق شارلوك إليه وقال له: «أتقصد حقاً ما تتفوّه به؟».

لم ينظر ماتي في عيني صديقه وقال: «العالم مكان مربع، لقد كان مريحاً لك على الدوام، لو أنك اختبرت البرد والجوع والفقر، لأمكنك بعدها أن تفهم ما تعنيه الصداقة».

أحس شارلوك أن العالم الذي كان يعتمد عليه ينهار بين يديه فقال له: «أنت صديقي، ولن أنسى يوماً أنك صديقي، إنني صادق حقاً في ما أقوله».

ردّ ماتي: «إنني أعلم أنك صادق، ولكنك تقول هذا وأنت ممتلئ المعدة ومحفوظة نقودك عامرة، ولكنني أتمنى أن تكرر ما تقوله إذا تغيّر الوضع» هز رأسه وتابع: «سأبحث عن أي ملاحظة أو إشارة، وسأكون في قمة السعادة إن وجدتتها».

بدأ ماتي يبحث في الخزائن وتحت المخدات، وتوجه شارلوك نحو الدّرج الضيق وكاد يصدم رأسه بالسقف المنخفض وأحس بالتوعك لأنه فقد صديقيه، وبسبب كلام ماتي. هل هو يؤمن أن الصداقة أمر يسهل التخلّص منها. وهل يظن أنه سيتخلّى عنه ما إن تصبح ظروفه صعبة؟

هل كان سيفعل ذلك؟

شعر بالقشعريرة تجري في جسده، إلا أنه دفع كل تلك الأفكار إلى ركن قصي من دماغه، فليده أمور أكثر أهمية يجب أن يفكر بها الآن».

كان القسم الأعلى من الكوخ فارغاً كما هي حال القسم الأسفل، فسرير السيد غروي كان مرتباً وخزائنه خالية من الثياب أما الحمام فلم يكن فيه فرشاة أسنان أو حتى مشط.

وقف شارلوك أمام باب غرفة فرجينيا، وهو ينقل ثقله من قدم إلى أخرى، لم يسبق له أن رأى غرفة نومها، وبالرغم من عدم وجودها شعر بعدم وجوب دخوله، فقد بدت له الغرفة منطقة محرمة.

خاطب نفسه قائلاً: يا للسخافة، إنها مجرد غرفة، وغرفة فارغة.

كانت غرفة فرجينيا كغرفة والدها، فالسرير مرتب والخزانة خالية وما من أشياء خاصة لا على المنضدة أو عتبة النافذة. فكر بأنه يستطيع شم رائحة عطرها. كم هو أمر غريب فهو لم يكن يعلم إن كانت تضع عطرًا، وهو لم يكن يعتقد أنها من الفتيات اللواتي يضعن عطرًا، ولكنه أغمض عينيه وتخيلها تقف خلفه مباشرة.

كان على وشك المغادرة، ولكنه رأى لوناً لامعاً على مكدتها، فاستدار وانحنى على السرير.

كانت خصلة من شعرها الأحمر النحاسي. أحس بشيء يعتصر فؤاده، وفجأة شعر أنه لا يستطيع التنفس. صرخ ماتي من الأسفل: «هل وجدت شيئاً». فرد عليه شارلوك: «لا شيء». وهو يشعر بانقباض قلبه يخف، كانت نبضات قلبه متسارعة ويستطيع سماعها وسأل ماتي: «وأنت هل وجدت شيئاً؟».

«لا لم أجد شيئاً، لا طعام في خزائن المطبخ أو على الموقد، ولا صحون في حوض الغسيل، وهذا يعني أنهما أخذا طعامهما معهما، ومن خلال تجاربي يمكنني توقع أنهما لن يعودا».

نزل شارلوك الدّرج وهو يخفض رأسه كي لا يرتطم بالسقف، وعندما عاد إلى الأسفل حدّق إلى آثار مسامير التعليق على الجدار قبالتة، وهو لم يسبق له أن لاحظ أن هناك أشياء كثيرة معلقة على الجدار.

قال ماتي: «لا أثر، لقد غادرا إلى الأبد».

هزّ شارلوك رأسه بشدة وقال: «لن يغادر أميوس غروي من دون أن يودعني، حتى ولو أن أمراً طارئاً قد حدث، وجعلهما يغادران بسرعة، فهو كان سيترك رسالة وكذلك فرجينيا...». توقف وهو لا يريد أن ينهي جملته، فهو لم يكن واثقاً من مشاعر فرجينيا تجاهه كما أنه كان يكتشف يوماً بعد يوم مشاعره تجاهها. وأخيراً، أنهى جملته بقوله «حسناً، حتى فرجينيا كانت لتقول شيئاً، ما يجب علينا الاستمرار بالبحث».

قبل أن يقدم شارلوك على أي حركة قال ماتي ما أقلق شارلوك: «حسناً، يجب أن يكون الرجلان الضخمان اللذان شاهدناهما في السوق قد أتيا وأخذا السيد غروي وفرجينيا. أو أن السيد غروي علم بطريقة ما بقدمهما ففر، ولكن لماذا يلاحق شخص ما السيد غروي؟».

فكّر شارلوك لبرهة، وهو يتذكر ما بقي عالقاً في ذهنه ممّا قاله أميوس غروي عن حياته في أميركا قبل أن يأتي إلى هنا، فقد كان يتعقب المجرمين الفارين بعد الحرب بين الولايات. «أعتقد

أن السيد غروي كان لديه كثير من الأعداء، وهذا ما جعله يأتي إلى هنا مع فرجينيا، ربما شخص ما من الماضي يتعقبه الآن». «لا بد أن الشخص أو الشيء الذي فر منه مرعب ومخيف، فلا أستطيع أن أتخيل السيد غروي يهرب من أي شيء أقل حجماً من فيل هائج فأنت أدري الناس بقوته».

حدّق شارلوك إلى ماتي وسأله: «متى شاهدت فيلاً؟».

عبس ماتي وقال: «لقد شاهدت الفيل في الصور».

«لا بد من خطب ما». لكم شارلوك فخذة بقبضته المشدودة «ويجب عليّ أن أعرف ما هو».

اقترح عليه ماتي: «ربما في الخارج».

وافقه شارلوك الرأي: «يجب أن نلقي نظرة، ولكن يجب أن نقيّد بحثنا بجدران الكوخ ومسافة قدمين حولها وإلا سيقودنا بحثنا إلى شتى أنحاء الريف».

غادرا باب الكوخ، وانعطف شارلوك بتلقائية نحو اليمين، بينما انعطف ماتي نحو اليسار. مسح شارلوك بعينه جدران الكوخ الآجرية، وسقفه المصنوع من القش، وكان ينظر من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس بينما كان يسير، وتوقف عند نافذتين وتعريشة كانت تتسلق على الجدار، وتساءل إن كان غروي قد ترك رسالة في القش من الداخل أو الخارج، ولكنه ما لبث أن استبعد الفكرة، لأن غروي لو ترك رسالة فهو سيتركها في مكان يمكن

الوصول إليه بسرعة وسهولة، ويعرف غروي أن شارلوك سيبحث فيه.

في وسط المسافة المحيطة بالكوخ تعثر بشيء ما، ظنه أفعى فتراجع مرعوباً، ولكن ذلك الشيء لم يتحرك، وكان بنياً ومغبراً جداً، وبالتالي استبعد أن يكون أفعى، انحنى إلى الأسفل ليتبين أمره فوجد أنه أنبوب مصنوع من القماش القطني وهناك حلقات في داخله تحول دون انخسافه، وكان الأنبوب يمتد من فجوة في جدار الكوخ وعبر أجمة من العشب قبل أن تختفي. هل يعود لإحدى التجارب التي يقوم بها أميوس غروي؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع شارلوك أن يفكر فيه، ولكن هذا لم يعطه أي دليل على مكان السيد غروي وفرجينيا.

التقى ماتي وشارلوك مجدداً عند الجانب الآخر من الكوخ. فسأله: «هل وجدت شيئاً غير عادي».

عبس ماتي لبرهة وقال: «لا شيء على الإطلاق، لم أجد سوى أرنب ميت مقطوع الرأس».

«أين كان الأرنب الميت؟ هل كان ملقى على الأرض؟».

هزّ ماتي رأسه: «كان مدفوناً أسفل كومة من الحطب، يبدو أن أحداً وضعه هناك، لا أستطيع أن أتخيل السبب».

سمح شارلوك للفكرة بالدخول إلى رأسه ثم قال: «أرنب ميت من دون رأس! يجب أن أعترف؛ إذا كان هذا رسالة فهي رسالة

مشقرة جداً» تنهّد وتابع: «دعنا نتابع البحث وسنلتقي عند الباب الأمامي».

اشتكى ماتي: «ولكنك تفحصت القسم الذي يجب أن أتفحصه وكذلك أنا تفحصت القسم الذي ستتفحصه أنت».

«زوجان من العيون أفضل من زوج واحد. ربما فاتني شيء فتنّبه له، والعكس صحيح. لن يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق».

انفصلا وأخذا يبحثان، لم يجد شارلوك شيئاً في المنطقة التي مشطها ماتي، ولم يجد ماتي شيئاً في منطقته. توقف شارلوك وحدّق إلى الأرنب الميت الملقى على العشب بالقرب من كومة حطب كان أميوس غروي يستخدمه للموقد، ولكن الأمر لم يخبره بشيء. فهو لم يكن إلا أرنباً مقطوع الرأس، والريف مليء بأمثاله.

كان ماتي ينتظره أمام الباب ورفع حاجبيه متسائلاً. هزّ شارلوك رأسه بينما هزّ ماتي كتفيه مشيراً إلا أنه لم يجد شيئاً في المنطقة التي بحث فيها شارلوك مسبقاً. وقال: «لقد وجدت نوعاً من الأنبوب، لا أكثر».

قاد شارلوك الطريق إلى داخل البيت، وجال بنظره في أرجاء الغرفة، وهو يضع يديه على وركيه وقال بإحباط: «دائماً أشعر بأنني نسيت شيئاً».

أجابه ماتي: «إن كنت أنت من نسي شيئاً فلا أمل لدي بإيجاده».

قال شارلوك: «لا تبخس نفسك حقها، فأنت تملك عينين متفحنتين جيدتين». وحدّق مجدداً إلى فجوات المسامير على الجدار، محاولاً أن لا ينظر إلى التفاصيل وإنما إلى المشهد العام وقال مخاطباً ماتي: «إنني أظن أن هذه الفجوات تحمل رسالة ما».

حدّق ماتي إليه ثم إلى الجدار وقال: «أنت ترى أشياء». «صحيح هل تحمل قلم حبر؟».

هل أبدو شخصاً يسير وهو يحمل قلماً في جيبه؟». تنهد شارلوك: «حسناً أتملك قلم رصاص إذا؟». «الجواب عينه».

«أتحمل سكيناً؟».

هنا قال ماتي: «هذا طلب يمكنني أن ألبيه». ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج السكين الذي استخدمه في إحداث الفجوة في الخابية الموجودة بالمديغة «انتبه كي لا تكسرهما».

«لن أكسرها». توجه شارلوك نحو الجدار، وسار بالقرب منه، وحدّق إليه قليلاً، محاولاً تذكر الأشياء التي كانت معلقة عليه» وقال: «كان هناك خارطة كبيرة معلقة على الجدار أليس

كذلك؟». وأشار برأس نصل السكين الحاد إلى مقطع من الحائط.

«أعتقد ذلك».

«حسناً». استعمل شارلوك رأس نصل السكين كقلم، وهو يجرف سطح الطلاء وقام بجمع نقاط أربع فجوات التي شكّلت مستطيلاً وفق تقديره والتي كانت بالشكل والاتجاه الصحيح. «هنا كانت الخريطة، وكان هناك ورقتان إلى يمينها». بسرعة شعر بثقته بنفسه تزداد، ثم اختار مجموعتين من أربع فجوات، وقام بالربط بينها بواسطة رأس نصل السكين، أصبح لديه الآن ثلاثة مستطيلات متباعدة بعضها عن بعض وقال: «إنني أتذكر أنه كان هناك أشياء هنا ربما صور».

«كانت عند الزاوية» أشار ماتي. اختار شارلوك أربع فجوات أخرى حسبما يذكر، ولكن ماتي هزّ رأسه: «تقريباً على بعد إنش إلى اليسار.. كلا ليس هناك... انخفض قليلاً، حسناً هناك».

مع تقدم العملية، قام شارلوك بتوصيل كل الفجوات حتى تمكن من رسم صورة عن كل الأشياء التي كانت موجودة على الجدار، كان هناك بعض الأشياء المعلقة على الجدار بواسطة مسمار واحد وليس أربعة، وفي هذه الحالة وضع علامة اكس كي يضع كل شيء مكانه.

توقف ليرى ما أنجزته يداها، كان الطلاء مغطى بعدة رسوم بيانية مغلقة وعلامات إكس.

قال ماتي: «يبدو أنك نسيت بعض الأشياء التي كانت معلقة». أجابه شارلوك: «كلا، لم أنس شيئاً فالفجوات الباقية جديدة». «هل أنت متأكد؟».

«متأكد جداً، انظر إلى الفجوات عن قرب».

تقدم ماتي نحو الجدار، وحقق بعينه.

فقال له شارلوك: «كلا، تراجع، وحاول أن تنظر متناسياً الفجوات التي قمت بتعليمها».

هزّ ماتي رأسه، مذعناً وفتح عينيه من هول المفاجأة وصرخ قائلاً: «إنها تشكل سهماً».

فقال شارلوك: «بالضبط». وتبع نظرة ماتي. لقد كانت الفجوات التي لم تكن مرتبطة ببعضها بواسطة خرطشة شارلوك أو لم يكن عليها علامة إكس تشكل سهماً يشير نحو النافذة.

اتبع الفتيان الاتجاه الذي يشير إليه السهم، وحققاً إلى المشهد الأخضر الطبيعي في الخارج. فسأل ماتي بغباء: «إلى هناك ذهباً؟ لا أعتقد أن الذهاب بهذا الاتجاه سيساعدهما».

فأجابه شارلوك: «أظن أنهما أقرب، هذه النافذة تطل على الإسطبل حيث كانت فرجينيا تترك حصانها سانديا. السيد غروي

يريدنا أن نبحث في الحقل بجانب الإسطبل. لقد ترك لنا رسالة هناك».

هزّ ماتي كتفيه: «يبدو أنه هدر وقته وكان بإمكانه أن يترك الرسالة معلقة على الجدار».

«لو ترك الرسالة معلقة على الجدار كما تقول كان بإمكان أي شخص أن يراها ويقرأها، ولكنه ترك مفتاحاً يشير إلى الرسالة». عندها مدّ السكين نحو ماتي وقال له: «شكراً لك».

هزّ ماتي كتفيه وقال له: «احتفظ بها، نظراً لما سيصادفنا، يمكن أن تحتاج إلى هذه السكين أكثر مما تحتاجها».

توجه الفتيان إلى خارج الكوخ، وغادرا المنطقة المسيجة، وقصدا المنطقة التي تطل عليها النافذة.

سأله ماتي: «من أين سنبدأ، لا شيء واضح؟».

فقال له شارلوك: «لن تكون واضحة فالسيد غروي أخفاها بطريقة كي لا تكتشف بسهولة» وفكر للحظة وتابع: «لو كنا نملك خيطاً، كان بإمكاننا أن نصنع شبكة من المربعات، ونبحث في كل مربع على حدة، كي نستطيع معرفة أننا مشطنا كل الأرض، من دون هذه الطريقة هناك احتمال أن ننسى منطقة بعينها».

اقترح ماتي: «دعني أخبرك ما سنقوم به، دعنا نقف متقابلين ثم نسير أحداً باتجاه الآخر، ونبحث بالأرض حتى نلتقي، ثم

نخطو خطوة إلى جانبنا، ثم نستدير، ونكرر الأمر. بهذه الطريقة نسير عبر خطوط ولن تفوتنا أي بقعة».

أوما شارلوك: تبدو خطة جيدة، دعنا نباشز بالتنفيذ».

خلال نصف الساعة التالية قاما بتفحص المنطقة ودققا في كل حفرة أرنب، وكل أجمة أعشاب، وكل كتلة براز تركها حصان فرجينيا. وبعد بضع دقائق بدأ ظهر شارلوك يؤلمه بسبب وضعية ظهره غير المريحة، فقد كان ظهره محنياً ويسير بخطوات متقاربة، ولو نظر إليهما أحد من بعيد لاعتقد أنهما دجاجتان تبحثان عن حبوب الذرة.

صاح ماتي: «لقد وجدت شيئاً».

«ما هو؟».

رفع ماتي شيئاً من الأرض وكان مصنوعاً من معدن رمادي اللون.

فقال شارلوك: إنها شوكة».

أجابه ماتي: «أعلم إنها شوكة ولكن هل هي مهمة؟».

هزّ شارلوك كتفيه وقال: «اتركها حيث وجدتتها، يمكن أن نحتاج إليها لكي نحفر إن لم نجد شيئاً آخر».

وبعد خمس دقائق حان دور شارلوك ليقول إنه وجد شيئاً فصاح: «ماتي تعال إلى هنا».

رمى ماتي الشوكة، وأسرع إلى حيث كان شارلوك يجثم وسأله «ما هذا».

أشار شارلوك إلى حفرة فيها جذر موضوع بشكل زاوية «أعتقد أنها حفرة أرنب».

«تهانينا، لقد سبق لي أن عثرت على خمس حفر».

«ولكن هذه الحفرة تحتوي شيئاً». سبق له أن رأى ظله، لمست أصابعه شيئاً فروي الملمس ودبقاً، وقام بسحبه إلى الخارج. كان ذلك الشيء رأس أرنب.

«رأس أرنب في حفرة أرنب» علّق ماتي: «أليس هذا أمراً غير متوقع في سياق الأحداث؟ هل تحاول أن تقول لي إن ثعلباً أتى وأخذ السيد غروي وفرجينيا بعيداً؟».

أجابه شارلوك: «أنت ترى بعينك ولكنك لا تفهم بدهماغك، انظر إلى الرقبة».

نظر ماتي ثم أوماً أنه فهم: «لقد قطعت بشفرة حادة، ولم تمزق». وفكر للحظة: «يجب أن يكون هذا الرأس عائداً للأرنب الذي وجدناه بالقرب من الحطب، حتى إنه يمكن أن يكون قد جلب من طاولة المطبخ. ربما أتى به ثعلب أو ابن عرس وتركه هنا».

«لا أظن ذلك، لو أن حيواناً جلبه لكان أكل بعضاً منه، وعلى الأقل كانت آثار أسنانه ظاهرة، ولكن مما لدينا يبدو أنه قطع عن

جسم الأرنب ووضع مباشرة في هذه الحفرة». بدّل ماتى انتباهه من ظهر شارلوك إلى رأس الأرنب: «إنه يبدو طازجاً. على الأرجح لم يمضِ على قطعه يوم بعد». فكر شارلوك وقال: «إنها رسالة، ولكن السؤال هنا أي نوع من الرسائل هذه؟». توقف لبرهة: «لا، السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك رسائل أخرى». نظر ماتى حوله وتنهّد: «هل تقصد أنه يجب علينا إنهاء البحث في الحقل؟». «هذا ما علينا القيام به، فإن وجدنا شيئاً واحداً لا يعني أنه ما من أشياء أخرى يمكننا أن نجدها». «كنت أخشى أن تقول هذا». تركا رأس الأرنب المدمى، وتابعا البحث وتمشيّط العشب بحثاً عن أي شيء رُمي أو نُسي. وبعد مرور ثلاثة أرباع الساعة كانا يبحثان بعيداً عن السياج. سأل ماتى بينما كان يعود نحو الكوخ: «هل وجدت شيئاً؟». أجابه شارلوك: «لا شيء». نظر ماتى إلى حيث تركا رأس الأرنب وقال: «لا يسعني رؤية كيف يمكن أن تكون هناك رسالة، إلا إذا كتب السيد غروي رسالة على قصاصة ورق ووضعها داخل فم الأرنب، وعندها يكون أمراً مقرفاً جداً».

أجابه شارلوك: «لا أعتقد الرسالة لها علاقة بالرأس بحد ذاته، أو على الأقل هذا ما أظنه، على الأرجح الأمر له علاقة بالمكان، لا أعتقد أن السيد غروي كان لديه الوقت للقيام بأمر معقد، ككتابة ملاحظة أو رسالة، فهو قام بصنع الفجوات التي تشير إلى هنا ثم ألقى بالرأس في الحفرة».

أشار ماتي: «ولكن كان لديه الوقت للإمساك بأرنب وذبحه». «أعتقد أن الأرنب كان موجوداً أصلاً، وأعتقد أنه أمسك به من قبل، وكان يحضّره لإعداد وجبة، فقطع رأسه وأخرج أحشاءه وبدأ بسلخه، وأعتقد أن شيئاً ما حصل حمله على الرحيل، وبعد أن أفرغ الكوخ من كل مقتنياتهما كان لديه القليل من الوقت لكي يترك رسالة».

تنهد ماتي بإحباط: «ولكن ما هي هذه الرسالة أعتقد أن توقعاته حول فطنتنا كانت أعلى من الواقع».

استغرق شارلوك بالتفكير وهو يقول: «رأس أرنب في حفرة». محاولاً أن يستخرج فكرة من رأسه، فكرة يمكن أن تنبثق إن هو تابع في تكرار أمر واضح.

تمتم ماتي وهما يدخلان إلى الكوخ: «جحر». «ماذا؟».

«إنه جحر وليس حفرة؛ الأرناب تقيم في الجحور والثعالب في الأوكار. إن شخصاً يمتلك ناصية الكلام مثلك يجب عليه أن

يتعلم أسماء بيوت الحيوانات».

صحّ شارلوك: «رأس أرنب في جحر». هذه الفكرة الزائفة في رأسه بدأت تتشكل: «رأس في جحر! ماتي أنت عبقرى». قال الفتى متفاجئاً: «أنا».

«حسناً، ليس بكل ما للكلمة من معنى، ولكننا يمكننا أن نقول إنك تملك شيئاً يمكن أن يقدح الأفكار العبقرية في رؤوس الآخرين، إنها واضحة». «وهي؟».

«أتذكر عندما خطفك رجال الدوق بالتزار ونقلوك إلى نيويورك ولحقنا بك؟». أوماً ماتي بارتباك.

«أتذكر عندما وجدتك في المبنى؟ لقد حاولت أن تفهمني أنهم يأخذونك عبر سكة حديد بنسلفانيا؟».

ابتسم ماتي: «كان تصرفاً عبقرياً أليس كذلك؟».

تنهد شارلوك: «لقد أومأت بكلمة قلم ثم لمست عتبة النافذة، ثم أشرت إلى الأداة التي تشير للطقس بالقرب من البناء. لقد استغرقني الأمر وقتاً لأفهمك، ولكنني في النهاية فهمت». «نعم أتذكر، ولكن ما علاقة ذلك بما نحن فيه الآن؟».

تنهد شارلوك مستنزفاً: «ألم تفهم؟ لقد قام أميوس غروي بما قمت به. رأس في جحر. سيذهب هو وفرجينيا إلى أدنبرة».

عبس ماتي وقال بغباء: «إنها مجرد صدفة، فهو يمتلك رأس أرنب ولديه جحر بالقرب منه، وهو يعلم أنه متجه إلى أدنبرة». قال شارلوك: «أظن أن الأمر حدث بطريقة أخرى. وكان باستطاعته في لحظة صفاء أن يشعر بحرارة الانتصار تسري في جسده، وهي تذهب بكل الألم والتعب. لقد نجح، وتمكن من فك الشيفرة. كان يعلم أنه محق وقال: «إنني لا أقول إنه أفضل مفتاح لحل لغز بالعالم، ولكن السيد غروي كان يفترض به التعامل مع الأشياء الموجودة بين يديه، كان يجب عليه استخدام فجوات المسامير على الجدار لكي يشير إلى هنا، وكان لديه جسد الأرنب بين يديه وكان يعلم بوجود جحور عدة بالقرب من الإسطبل. لقد استخدم المواد المتوافرة بين يديه لكي يصنع لغزاً ومفتاحاً لهذا اللغز، ثم أخذ فرجينيا إلى أدنبرة ليس لسبب إلا لأنه لم يكن باستطاعته أن يصنع مفتاحاً يشير إلى مكانه سوى ما كان متوافراً بين يديه والذي كان يمكن أن يدل على أدنبرة».

فسأله ماتي: «ولكن لماذا قال لنا إنه ذاهب إلى أدنبرة؟». «لأنه على الأرجح يريدنا أن نلحق به، ما من سبب آخر. فلو كان راغباً بالمغادرة من دون توديعنا كان بإمكانه أن يكتب رسالة وداع، ومثل هذه الرسالة لم يكن مهماً إن وجدها غيرنا، ولكن

من الواضح أنه يريد إعلامنا أنه في أدنبرة، أعتقد أنه بخطر، وأنه يحتاج إلى مساعدتنا».

قال ماتي بجذل: «سنلحق به أليس كذلك؟».

أجابه شارلوك بحذر: «حسناً، هناك خيارات أخرى، ربما يجدر بنا إخبار شقيقي».

«كم سيستغرق إبلاغه من وقت، وما الذي سيقوم به؟ ومن خلال معرفتي بشقيقك أشك أنه سيستقل القطار القادم إلى إسكتلندا، فهو على الأرجح سيرسل كثيراً من الرسائل من أجل أن يقوم عملاؤه بالبحث عن السيد غروي، ولكنهم لن يتمكنوا من معرفة شكله أو شكل فرجينيا».

هزّ شارلوك رأسه: «لم يسبق لنا أن ذهبنا إلى أدنبرة، ونحن لا نعرف شيئاً هناك، كيف يمكننا مساعدتهما إن كنا لا نستطيع أن نساعد أنفسنا؟».

قال ماتي بفخر: «لقد زرت أدنبرة. أخذني أبي وأمي إلى هناك بواسطة زورق، واستغرق الأمر منا أسبوعين حتى وصلنا، وبقينا هناك حوالى شهر بينما كان أبي يبحث عن عمل».

«وإن كنت تعرف المنطقة ماذا يمكن أن يفعل فتیان بمفردهما في اسكتلندا».

«لقد ذهبت إلى أميركا وروسيا».

«لقد كان معي السيد غروي في أميركا».

«إلى أن هربت أنت وفرجينيا».

اعترض شارلوك: «لقد كان ذلك مجرد حادث. غادر القطار المحطة قبل أن نترجل، وكان مايكروفت معي في روسيا».

«قبل أن يُعتقل».

«ولكن ذلك لم يكن جزءاً من الخطة. على كل حال، كان راف ستون معنا ومدّ لنا يد العون». لمع شيء في رأسه «ما رأيك بأن نطلب من راف ستون أن يرافقنا».

سأل ماتي: «أتظنه يوافق، لا أعتقد أنه على علاقة جيدة مع السيد غروي».

فقال شارلوك: «إنهما كقط وكلب موضوعان في الغرفة ذاتها». فكر لبرهة وتابع: ولكنني متأكد أن شقيقي يدفع لراف ستون لكي يبقى في فارنهام ويتأكد أنني لا أتورّط في مشكلة، فمايكروفت يظن أن بارادول تشامبر سيقومون بأمر ما تجاهي. إذا قلت لراف إنني سأذهب معك إلى أدنبرة فسيضطر لمرافقتنا أليس كذلك؟ إن كان من واجبه الحيلولة دون تورطي بأي أعمال خطيرة فهو لا يملك أي خيار سوى مرافقتنا».

«ألن يمنعك بكل بساطة من أن تستقل القطار؟».

ابتسم شارلوك: «أنت تعرف راف ستون، وتعرف كيف يفكر، إن كان لديه خيار أن يمنعني من الذهاب أو مرافقتي في مغامرة، برأيك أي الأمرين سيختار؟».

اعترف ماتي: «إنك مصيب، متى سنخبره؟».

«دعنا نقوم بتجميع بعض المعلومات. أريد أن أستقصي بعض المعلومات من محطة القطار في فارنهايم، فإن كان السيد غروي وفرجينيا سيتوجهان إلى إسكتلندا فلن يذهبا على صهوة حصان أو بواسطة عربة لأن ذلك سيعرضهما لأخطار جمة، لذا، فهما سيستقلان القطار».

عبس ماتي، وهو يفكر بما تفوّه به شارلوك، وبينما كان ينظر إليه أحس شارلوك بالرابط الذي يجمعه بماتي، لقد أصبح ماتي جزءاً من حياته بطريقة لم يكن يتوقعها، فقد كان ماتي يختلف عنه بكثير من الطرائق: فهو فطري بينما شارلوك منطقي، وماتي عاطفي بينما هو بارد المشاعر، ماتي متهور بينما هو يفكر بخيارات بديلة. ولكنه كان سريع البديهة ووفياً بطريقة رائعة وتساءل إن كان سيبقى دائماً هكذا.

قال ببطء: «إن اشترى السيد غروي تذكرتين لأدنبرة من مكتب فارنهايم، فهو بذلك يترك أثراً خلفه، فإن كان الأميركيين يتتبعانه بإمكانهما السؤال في المكتب ومعرفة إلى أين ذهب».

وافق شارلوك: «ما الذي قام به إذا؟».

هزّ ماتي كتفيه وقال: «لا أعلم».

«ربما سيشتري بطاقتين لوجهة بديلة ربما غيلدفورد، ثم يترجل وفرجينيا قبل هذه المحطة ربما في أش وارف، ومن

هناك يمكنهما شراء بطاقتين إلى أدنبرة، وإذا تبعهما أحد من فارنهام فسيفقد أثرهما في غيلدفورد». قال ماتي: «خطة ذكية».

فأجابه شارلوك: «لو كنت مكانه كنت اشتريت بطاقتين إلى غيلدفورد، وكنت سأترجل في أش وارف وأشتري بطاقتين إلى لندن، ومن هناك أبتاع بطاقتين إلى أدنبرة، وهذا سيقضي على أي أمل بتعقب أثرهما».

«هل أنت متأكد من أنه سيفعل هذا؟».

أوماً شارلوك: «إنه صياد، وهو يعلم الأثر الذي تتركه الفريسة وسيكون حريصاً أن لا يترك أثراً».

«إذاً ماذا سنفعل الآن؟».

«سنذهب إلى فارنهام».

امتطيا حصانيهما وتوجها إلى وسط فارنهام. وكان شارلوك يشعر بالذنب لتركه الكوخ فارغاً ومن دون حراسة. من يعرف ماذا يمكن أن يحصل قبل أن يعود أميوس غروي وفرجينيا. فهو كان متأكداً أنهما سيعودان، وهو سيعمل على تأكيد ذلك.

كان الموظف في مكتب فارنهام رجلاً عجوزاً، وله سالفان أبيضان كثيفان. أكد الموظف لهما أن رجلاً ضخماً يرتدي بذلة بيضاء ويعتمر قبعة، ترافقه فتاة ترتدي ثياباً شبيهة بثياب

الفتيان، ابتاع بالأمس بطاقتين. سر شارلوك أن البطاقتين كانت لغيلدفورد؛ لقد كان مصيباً في توقعاته.

قال ماتي وهو يشير إلى الجهة الأخرى من الطريق: «انظر إلى المنطقة التي تلي مخزن الحبوب». كان هناك حصان يأكل، وكان مربوطاً برسن طويل إلى السياج.

قال ماتي: «إنه سانديا».

فسأله شارلوك: «هل أنت واثق؟».

«كل الثقة».

«على الأقل نحن نعلم الآن أن فرجينيا دفعت لشخص ما ليهتم بحصانها، ولأنها قامت بذلك، فهذا يعني أنهما لم يُخطفا، وكانا يعلمان أن أحداً يسعى وراءهما، وبما أنني أعرف السيد غروي حق المعرفة، فهو سعى لكي يبقى متقدماً عليهما خطوة». شعر شارلوك بأنه أفضل حالاً بعدما توصل إلى هذا الاستنتاج.

«هل سنذهب إلى آش وارف؟».

فكر شارلوك لبرهة، كان ما علما به الآن نقطة إثبات إضافية، ولكنها لم تكن سوى تأكيد على أشياء يعرفها. «لا، دعنا نبحث عن راف ستون، يجب أن نخبره بما سنقدم عليه، وبعدها يجب أن نخبر عمي وزوجته». وتذكر الأحداث التي جرت معهما في وقت سابق اليوم. «أعتقد أنهما لن يعارضا زهابي لأيام عدة خاصة عندما يعرفان أن راف ستون سيكون معي».

استدار ماتي ليذهب، إلا أن شارلوك مدّ يده وأوقفه، فاستدار ماتي مجدداً مستعلماً.
«ماذا؟».

احتار شارلوك كيف سيسأل السؤال وإن كان يجدر به طرحه في الأساس. «هل حقاً كنت تقصد ما قلته سابقاً أن عرى الصداقة تنفصم في الأيام الصعبة عندما تشح النقود؟».

نظر ماتي إلى البعيد، وزم شفتيه لبرهة قبل أن يجيب. «لقد كان لديّ مجموعة من الأصدقاء، وقد تساقطوا - كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف - واحداً تلو آخر عندما ناسبهم الأمر، لذا تعلمت أن الأمور تجري على هذا النحو».

فقال شارلوك: «ليس معي، وليس مع أميوس غروي وفرجينيا».

أوماً ماتي من دون حماس: «في البدء، يمكنني الاعتراف أنك أقنعتني أنهما لم يكونا راغبين بالمغادرة. الآن دعنا نسير، فالوقت يداهمنا».

لقد وجد راف ستون حيث توقعها، في معتزله يتدرب على العزف في العلية. تمكنا من سماع عزفه الخافت من الطريق، فقد كان يعزف موسيقى برية. تسلقا الدّرج، وكلما اقتربا من منزل ستون كان صوت الموسيقى يرتفع، حتى عمّ الأجواء. وجد راف ستون يقف وسط الغرفة بجسده النحيل وهو يعزف بسرعة.

كانت عيناه مغلقتين، وكان يعزف بشدة أكثر مما باستطاعة آله أن تصدر أصوات، وقبل أن ينهي عزفه حوّل الموسيقى البرية التي يعزفها موسيقى متأنقة. لقد تحرك في الهواء كالهلام لجزء من الثانية قبل أن يستعيد سكونه.

قال ماتي: «إنه لحن عنيف جداً».

استدار راف وكشّر في وجهيهما وقال: «هذا لطف منك، ولكن هذا اللحن سيبدو أجمل لو عزّف بالقرب من النار في وسط الغابة، والمشكلة إنه كلما تقدم بي العمر شعرت بالرغبة في المنزل الجاف والدافئ». بدّل نظراته بين الفتيتين وقال: «هناك خطب ما، أليس كذلك؟ أخبراني».

بينما كان شارلوك يخبره الحقائق، كان ماتي يسد النقص الذي ينساه شارلوك، وبذلك أخبراه القصة كاملة. وشيئاً فشيئاً أصبح وجهه كالحاّ ثم أكثر كلوحاً، وعندما أنهيا قصتهما أخبراه بما خَطّطا له فوقف للحظة مفكراً.

سألها أخيراً: «أنتما تنويان التوجه إلى أدنبرة».

أجابه شارلوك: «صحيح».

«ولن تبدلا رأيكما مهما أقل لكما؟».

أجابه ماتي: «صحيح».

تنهد راف ستون وقال: «إن أفضل الأشياء التي أقوم بها عادة احتفاظي بحقيبة جاهزة خلف الباب. لن تكون هذه هي المرة

الأولى التي أغادر فيها فجأة».

فقال شارلوك بهدوء: «الفرق هو أننا سنعود برفقة شخصين».

الفصل السابع

في اليوم التالي كان الثلاثة سيتوجهون إلى أدنبرة. بعد أن تحدث مع راف ستون وأقنعه بمرافقتها كراشد - كانت المهمة سهلة على نحو مفاجئ نظراً للتحضير - توجه ماتي لإجراء الترتيبات الضرورية من أجل إيجاد شخص يهتم بالبرت، بينما توجه شارلوك إلى عذبة آل هولمز كي يتحدث إلى عمه وزوجته. وكما توقع، كانا لا يزالان مذهولين مما حصل ومن النعمة التي حلت عليهما ومكّنتهما من التخلّص من السيدة إيغلانتين واستعادتهما حريتهما الشخصية، وأخبرهما عن الرحلة بصدق وعن الشخصين اللذين سيرافقانه، وتوقع أن يوافقا. ففي السابق أذنا له بالسفر إلى أميركا وروسيا وبالمقارنة بتينك الرحلتين، فأدنبرة لن تعدو كونها في نهاية الطريق.

كان العم شرينفورد على وشك أن ينسف الخطة برمتها، عندما طلب التعرف إلى راف ستون وقال: «إنني لا أستطيع أن أمنح ابن أخي الآن بالسفر إلى ركن قصي من هذه الدولة مع رجل لم يسبق لي أن التقيت به، وأنا لا أعرف شيئاً عنه».

تذكر شارلوك ذوق راف ستون وملابسه البوهيمية والقرط الذي يضعه في أذنه وأسنانه الذهبية، عندها كثر من القلق. لو رأى العم شرينفورد راف ستون شخصياً فسيمنعه من الالتقاء به في فارنهام، فما بالك بالسماح له بالسفر معه إلى إسكتلندا. كان

شارلوك كثيراً يحترم عمّه وزوجته - وهو احترام أساسه الحب الأسري - ولكنهما بالرغم من الحب والاحترام الذي يكنه لهما لم يكونا شخصين متفهمين للآخرين. وكالغريق المتمسك بقشة قال: «إن كان هذا يكفيك أود أن أخبرك أن مايكروفت يعرفه من سنوات عدة، وهو كلفه مهمة تعليمي العزف على الكمان». قال شرينفورد وهو يومئ برأسه: «في هذه الحالة أنا أتنازل عن مطلبي، فشقيقك شخص متبصر وأنا أثق بحكمه على الناس». ونظر إلى زوجته وقال: «إنني أتذكر أن مايكروفت قال عندما شاهد السيدة إيغلانتين للمرة الأولى أن بها خطباً ما، ربما كان يجدر بنا إخباره بما تقوم به، فربما كان باستطاعته مساعدتنا».

فقلت أنا زوجته: «ما مضى قد مضى». وهي تربت يد زوجها وأضافت: «إن الله بحكمته لم يحمّلنا فوق طاقتنا وكل حمل وتجربة يجعلاننا أكثر قوة».

تناول شارلوك العشاء تلك الليلة مع عمه وزوجته، لم يكن الطعام بالجودة المعتادة، فقد تردّد صدى اختفاء السيدة إيغلانتين في المطبخ وكثر القيل والقال، وقد بدا عمه وزوجته مشدودين كالمغناطيس لما حصل، حتى ثرثرة أنا التي لا تتوقف والتي هي عبارة عن انتقادات وتعليقات لم تكن موجودة الليلة. ما إن انتهى من تناول الطعام حتى استأذن شارلوك وتوجه إلى

السريـر، لقد كان نهاراً طويلاً ومنهكاً وهو يحتاج إلى تجديد نشاطه من خلال النوم.

التقى ماتي وشارلوك وراف ستون باكراً في صباح اليوم التالي في محطة القطار، وكان كلٌ منهم يحمل حقيبة ملابس، وغيرها من مستلزمات السفر.

قال راف ستون وقد بدا عابس الوجه: «هذه فكرة سيئة، لقد بدأ حماسي يتبخر كما تتبخر بقعة ماء على أرض جافة. أدنبرة مدينة كبيرة، وما تنوي القيام به يشبه البحث عن نملة محدّدة في وكر للنمل، ولن يكون الأمر سهلاً».

فأجابه شارلوك: «لا شيء قيماً سهل».

ابتسم ستون وقال: «إنها مشكلة».

ابتاع راف ستون البطاقات من فارنهايم إلى لندن، وعندما يصلون إلى هناك فسيبتاعون بطاقات إلى أدنبرة، فقد كان من المحبط والمخرج أن يتركوا أثراً خلفهم بينما أميوس غروي لم يخلّف أثراً خلفه، بالرغم من كل الذعر الذي كان يشعر به. عرض شارلوك أن يبتاعوا البطاقات باستعمال الأموال التي يرسلها له شقيقه مايكروفت، ولكن راف ستون هزّ بكتفيه وقال: «شقيقك يرسل لي راتبي من أجل أن أعلمك العزف، وبهذه الطريقة يمكننا القول إنه هو من دفع ثمن البطاقات، لذا فلا مشكلة في من يدفع أنا أو أنت».

لم يكن هناك قطار مغادر قبل ساعة. لذا اقترح راف ستون أن يشربوا الشاي ويتناولوا الشطائر قبل أن يغادروا. وافق الفتیان بحماسة، وكان أقرب مقهى في الجهة المقابلة من الشارع. وبينما كانوا يتناولون طعامهم حدّق شارلوك من النافذة ورأى رجلين يقفان أمام محطة القطار ويبحثان في الأرجاء. كان أحدهما أسود الشعر وقد ربط شعره على شكل ذيل حصان، بينما كانت بثور الجدری تغطي وجنتي الآخر وجبهته.

سأل راف وهو ينظر إلى الجهة التي كان ينظر إليها شارلوك: «هل هذان الرجلان هما اللذان كانا يبحثان عن أميوس غروي؟».

أوماً ماتی.

راقبوهما وهما يتقدمان من مكتب بيع البطاقات، وطرحا على الموظف سؤالاً، فهزّ رأسه ثم سأل أحدهما سؤالاً آخر ودفعا بالنقود عبر منضدة الموظف الذي اقتطع بطاقتين ودفع بهما نحوهما.

قال راف ستون: «لقد ابتاعا بطاقتين، وهذا يعني أنهما ربما سيكونان معنا على القطار نفسه. ربما هما يعرفان بأمر أدنبرة أو هما ذاهبان للبحث في غيلدفورد، أياً يكن الأمر يجب أن نبتعد عن طريقهما».

أنهوا تناول الشطائر والشاي، ثم اجتازوا الطريق متجهين إلى المحطة. بعد دقائق عدة تحرك القطار على رصيف المحطة، ثم أطلق صوتاً. أسرع الثلاثة واحتلوا مقاعدهم في القطار، وأبقى شارلوك الرجلين تحت أنظاره، ولكنه لم يستطع معرفة أي قطار استقلوا، هذا إن استقلا القطار أصلاً.

لقد أصبح شارلوك معتاداً على رحلات القطار، وأخذ ينظر إلى المشاهد التي تمر بسرعة في الخارج، ولكن لم يلبث أن شعر بالملل. وعندما وصل القطار إلى المحطة الكبيرة التالية، ترقّل منه، وابتاع صحيفة من أحد الباعة عند المنصة، وكانت صحيفة التايمز نسخة لندن. ربما جلب القطار القادم من هناك حزمة كبيرة منها.

عندما عاد من كشك بائع الصحف، لاحظ أن القطار ينفث بخاره غيوماً بيضاً فوق رصيف المحطة. وبينما كان يتجه نحو باب عربة القطار هبت نسمة خفيفة أبعدت الدخان، واستطاع شارلوك أن يشاهد أحد الأميركيين الذي كان قادماً من جهة مكتب البطاقات، ذلك الطويل ذو الشعر المربوط كذيل الحصان، وكان متجهاً نحو صديقه الذي يقف عند باب عربة القطار الخشبي ممسكاً بدرفتيه، فأوماً إليه، وأياً يكن ما يبحثان عنه - وقد توقع شارلوك أن يكون أميوس غروي - فقد بدا الإحباط على وجهيهما.

عاد الأميركيان إلى القطار، وعاد شارلوك إلى العربة الذي نزل منها، وتساءل إن كان الرجلان يعلمان شيئاً عنه وعن رفيقيه. فراف ستون لم يمض وقتاً طويلاً مع أميوس غروي، ولكن شارلوك وماتي كانا رفيقين دائمين لأميوس وفرجينيا ومن المؤكد أن الناس الثرثارين في فارنهام قد شاهدوهما أكثر من مرة. كما أن جوش هاركينز كان يجني المال بسبب هذه الثروة. والاستحصال على المعلومات عن الأشخاص الذين كانوا يمضون الوقت مع أميوس وفرجينيا لم يكن ليكلف إلا بضعة بنسات أو نصف ليتر من الجعة. وإذا كان لدى الأميركيين وصف لشارلوك وماتي فعندها يجب عليهما وعلى راف أن يتوخوا أقصى درجات الحيطة.

صعد شارلوك إلى عربته، بينما كان حارس على منصة القطار يطلق صافرة محذراً الركاب بأن القطار على وشك التحرك، وجلس في مقعده. بدا أن ماتي نائم، بينما كان راف مشغولاً في حفظ بعض النقاط الموسيقية، وكانت أصابعه تتحرك بشكل تلقائي راسمة أشكال النوتات بالهواء. لم يشأ شارلوك مقاطعتها لذا جلس يقرأ الصحيفة.

كانت صفحات الصحيفة مليئة بأخبار السياسة وتقارير عن الأحداث الدولية. وكان باستطاعته سماع شقيقه مايكروفت يذم الصحافيين، ويتحدث عن نقص معلوماتهم عن الأشياء التي

تجري ويكتبون عنها، لم يقرأ شارلوك إلا زبدة المقالات. ذات مرة قال مايكروفت إن قراءة المقالات السياسية هي أشبه ما تكون بقراءة تقرير عن كتاب كتبه أحدهم، ولكن كاتب التقرير لم يقرأ الكتاب بل سمع عنه من الناس في الطريق.

بحث شارلوك في صفحات الصحيفة عن تقارير عن الجيش البريطاني في الهند، ولكنه لم يعثر على شيء. لقد مر وقت ولم يسمع عن أبيه شيئاً، وكان يعرف الوضع المحموم هناك، ولكنه لم يكن قلقاً.

كانت الصفحة الأولى عبارة عن إعلانات شخصية، وكان على وشك تخطيها، عندما التقطت عيناه أمراً غير عادي فأنجذب لقراءته. كانت الإعلانات عبارة عن مقاطع صغيرة تتراوح بين عشر كلمات وعشرين، وُضعت من قبل قراء الصحيفة، الذين كانوا يدفعون المال مقابل نشر إعلاناتهم. وجد شارلوك أن هذه الإعلانات هي بمثابة نوافذ صغيرة على عالم يُرجح أنه لا يعلم شيئاً عنه. «كلب ضائع في منطقة تشلسي يدعى أبانديغوا، سندفع جيداً لمن يعيده حياً أو ميتاً». كان بوسع شارلوك أن يفهم أن أحدهم متعلق بكلبه، ويمكنه أن يدفع المال لأي كان من أجل إعادته، ولكن من هو ذلك الشخص الذي يسمي كلبه اسماً وارداً في الإنجيل، ويرغب فيه وإن كانت ميتاً، لم يكن الأمر منطقياً. وكان إعلان آخر يشير إلى الحاجة إلى خادم بصورة

طارئة، وأن يكون هذا الخادم لديه مراجع مهمة توصي به، بالإضافة إلى إتقانه الأوكارينا؟ يمكنه تفهم حاجة الناس إلى خادم، ولكن أن يكون يجيد العزف على آلة موسيقية صعبة فهذا ما لم يكن يفهمه. كل إعلان شخصي كان يعبر عن شريحة من الناس، ورغب بمعرفة مزيدٍ عن هؤلاء الأشخاص. كانت بعض الإعلانات مشفرة بوضوح، فقد كانت عبارة عن أحرف وأرقام، وحاول أن يستخدم المهارات التي علمه إياها شقيقه وأميوس غروي كي يفك تشفيرها. بقليل من الجهد تمكن من فك تشفير بعض الإعلانات والتي كانت بمعظمها عبارة عن لقاءات سرية بين عاشقين لسبب ما لم يكن باستطاعتهم الالتقاء بشكل طبيعي. ولكن بعض الإعلانات كانت غريبة، وقد جعل أحدها الدم يتجمد في عروق شارلوك فبعد أن فك التشفير كانت الرسالة كالتالي: «جوزيف لامر، ستموت غداً. رتب أمورك واستعد لمقابلة الباري».

ترك شارلوك على مضض صفحة الإعلانات الشخصية قبل أن يصبح مهتماً جداً بها، وأخذ يتصفح الصفحات الأخرى. كانت الصفحتان التاليتان تتضمنان أخباراً عن البلد، وقد شدت إحدى المقالات نظره، وكانت تتعلق بالمنطقة التي يقصدها.

أدنبرة: وُجد رجل الأعمال اللامع السير بنديكت فنثام مقتولاً في منزله بالضواحي، وأفادت الشرطة أن سبب الوفاة هو السم،

وقد ظهر ذلك من خلال التعبير الذي كان يعتلي وجهه ولون لسانه، وأفادت الشرطة أنها على وشك إلقاء القبض على القاتل. لدى السير بنديكت كثير من الأعداء بسبب تصرفاته العدائية في السنوات الماضية. لقد أمضى السير سنواته الأخيرة بخوف شديد، ولم يكن يتناول الطعام إلا إذا أعدته الطاهية التي يثق فيها والتي استخدمها منذ عقدين من الزمن.

أحبطته قلة التفاصيل المذكورة في التقرير، وأخذ يتساءل كيف يمكنه معرفة مزيدٍ عن هذه الجريمة. لم يظن ولا للحظة أن هناك رابطاً بين اختفاء السيد أميوس غروي وهذه الجريمة، فمن المستبعد أن يكون هناك رابط بين مقالة قرأها في القطار وهو يقصد أدنبره وبين سبب وجوده في هذا القطار. فهو أراد أن يعلم عن المكان الذي يقصده لا أكثر ولا أقل. أحد الأشياء التي كررها أمامه أميوس خلال نزهاتهما المنتظمة في الغابات حول فارنهام هي أنه كلما كنت تعرف أكثر عن بيئتك كان باستطاعتك أن تتحكم فيها أكثر. معظم الأشخاص الذين يتوهون في الغابات يكونون جوعاً وعطاش لساعة أو أكثر وليس لديهم فكرة عن كيفية الخروج. بفضل السيد غروي أصبح يعلم أي النباتات صالحة للأكل وأيها يفترض به تجنبها، وكان يعلم كيف يقتفي آثار الحيوانات لكي يعثر على الماء، وأصبح أيضاً يعرف كيف يجد جهة الشمال.

بينما كان يفكر بالبقاء حياً في بيئات غير مألوفة، تذكر وصوله إلى نيويورك منذ سنة. لقد كان مندهشاً بمقدار الصحف التي كانت تُباع على قارعة الطريق، وقد فكر بالأمر الآن، وتساءل كم هو عدد الصحف وتنوعها في لندن، وهل جميعها تطبع الأخبار نفسها؟ على الأرجح لا. فكل صحيفة لديها طريققتها الخاصة، ورأيها الخاص إن كان يريد أن يعرف أكثر عن خلفية هذه الجريمة وتفاصيلها فما عليه إلا شراء أكبر قدر ممكن من الصحف المختلفة، واقتطاع الفقرات المتعلقة بالجريمة منها، وبمقارنتها في ما بينها باحثاً عن الاختلافات في مثل الأمور التي ذكرتها إحدى الصحف وأهملتها صحيفة أخرى.

الآن، كان على بعد مسافة من غيلدفورد، وهو خسر فرصة العودة، وجلب مزيداً من الصحف، لذا ترك ملاحظة ذهنية بأن يجلبها عندما يصلون إلى واترلو.

عندما أنهى قراءة الصحيفة، اقتطع التقرير بحذر منها، وثنى قطعة الورق ثنيات عدة، ووضعها في جيبه وهو يقول إن لم يجد أي جديد فإن مقارنته التقارير المختلفة سيكون تمريناً مهماً.

كان ماتي متقوقعاً في مقعده مستنداً برأسه على النافذة وقد نام بعمق، وكانت عينا راف ستون مغلقتين، ولكن من خلال

حركة يديه تمكّن من الحكم على أنه كان يراجع المقطوعة الموسيقية.

أعاد شارلوك النظر عبر النافذة مجدّداً، ولكن الريف الذي كان يمر بسرعة لم يجذب اهتمامه.

فتح شارلوك حقيبته وأخرج منها كتاباً كان قد اشتراه عن المكياج المسرحي وكيفية تطبيقه لإحداث تأثيرات مختلفة.

ركّز شارلوك في الكتاب وهو يحفظ تفاصيل كيفية وضع مكياج مسرحي بحيث لا يستطيع أي كان أن يميزك ما لم يكن على بعد بضعة إنشات فقط. وتحدث الكتاب أيضاً عن تغيير الوضعيات؛ أي طريقة الوقوف بحيث تبدو أطول أو أقصر مما أنت عليه في الحقيقة. نسي أمر القطار والرحلة إلى أن ارتجّ القطار مصدراً ضجيجاً، نظر ناحية راف ستون فوجده يحدّق إليه.

سأله راف ستون وهو يشير إلى الكتاب: «هل تفكر بالعمل في المسرح؟ إنني لا أنصحك بذلك، كما لا أنصحك بوضع يدك في فم كلب وسحب لسانه. الدفع سيئ، وساعات العمل طويلة، والمجتمع لا يقدر من يعملون في مجال الترفيه. أعرف أنني أمضيت وقتاً أطول مما فكرت وأنا أهتم بالمسارح المظلمة والعزف لمجموعة صغيرة من الجمهور لا يقدرّون الموهبة».

فقال شارلوك بصدق: «إنني لا أعرف ما العمل الذي سأمتهنه عندما أكبر، ولكنني أحببت فكرة قدرتي على تغيير شكلي بحيث لا يستطيع أي كان معرفة من أكون».

قال ستون: «لكي أكون صريحاً في بعض الأحيان أكون مسروراً عندما أتمكن من الهرب من أحد المالكين الغاضبين أو صديقة قديمة لا تستطيع تمييزي».

سأله شارلوك باهتمام: «هل تعرف عن الماكياج المسرحي؟». «في الحقيقة، لقد تعلمت قليلاً من خلال السنوات التي أمضيتها في المسارح أو، لأكن أكثر دقة، الأوقات التي أمضيتها في غرف ملابس الممثلات الحسنات الصغيرات. بالإضافة إلى العمل لصالح شقيقك، فهناك الكثير من التشابه بين التمثيل والتجسس» ابتسم ولكن لم تكن تعابيره تدل على المرح «بالطبع الموت على خشبة المسرح أمام جمهور غير مهتم لا يعادل ألم الموت نتيجة طعنة سكين بين أضلاعك في مدينة غريبة».

سأله شارلوك: «هل يمكنك أن تعلّمني؟».

هز راف ستون كتفيه: «يمكنني التجربة، ولكن يجب أن تمتلك مقداراً من الموهبة الفنية وكثيراً من التدريب. لا يحتاج الأمر تدريباً أكثر من التدريب الذي تحتاج إليه لتعزف على الكمان

بطريقة جيدة، أخبرني ما تريد أن تتعلم، وسأرى كيف يمكنني المساعدة.

أمضيا الوقت الباقي من الرحلة، حيث كان ستون يعطيه الملاحظات عن فنّ المكياج المسرحي. لقد جلب الحقائق الجافة المدونة في كتاب شارلوك، وأضفى عليها بعض المرح، بالإضافة إلى بعض التعليقات حول كيف يبدو الأمر حين يسقط شارب أحد الممثلين أثناء التمثيل. وجد شارلوك نفسه يضحك وفي الوقت عينه يتعلم، ومرّ الوقت الباقي من الرحلة بسرعة.

بدا الوصول إلى واترلو أمراً عادياً لشارلوك. فقد بدت المحطة مع قناطرها الحديدية وألواح الزجاج مشهداً مألوفاً، كما بدا حشد الناس مألوفاً بمعاطفهم السود الطويلة وستراتهم الملونة. قاد ستون الطريق إلى الخارج، وقال من فوق كتفه: «يجب أن نذهب إلى كينغز كروس. الجهة الأخرى من لندن، القطارات التي تغادر من هناك تقصد شمالي البلاد».

نظر شارلوك إلى الخلف من فوق كتفه، وهو يسأل إن كان بإمكانه أن يرى الأميركيين. ولكن إن كانا على متن القطار فهما في الخلف بعيدين عن نظره، وربما بقيا في غيلدفورد يسألان عن رجل ضخم وابنته سافرا قبل يوم أو يومين.

كانت هناك عربة تقف خارج المحطة، تجاهل الحوذي كل الزحام الذي مر عبره، وكان يهز رأسه إلى كل الأشخاص الذي

حاولوا الصعود إلى متنها. توقع شارلوك أن يكون الحوذي ينتظر شخصاً مهماً، وكان يستعد للتحرك عندما مروا بالقرب منه، لكن راف ستون فتح الباب، وبدل أن يلوح له الحوذي بالمغادرة أو يصرخ، قفز من مكانه وأخذ حقيبتة، ثم نظر إلى شارلوك وماتي منتظراً أن يأخذ حقيبتيهما أيضاً.

كان مايكروفت قد أخبر شارلوك بأن لا يصعد إلى أول عربة يصادفها، فربما كانت خدعة أو فخاً لذا تفاجأ من تصرف ستون. ولكن عازف الكمان كان واثقاً من تصرفه، فما كان من شارلوك إلا أن ترك حقيبتة على الرصيف وتبعه وقام ماتي بالشيء عينه. بدا كل شيء واضحاً عندما وجد شارلوك نفسه يجلس وجهاً لوجه مقابل شقيقه مايكروفت هولمز.

قال مايكروفت: «شارلوك أهلاً بك، أرجوك خذ راحتك، وأنت أيضاً يا ماتي ربما يمكنك أن تحشر نفسك إلى جانبي. أعتقد أن المقصورة تكفينا، هذا إذا كنت لا تمانع في حشر نفسك في الجهة البعيدة، ولكن احذر حافة قبعتي».

خاطب شارلوك راف ستون باتهام بينما كانوا يجلسون: «لقد أرسلت تلغرافاً إلى مايكروفت». في تلك الأثناء كان بإمكانهم أن يسمعوا الحوذي يلقي بالحقائب في الجهة الخلفية من العربة.

كان وجه ستون معبراً: «كان يجدر بي القيام بذلك، أنا أعمل لصالح شقيقك، وإن علم بأنني تركتما تتوجهان إلى أدنبره من

دون إعلامه فسأكون سيئاً جداً».

أكد مايكروفت على ما قاله ستون: «إنني أحب أن أعرف كل ما يجري حولي، وإذا اكتشفت أن شقيقي غادر المدينة من دون أن أعلم فسأموت».

عندها قال شارلوك بصدق وإخلاص: «ولكني سأذهب إلى أدنبره».

أوماً مايكروفت: «بالطبع». رفع يده ونقر بعصاه على سقف العربّة وصرخ: «إلى كينغز كروس».

«ماذا؟».

اهتزت العربّة، وبدأت تتحرك مبتعدة عن الرصيف. هزّ مايكروفت رأسه وقال: «هل كنت تظن أن اختفاء أميوس غروي لا يعني لي شيئاً؟ فهو من جهة أقرب الأصدقاء الشخصيين إليّ، ومن جهة أخرى فهو شخص يمتلك قدرات غير طبيعية، كما أنني أكنّ له احتراماً مهنياً كبيراً. وإذا اختفى فجأة فلا بد من سبب، ويجب أن أعلم ما هو هذا السبب. كما أن وجود هذين الأميركيين لا يحمل على الراحة، لأننا لا نعلم إن كانا صديقين أم عدوين. أنا مثلك يا شارلوك مرتبك وهذا مؤلم جداً».

عندها سأله شارلوك: «ماذا بشأنك، هل ستأتي معنا؟».

فأجابه مايكروفت: «أخشى أن أيام سفري أصبحت من الماضي، فرحلة روسيا أقنعتني أن من الأفضل البقاء في لندن، حيث أجد راحتي، وأدع الآخرين يجدون الأجوبة. ولكنني سأقوم بالجزء الخاص بي؛ فيما تبحثون عن السيد غروي وابنته سوف أتعلم عن هذين الأميركيين».

أحس شارلوك بقلبه يغور، فقرار مايكروفت لم يفاجئه، ولكنه كان يشعر بمزيد من الراحة والثقة إن كان شقيقه إلى جانبه.

تابع مايكروفت: «آه، كدت أنسى. تهاني على استنتاجاتك حول الوجهة التي قصدتها السيد غروي، إنني لا أستطيع إلا أن أمتدح منطقك السليم، بالرغم من أنني كنت لأعيب على السيد غروي استخدام رأس أرنب. لا بد أن هناك شيئاً أقل عدوانية كان يمكن أن يستخدمه، وكان احتمال سرقة من قبل حيوان آكل للحوم أقل». جال ببصره في مقصورة العربة وتابع: «أتظن». تأمل وهو يبدل موضوع المناقشة «أنني أستطيع أن أجعل من هذه العربة مصفحة ومنجدة ويغطي السجاد أرضيتها حتى تصبح مكتبي؟ أو ربما نادي دياغيز؟ بهذه الطريقة أستطع السفر براحة من دون التقيؤ الذي يرافق تغيير المكان».

عندها سأله راف ستون مبتسماً: «ولكن من سيحضر لك كوب الشاي صباحاً والشراب بعد الظهر».

فقال مايكروفت: «هذه الأمور يمكننا تدبرها، يمكن أن نتوقف العربدة في أوقات محددة أمام أحد المتاجر حيث سيقوم النذل بتسليمي الصينية عبر النافذة، ويمكنني الحصول على وجباتي وأنا أسير، وهذا يوفر كثيراً من الوقت».

فأشار شارلوك قائلاً: «إذا سمحت بتناول الطعام والشراب في هذه العربدة فستصبح سميناً، وهذا ما سيذهب بكل مميزات أن تمتلك عربدة خاصة، فعندما تصبح سميناً لن يعود بإمكانك الصعود والنزول منها وستصبح مثل الحلزونة المحتجزة في صدفاتها».

أوما مايكروفت معترفاً: «نقطة جيدة». عندها سأل ماتي: «إن كنت لا تريد أن تمنعنا من الذهاب إلى أدنبره فلماذا أنت هنا؟».

«سؤال ممتاز أيها الفتى، والجواب يقودنا إلى صلب الموضوع: أنا هنا كي أرى شقيقي الصغير الذي مر وقت طويل على آخر لقاء لنا، وكذلك كي أحذركم أنت الثلاثة؟

لا شك أنكم فكرتم أن أي شيء يجعل السيد أميوس غروي يهرب من دون أن يكون هناك شيء يتهدد حياته، لا بد أن يكون أمراً جليلاً. كنت دائماً أنظر إلى السيد غروي كشخص لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه، ويمكنكم أن تتخيلوا ما حل بي بعد أن اكتشفت خطأ اعتقادي. إنني مصدوم كمن كان يظن أن القمر

مسطح مثل الطبق، واكتشف أنه كروي مثل الأرض». تنهّد وتابع: «لقد اكتشفت أيضاً أن أدنبره مدينة يشيع فيها العنف. الإسكتلنديون هم من العرق السلتي، وهذا يعني أن أمزجتهم تتحول من السوداوية الاكتئابية إلى الغضب المفاجئ. لا تتوقعوا أن تكون إسكتلندا مثل لندن أو فارنهام بالرغم من أنكم لن تجتازوا مياهاً باستثناء نهر تايين بالطبع، وبالرغم من أن الناس سيتكلمون الإنكليزية بطريقة ما، بالرغم من كل ما تقدم، يجدر بكم التعامل مع اسكتلندا على أنها بلد غريب». مدّ يده وقدم مغلفاً وقال: «لقد سمحت لنفسني بأن أقوم بترتيبات سفركم، ستجدون في هذا المغلف بطاقات القطار، بالإضافة إلى عنوان الفندق الذي حجزت لكم فيه، أرجو أن تبقوني على إطلاع على كل ما تكتشفونه. إنني آسف أن أقول لكم إنني لا أملك عملاء في أدنبره، فلو كان لدي مثلهم، لكلفتهم بالبحث عن السيد غروي وابنته وأبعدتكم عن المخاطر المحتملة».

عندها أخذ شارلوك المغلف وقال له: «شكراً لك، لكن مايكروفت...».

«نعم يا شارلوك».

توقف لبرهة قبل أن يتابع: «أعتقد أنه يجب أن تعلم أن السيدة إيغلانتين تركت العمل في منزل العم وزوجته».

حدّق مايكروفت وقتاً طويلاً إلى شارلوك وقال متمتماً: «حقاً، وهل كان لك دور في انقلاب حظ هذه المرأة التعيسة».

عندها قال ماتي بفخر: «كان له كل الدور، وقد ساعدته أنا». «يجب عليك أن تخبرني القصة بأكملها عندما تعود». حدّق مايكروفت إلى شقيقه، وبدأت النظرة غريبة، فقد بدا وكأنه شخص مألوف جداً وغريب في الوقت نفسه وقال: «إنك تمتلك موهبتي نفسها بإخراج الأزهار من البذور». وتابع بعد أن توقف: «ولكنك تمتلك ميزة خاصة تتمثل بأنك تحب الأزهار وتستطيع تمييزها عن النباتات الضارة، إنني أقدر فيك ذلك عالياً».

أشاح شارلوك بنظره بعيداً، وأحس بشيء ما عالق في حنجرتة، وأخذ ينظر إلى المباني التي تظهر عبر النافذة ريثما تمكن من إعادة السيطرة على مشاعره.

عندها أعلن مايكروفت: «سأرسل لأمي أطلب منها أن تدعو العم وزوجته كي يمضيا معها أياماً عدة، لا بد من إعادة وصل ما انقطع بين العائلتين، وعندما يعود أبي من الهند يجب أن تكون الأمور السابقة قد أصبحت طي النسيان».

عندها سأله شارلوك بتردد: «هل أمي على خير ما يرام؟». قال مايكروفت وهو يضم شفثيه بشكل لإرادي: «لديها بعض الأيام الجيدة وبعض الأيام السيئة، ولكنها بشكل عام تتحسن». «وماذا بشأن إيما؟».

«شقيقتنا جيدة، إنها على حالها» قال مايكروفت بطريقة ملغزة «لنتركها الآن وشأنها».

انحرفت العربية بشكل مفاجئ إلى طريق فرعي، وتوقفت بالقرب من الرصيف. سمع شارلوك صوت الحوذي وهو يتوجه نحو المكان الذي وضع فيه الحقائب، وبعد لحظات فُتح الباب. أعلن مايكروفت قائلاً: «لقد وصلنا كينغز كروس، وإذا كانت معلوماتي صحيحة عن بردشو ريل تايم تايبيل فإن قطاراً سيغادر إلى أدنبره بعد حوالي ساعة».

عندها قال راف ستون: «شكراً لأنك وافيتنا، وشكراً من أجل البطاقات وترتيبات السفر». فاجابه مايكروفت: «اعتنِ بشقيقي». ثم حذق إلى ماتي وقال: «وإذا لم تواجهكم مصاعب جمّة اهتم بهذا الفتى أيضاً فشقيقي يحبه».

«أنت رجل غريب ومسلّ، ولكن شكراً لك لأنك سمحت لنا بالذهاب».

حوّل مايكروفت نظرتة نحو شقيقه ومدّ يده قائلاً: «أرسل لي برقية عندما تستطيع، إلى نادي دياغنيز، وأعلمني كيف تجري عملية البحث، واهتم بنفسك. اهتم بنفسك جيداً، إنني أعاني من أوقات صعبة مع ألم عظامي ولا أريد أن أثقل عليك».

ترجل الثلاثة من العربة، وأغلق الحوذي الباب، وصعد إلى مكانه. سمع شارلوك صوت عصا مايكروفت تنقر على سقف العربة، وصوت شقيقه الخافت يقول: «إلى أدميرال أرتش أيها الرجل». وأخذت العربة تبتعد مغادرة المحطة. قال ماتي: «أصبحنا بمفردنا».



الفصل الثامن

كانت محطة كينغز كروس شبيهة جداً بواترلو - مساحة كبيرة ممتلئة بحشد من الناس المنتظرين، والحمامات تجثم على الحديد الصلب وتكسو زجاج السقف. وكان الهواء مشبعاً بالدخان برائحته الكبريتية الناتجة عن إحراق الفحم، والجدران والسقف مغطاة بطبقة رقيقة من السخام.

جال شارلوك بنظره في الأرجاء، وأخذ يتساءل عن جدوى سؤاله إن كان أحد قد شاهد رجلاً ضخماً، يرتدي بذلة بيضاء ويعتمر قبعة، مع فتاة صغيرة، في غضون اليومين السابقين. في النهاية، وجد شارلوك أن سؤال الناس المنتظرين لن يجدي نفعاً، كما أن احتمال وجودهم في المحطة في الوقت عينه الذي يوجد فيه أميوس وفرجينيا كان ضئيلاً جداً. ولكنه فكر أن سؤال موظفي مكتب بيع البطاقات أو رجال الأمن أفضل. كما فكر، وهو يمسخ جدران قاعة الوصول والمغادرة، بالتحدث إلى المتسولين أو النشالين الذين كانوا يتحركون كالأشباح بين الحشد. وهم لم يكونوا مرئيين أو منظورين إلا عندما تسمع أحدهم يصرخ: «ليس معي ستة بنسات، وحتى لو كان معي فلن أعطيك إياها» و«محفظتي أين محفظتي؟». فالمتسولون والنشالون كانوا هنا على الدوام ليلاً ونهاراً، فالمحطة هي مكان عملهم ومسكنهم أيضاً.

أوقف نفسه قبل أن يصل إلى أحد المتسوّلين ليعرض عليه ستة بنسات مقابل معلومات عن أميوس غروي وفرجينيا. لأنه تذكر ما أخبره به أميوس منذ فترة عن مشكلة محاولة إيجاد تفسير لما تعرفه. فهو كان يعلم أن أميوس وفرجينيا متجهان إلى أدنبره، ومراً بمحطة كينغز كروس. فإن أكد له المتسوّل أنه رأى رجلاً وفتاة بمواصفات أميوس وفرجينيا فهذا لن يزيد أي شيء، ولكن إن قال له المتسوّل أنه لم يرهما فهذا لا يعني أنهما لم يمرا بالمحطة بل يعني أنه لم يرهما، فلا يفترض بالمستعطي أن يتذكر أو يرى كل شخص مر بالمحطة. لقد قال له أميوس سابقاً ليس من الحكمة البحث عن تأكيد لما تعرفه بل الحكمة تكمن في إيجاد ما يثبت عكس ما تعرفه.

فإيجاد إثباتات تؤكد نظريتك عديمة الجدوى، ولكن إيجاد إثباتات تؤكد عدم صواب نظريتك فهذا ما لا يقدر بثمن. لا تسع على الإطلاق لكي تثبت صواب معلوماتك بل اسع إلى إثبات خطأ معلوماتك.

المعضلة في هذه الحالة كانت أن إثبات شارلوك لنظريته عن سفر أميوس وفرجينيا عبر محطة غير كينغز كروس، كانت تفترض به هدر نهار كامل من خلال البحث في محطات مثل بادينغون، أوستون، ليفربول وغيرها من المحطات الرئيسية، وهو لم يكن يمتلك الوقت.

قال راف ستون وهو يصفق فوق كتف شارلوك: «تبدو مستغرقاً في التفكير».

أجابه شارلوك: «كنت أفكر في معضلة، فقد كنت أتساءل إن كان يجدر بي السؤال عن السيد أميوس غروي، ولكنني أظن أن سؤالاً كهذا سيعقّد الأمور بدل أن يحلها».

أوما ستون موافقاً: «حتى لو ابتاع السيد غروي بطاقة من هنا، فهي لن تكون إلى أدنبره، فهو سيسعى لاتباع طريقة التمويه التي سبق أن اتبعها في فارنهام» نظر ستون حوله وقال: «لدينا بعض الوقت قبل أن يغادر القطار، ومعدتي تظن أن حنجرتي قد قطعت في غفلة منها، لذا لم تمرر لها الطعام منذ حين، دعنا نجلب بعض الطعام ونتوجه إلى القطار، سيكون الطعام على نفقتي».

لقد كانت كلماته في محلها، وجد ستون بائع كستناء يقف عند أطراف الحشد فابتاع منه ثلاثة أكياس من الكستناء الساخنة، ووجب عليه وعلى شارلوك أن ينفخا عليها من أجل تبريدها حتى يستطيعان التهامها، بعكس ماتى الذي بدا وكأن لديه حنجرة مبطنة بالآجر، فقد كان يلتهمها بكل راحة ومن دون أن يعتمد إلى تبريدها وبدا مستمتعاً بها.

بعد أن أنهى الثلاثة طعامهم قادهم ستون عبر الحشد نحو رصيف محطة القطار حيث أبرز البطاقات للحارس، وصعدوا إلى

القطار. بكل الاحترام والتقدير الذي يستطيع شارلوك أن يراه،
بدا الأمر متطابقاً لما كانت عليه الحال من فارنهايم باتجاه
واترلو.

قال ستون: «ستكون رحلة طويلة» بينما كان يجلس في
مقعده الصغير الخاص وتابع: «أريحا نفسيكما وخذا قسطاً من
النوم، هناك أمران يجب على الرجل الحصول عليهما عندما تكون
الفرصة متاحة؛ النوم والطعام، فهو لا يعرف متى ستتاح له
الفرصة مرة أخرى للحصول عليهما». ونظر إلى شارلوك وتابع:
«فكرت لو أنني جلبت الكمان معي لكننا تابعنا الدروس».

تمتم ماتى قائلاً: «في هذه الحالة وبما أن الصوت سيكون
مرتفعاً جداً كنت سأستقل قطاراً آخر».

حدّق إليه راف ستون وقال: «إنني افترض أن ذائقتك
الموسيقية لا تتجاوز الصغير بواسطة علب الصفيح وإصدار
الأصوات بأدوات الإيقاع».

فأجاب ماتى: «لا تنتقد الصغير بواسطة العلب الصفيحية،
فهناك نغمات جيدة تنبعث من خلال الصغير عبر العلبة
الصفيحية كما أن الأدوات الإيقاعية ضرورية للرقص». وحدّق
إلى راف بعدائية وتابع: «أليس كذلك؟».

اكتفى ستون بهزّ رأسه متظاهراً بالحزن ولم ينبس ببنت شفة.

أما شارلوك فقال: «في الحقيقة إنني أريد التحدث مجدداً عن المسرح وعن مكياج التخفي وأشياء من هذا القبيل». أوما ستون: «إنني أحب الحديث عن هذا الموضوع، فأنا بذلك استعيد ذكرياتي عندما كنت أمثل على خشبة المسرح، وادفع بالرمح في ظهر أحدهم في أحد المشاهد المهمة أو أعزف مع الأوركسترا بينما يظهر الممثلون براعة أدائهم». رفع حاجبه بسخرية وقال: «يبدو أن لديك حباً جامحاً للتمثيل وأعمال التجميل المسرحي. هل يمكنني أن أعرف السر الكامن وراء هذا الحب؟».

هزّ شارلوك كتفيه وهو يشعر بعدم الراحة في الحديث عما يحبه وقال: «أعتقد أنني أرى الأمر مثيراً للاهتمام». نظر إليه ستون متوقفاً منه أن يقول شيئاً، وبالفعل تابع قائلاً كي يحطم جدار الصمت: «إن كنت حقاً تريد أن تعرف السبب فيمكننا أن نعيده إلى الفترة التي كنت فيها في موسكو، حيث قضيت ثلاثة أيام مع سبعة أو ثمانية أشخاص، ولم أستطع التعرف إليهم، في الحقيقة لم أستطع تمييز أي منهم». أحس بوجنتيه تحمران فجأة نتيجة خليط من الغضب والإحباط. وهو لم يكن يدرك مقدار الألم الذي تركه هذا الأمر فيه إلا عندما تحدث عنه وقال متابعاً: «كنت معروفاً بأنني مشاهد دقيق، وقد قال أميوس

غروي إنني موهوب في التقاط التفاصيل الصغيرة، ولكنهم خدعوني، خدعوني حقاً».

فعلق ستون على ما قاله: «كانوا أفضل منك، ليس في الأمر ما يدعو للخجل، أنا لست أفضل عازف كمان في العالم ولن أكون، ولكنني عازف جيد وسأستمر بالتحسن».

أجابه شارلوك بهدوء: «ولكنني أريد أن أكون الأفضل، أريد أن أكون أفضل عازف كمان كما أود أن أكون أفضل مقتفي آثار حيوانات وأفضل من يجيد فن التخفي، إن لم يكن باستطاعتي أن أكون الأفضل فما جدوى المحاولة؟».

هزّ ستون رأسه وقال: «سترى الحياة محبطة جداً يا صديقي، محبطة جداً».

عمّ الصمت أرجاء عربة القطار لبرهة، ثم بدا راف ستون معتذراً، وأخذ يخبر شارلوك قصصاً عن أيامه الأولى في المسرح وخصوصاً عن الممثلين الذي كانوا بارعين إلى حدّ أنهم كانوا يتلبّسون الشخصية حتى يخيل إليك أنها جزء منهم. قال ستون: «الأمر هو أنك إن لم تكن مقتنعاً وأنت تمثل أنك رجل عجوز أو امرأة أو متسوّل فكيف تفترض أن يقتنع الآخرون؟ التنكر الخارجي هو الجزء الذي يظهر ولكن التنكر الحقيقي هو الذي يتمثل في تلبّس الدور».

سأله شارلوك: «ولكن كيف يمكنني القيام بهذا الأمر».

«إذا كنت تحاول تجسيد شخصية حزينة تذكرُ أمراً حدث لك في الحياة ودفعك إلى البكاء، وإذا كنت تحاول تجسيد شخصية فرحة تذكرُ شيئاً جعلك تضحك، وإذا كنت تجسد دور متسوّل تذكرُ الأوقات التي كنت فيها متعباً وجائعاً ومتسخاً». ابتسم وتابع: «إذا أردت أن تجسد دور الشخص المعجب تخيل أنك تنظر إلى وجه شخص تهتم لأمره، بهذه الطريقة سيقوم وجهك وجسدك باتخاذ الوضعية المناسبة من دون لجوئك إلى المبالغة، وتذكر دائماً أن تستغل عدم انتباه الناس».

عبس شارلوك وسأل: «ماذا تعني بقولك هذا؟».

«أعني أن الناس ينظرون إلى ما يتوقعون أن يروه فهم لا ينظرون إلى كل تفصيل موجود بالأشخاص الذين يشاهدونهم في الطريق». أغمض عينيه ومزّ ر يده عبر شعره وقال: «كيف يمكنني شرح الأمر؟ الأمر مثل الخلفية المسرحية، إن كنت تريد أن يعتقد الناس أن المسرحية تدور أحداثها فعلاً في الصين، فأنت لن تمضي الأسابيع في رسم خلفية تظهر قصراً أو قلعة أو قرية صينية فالناس يظنون أن ما ينظرون إليه هو واقعي، يجب عليك أن ترسم بعض التفاصيل، مثل سقف مقعر وبعض الخيزران وستقوم عقول المشاهدين بملء الباقي، فالعقول تقرر بسرعة ما الذي تراه وما تريد أن تبقى خارج نطاق الرؤية، استند على زوجين من الأمور الحقيقية التي تلفت انتباه

المشاهدين، وبعدها سيأخذون الصورة إلى ما هو مخزن في ذاكراتهم، ويضعون الصورة في مكانها الصحيح. فإذا كنت تريد أن تبدو متسوّلاً لا يفترض بك أن ترسم وجه متسول وملابسه وشعره. فهذا سيجعل الأمر مبالغاً فيه، لذا يكفيك أن تركّز على بعض الأمور الأساسية وتدمجها بالخلفية، هل تفهم ما أرمي إليه؟».

«أعتقد ذلك».

عرض ستون بعض الأمثلة الإضافية، وتحدثا لبعض الوقت. ولكن، المناقشة انتهت بصمت، عندها وجد شارلوك نفسه ينظر إلى الخارج عبر النافذة. لقد أتت البلدات وذهبت والحقول أيضاً، وبالتدريج بدأ المنظر الطبيعي يتغير عما اعتاد رؤيته في جنوب إنكلترا، حتى الأبقار بدت مختلفة، وأخذت تبدو بنية مبقّعة بدل أن تكون بيضاً أو سوداً، وبدت الثيران بقرونها الأمامية مثيرة للاهتمام. وقد مر القطار مرة أو مرتين فوق جسور تعبر أنهاراً عريضة وتذكّر شارلوك المنصات الخشبية التي تشبه الجسور التي اجتازها برفقة ماتي وفرجينيا عندما كانوا في أميركا يهربون من دوك بالتازار.

فرجينيا، حتى التفكير باسمها يجعله يشعر بتشنج في قلبه، إنه لا يستطيع إنكار أنه يشعر تجاهها بمشاعر جياشة لم يسبق له أن شعر بمثلها تجاه أيّ كان سابقاً، ولكنه لا يستطيع أن يعرف كنهها،

أو ماذا تعني، وشدة هذه المشاعر ترعبه، فلم يسبق له أن شعر أن أحدهم جزءاً من حياته؛ فطوال حياته كان بمفرده سواء في المنزل أو المدرسة، وهو يكره أن يعتمد على أحد. ولكن، هذه هي حقيقة مشاعره الآن، ولا يستطيع تخيل حياته من دونها، بأي شكل من الأشكال.

توقف القطار في نيوكاسل كي يتزوّد بالمياه والفحم، واستغل الثلاثة الفرصة من أجل مدّ سيقانهم على رصيف محطة القطار وابتاعوا ما يمكن تناوله من خلال أكياس ورقية. لقد ابتاعوا الآن تفاحاً ملفوفاً بالعجين ومطهواً وقد كان التفاح شديد الحرارة وكانت تتصاعد منه أبخرة بدت لهم نموذجاً مصغراً من البخار الذي يطلقه القطار.

بعد برهة، توجه شارلوك إلى مقعده المخصّص في القطار بالرغم من أن القطار كان لديه بضع دقائق قبل أن يغادر، فهو لم يرغب بالابتعاد عن منصة رصيف القطار. لم يفهم فكرة القيام بالتمرين لمجرد التمارين، ارتاح في مقعده المنجّد وأخذ يحدّق إلى الجدار المقابل، ويحدّث نفسه كم هو ممل السفر بالقطار بعكس السفر الطويل بالبحر، ففي البحر هناك كثير من الأمور التي يمكنك القيام بها بالرغم من أن المشهد لا يتغير بمقدار تغيير المشاهد في القطار. فالسفن فيها مكتبات، وغرف للعب، ومقاهٍ وجميع وسائل التسلية، بعكس القطار.

بينما كان يحدق إلى الجدار ويحصي الدقائق التي تفصل
القطار عن مغادرة المحطة لاحظ شيئاً فشيئاً أنه مراقب، لم يكن
هناك من أمر غير طبيعي جعله يصل إلى هذا الاستنتاج، فهو لم
يشعر بارتجاف في عموده الفقري مثلاً، بل كان الأمر أكثر ابتذالاً
بكثير، فقد لاحظ بقعة حمراء في طرف حقله البصري لا تتحرك،
وكان الوجه ذا عيين زرقاوين لا ترمشان تحدّقان إليه.

من دون أن يترك انطباعاً لدى الشخص الذي يراقبه بأنه
لاحظه، كأن يحرك رأسه فجأة، حاول أن يستغل الوقت بتجميع
التفاصيل، كان جسد المراقب مخفياً قليلاً خلف كدس من اللعب
في عربة النقل. ولكن عندما جمع المعلومات التي يريدها من
دون أن يلاحظ من يراقبه أنه اكتشف أمره، حدق إليه بشكل
مباشر وما رآه جعل قلبه يتوقف عن النبض.

لقد كانت صورة السيد كايت، الشخص الذي تعرف عليه
شارلوك كمثل ومدير شركة مسرح في وايت تشابل، ولكنه
اكتشف لاحقاً أنه عميل لبارادول تشامبر، وكان متورطاً بمؤامرة
اغتيال الروسي صديق مايكروفت. كان ضخماً مثل دب وكان
صدره بشكل برميل وحجمه، وكان شعره الأحمر يصل إلى حدود
ياقته، أما لحيته الحمراء فكانت كشلال من الصدا. كان آخر مرة
شاهده متورطاً في عراك مع راف ستون في عربة في أحد

شوارع موسكو، ولكنه تمكّن من الفرار من بين يدي راف بعد أن تركه مدمى وهو يطلق الشتائم.

تذكر شارلوك أن البشرة التي تحيط بعيني كايت وتغطي وجنتيه كانت مغطاة بمئات الجروح التي بدت كجروح ناتجة عن حلاقة شعر الذقن. ولكنها كانت موجودة في أماكن لا ينمو فيها الشعر. وبالرغم من زجاج النافذة الملطخ الذي يفصل بينهما تمكن شارلوك من رؤية هذه الجروح. لقد كان السيد كايت من دون شك.

حدّق كايت إلى عيني شارلوك لبرهة ولكنه لم يبتسم أو يومئ أو يقوم بأي شيء يدل على أنه رآه. بعد ثوانٍ عدة تراجع ببطء، واختفى في ظلال منطقة التخزين في وسط رصيف القطار. شعر شارلوك بقلبه ينبض بسرعة وبأنه لا يستطيع التنفس.

كان يفترض به إخبار راف ستون، وكان يجدر به إخبار شقيقه مايكروفت. فهو لم يكن يعلم إن كان ظهور السيد كايت يشير إلى تورط بارادول تشامبر باختفاء أميوس غروي، أم أنهم يلاحقون شارلوك لأنهم يلقون باللوم عليه لأنه عرقل مخططاتهم أم أن الأمر محض صدفة. ولكن حقيقة وجود السيد كايت هنا يراقبه، أو يراقبهم، كانت تعني أن الأمور تغيرت والوضع لم يعد كما كان قبل عشر دقائق.

أطلق القطار صافرة أعادت أفكار شارلوك إلى المسار. كان القطار على وشك الرحيل، وكان على وشك مغادرة مقعده عندما لاحظ أن راف وماتي لم يعودا، ولكن لم يلبث باب المقصورة أن فُتح ودخل منه من ماتي وهو يحمل فطيرة. سأله: «ما الأمر؟ تبدو كمن شاهد شبحاً؟». «أين راف؟».

عبس ماتي: «ظننت أنه عاد، كان يتقدمني بحوالى دقيقة». ألقى بالفطيرة في الهواء قبل أن يلتقطها مجدداً. وتابع قائلاً: «لقد رأيت كدساً من هذه الفطائر في أحد الأكشاك في الخارج، ولكن الرجل الذي يبيعها تلهى بامرأة تمر أمامه ما أتاح لي فرصة لسرقتها».

«ولكن» بدأ شارلوك بالتكلم قبل أن يتوقف، فلم يكن الوقت الآن مناسباً للحديث، فدفع ماتي وتوجه مغادراً المقصورة، وعبر الممر في المقصورة كان هناك أبواب تؤدي إلى رصيف محطة القطار.

كان الركاب يغادرون الرصيف عائدين إلى القطار، ولكنه لم يجد أثراً لراف ستون.

أصدر القطار صافرة أخرى، وفي غضون لحظات كان الرصيف خالياً إلا من الحارس الذي كان يجول بعينه ذهاباً وإياباً منتظراً أن يلوّح بالعلم.

حدّق شارلوك إلى اليمين واليسار، ولم يكن راف ستون في مجال رؤيته، أراد شارلوك أن يقفز من القطار وأن يبحث عن راف ستون في المحطة، لكن القطار كان على وشك التحرك، ولكن ماذا لو كان راف ستون قد صعد إلى مقصورة أخرى وهو يسير الآن عبر القطار؟ في هذه الحالة سيكون هو من ضاع في المحطة وهو يعلم أن بارادول تشامبر تراقبه.

ولكن من المحتمل أن تكون بارادول تشامبر قد ألقت القبض على راف ستون، فمن الواضح أن هناك أموراً لم تصل إلى خواتيمها بين ستون وكايت.

اهتز القطار، وأخذت مقصورة الدفع تبتعد عن الرصيف ساحبة خلفها المقصورات، وفي غضون لحظات، كانوا يبتعدون عن المحطة مغادرين المدينة ومتجهين نحو الريف.

عاد شارلوك إلى مقصورته، ووقف خارجها، وأخذ ينظر إلى اليمين واليسار عبر الممر، وهو يأمل أن يرى ستون يسير بطريقته المغيظة. بعد خمس دقائق كان يجب عليه أن يعترف أن ستون لن يظهر، وهو لا يزال في محطة نيوكاسيل وسجيناً لدى بارادول تشامبر على الأرجح.

عندما دخل شارلوك مجدداً إلى المقصورة سأله ماتي: «ما الأمر؟». كان حزن ماتي مغطى بفتات الفطيرة وسأل: «أين السيد ستون؟».

أجابه شارلوك بوجه كالح: «أظن أنه بقي في المحطة». «لماذا هل التقى فتاة، فهو زير نساء والأمر غير مستبعد». هزّ شارلوك رأسه وقال: «أظن أنه التقى بارادول تشامبر». تغيرت ملامح وجه ماتي من هول الصدمة وقال: «ماذا تقول، أتقصد أولئك الذين يعمل معهم البارون الفرنسي؟». «وأولئك الذي اتهموا مايكروفت بجريمة القتل، وحاولوا اغتيال صديقه في موسكو».

«وماذا كانوا يفعلون في محطة القطار؟».

أجابه شارلوك وهو يشعر بقواه تخور ولا يعلم ما يجب عليه القيام به: «كانوا يتبعوننا. لا يمكننا التوقع ونحن هنا، والتوقعات أسوأ مصدر للحصول على المعلومات لأنها قد تقودنا إلى طريق خاطئ».

«وماذا سنفعل الآن؟».

توقف للحظة وفكر قبل أن يقول: «سنتابع طريقنا إلى أدنبره، وإذا أتى حارس القطار، سنخبره أننا فقدنا صديقنا في نيوكاسيل، ونحن قلقون من أنه تعرض لحادث، وسيقوم بإرسال رسالة من إحدى المحطات التي سنتوقف فيها، وعندما نصل إلى أدنبره سنتوجه إلى الفندق الذي حجز لنا فيه مايكروفت، وإذا تمكن راف ستون من تدبر أمره مع بارادول تشامبر أو أيّ يكن

الذي اختطفه، أو إذا كان هناك أي تفسيرات بريئة لاختفائه، فهو يعلم أين سنكون».

عاد شارلوك إلى مقعده، وجمع ذراعيه بشكل مستعرض، ووضع ذقنه على صدره. حدّق إليه ماتي لبرهة قبل أن ينظر من النافذة. بالرغم من وجود ماتي معه لم يسبق لشارلوك أن شعر بالوحدة وباليأس كما يشعر الآن.

بعد برهة قال ماتي بصوت بالكاد مسموع: «يمكننا العودة إلى المنزل».

لقد سبق لشارلوك أن فكّر في الأمر قبل أن يبعده عن ذهنه. وأجابه: «صحيح يمكننا العودة ولكننا بذلك لن نساعد أميوس غروي ولا فرجينيا ولا حتى راف ستون. أضف إلى ذلك أن بارادول تشامبر يعرفون أين نعيش، لذا فرهاننا الأفضل هو التوجه إلى أدنبره حتى تنتظم الأمور».

«مثل السيد غروي وفرجينيا فهما أطلقا سيقانهم للريح وهربا».

لم ينظر شارلوك إلى ماتي ولكنه قال: «أنا أعلم، ولكن كم أتمنى لو أنني أعرف لماذا، لا يمكنني أن أتخيّل ما هو الشيء الذي جعل السيد غروي يهرب بدل أن يدافع عن أرضه».

في نقطة ما غادر القطار إنكلترا وأصبح في إسكتلندا. ولكن إن كان هناك من لافتة تشير إلى انتهاء الأراضي الإنكليزية وبدء

الأراضي الإسكتلندية فما من شك أن شارلوك أغفلها.
لقد أصبح القطار يجتاز المحطات بسرعة، حتى إن أسماء تلك
المحطات بدت مختلفة عن المحطات الإنكليزية، وكان المشهد
الطبيعي أكثر برية والتلال شديدة الانحدار، والسماء ملبدة
بالغيوم.

أخيراً، ظهر جامع البطاقات، فشرح له شارلوك أنهما خلفا
صديقهما في نيوكاسيل، فتأتا جامع البطاقات مرات عدة، وقال
إنه سيخبر مدير المحطة التالية التي سيتوقفون فيها فربما
كانت هناك رسالة من نيوكاسيل وسيقوم أيضاً بإرسال رسالة
إلى نيوكاسيل. أدرك شارلوك أن الوقت قد فات وستذهب جهود
جامع البطاقات هباء منثوراً.

بدأ الوقت يسير ببطء، وما لبث أن أتى جامع البطاقات،
وأخبرهما أن لا معلومات عن راف ستون، وشعر شارلوك بمزاجه
يصبح أكثر سوءاً. أخيراً، حدّق من النافذة، ولاحظ بأنه أصبح
يرى منازل أكثر من السابق، ولكنه لاحظ أيضاً أنه بدل أن تكون
مشيدة بالآجر كانت مبنية من الحجارة الكبيرة، وهذا ما أعطاه
انطباعاً بأنها دائماً أكثر متانة من البيوت الآجرية. كانت الشمس
تقترب من الأفق، وترسل أشعتها البرتقالية عليهم. بدأ القطار
يخفّف من سرعته، وأطلق صافرة التوقف. كانت اللافتة المعلقة
عند المحطة تشير إلى أدنبره.

عندها قال ماتي ببساطة: «لقد وصلنا».

غادرا القطار، وأخذا حقائبهما وحقيبة ستون. ما إن غادرا القطار حتى سحب شارلوك ماتي جانباً، وهما ينتظران مغادرة الركاب الآخرين فربما سيتمكنان من رؤية أحد يعرفانه مثل كايت أو ستون.

كانت المحطة تغص بحشد من الناس يرتدون تشكيلة واسعة من الملابس وبعضهم يرتدي سترات ذيلية أو سترات من التويد، وقد دهش شارلوك عندما وجد بعض الرجال يرتدون تنانير. لاحظ ماتي الدهشة التي علت وجه شارلوك، فقال له: «عذراً، ربما كان يجدر بي إخبارك أنني أصبت بالدهشة مثلك عندما أتيت إلى هنا قبل عدة سنوات».

«رجال يرتدون تنانير؟! ربما فكرت أنني لن ألاحظ الأمر؟».

قال ماتي بحزم: «هذه ليست تنانير إنها كلتيات».

«كلتيات!؟» حاول شارلوك تبسيط هذه الكلمة غير المألوفة.

«إنها قطعة ثياب تقليدية يرتديها الذكور من القبائل الإسكتلندية». استنشق قبل أن يتابع: «القبائل هي اسم آخر للعائلة. كانت هذه القبائل تتقاتل بشكل دائم بعضها مع بعض، قبل أن تقرر أن تحل السلام فيما بينها وتجتمع على شيء واحد هو كره الإنكليز. ربما كانت الكلتية تساعدكم وقت القتال وتسهل حركتهم، وربما كان لها دور آخر، لكنني يمكنني أن أخبرك أن

الكتليات تختلف ألوانها باختلاف قبيلة الشخص أي أن لكل قبيلة لون كتلية خاصاً بها».

عندها قال شارلوك مفترضاً: «وبذلك يضمن الشخص أنه لا يتقاتل مع شخص من أبناء قبيلته أو قريب له لا يعرفه».

أجابه ماتي: «ربما».

أدخل شارلوك المعلومة في رأسه، وقال تنانير مختلفة الألوان تعني قبائل مختلفة، يستحق الأمر بعض الاستقصاء. وفكر في نفسه: إن التقيت رجلاً في لندن فما من طريقة لتعرف اسمه وعائلته إلا من خلال سؤاله، إلا أن الأمر مختلف في أدنبره فمن السهل أن تعرف أنه من عائلة ماكدونالد. حسناً من الجيد معرفة هذه المعلومة.

عندها سأله: «هل هناك من شيء آخر يجدر بي معرفته؟».

«إن الحقيقة التي تتدلى من الكتلية تدعى سبوران؛ وهي تُستخدم من أجل وضع الأشياء كالنقود، وعندما تشاهد رجلاً إسكتلندياً يرتدي الكتلية فهناك احتمال أنه يحمل سكيناً صغيرة مخبأة في جوربه، وهي تدعى ديرك».

«شكراً لك». تابع شارلوك النظر حوله. كثير من الحوارات كانت تجري حوله، ووجد صعوبة في فهمها فقد كانت اللهجة صعبة عليه. لقد اعتاد شارلوك على اللهجات المحلية، فسكان فارنهام يتكلمون بطريقة مختلفة عن سكان لندن كما أن كثيراً من

الأميركيين كانوا يتكلمون بلهجات مختلفة عن أي شخص في لندن، ولكنه لم يتوقع أن تكون اللهجة غريبة إلى هذا الحد بالنسبة إلى شخص قادم من لندن. تابع الإصغاء لدقيقة، وهو يحلل المحادثات التي تجري أمامه، بينما كان ماتي يقف إلى جانبه. فعندما تعتاد أذنك على اللهجة تختفي في الخلفية وتدفع بالكلمات إلى الأمام.

بينما كان المسافرون يغادرون حازر رصيف المحطة التي بدت فارغة قال: «أعتقد إنني تأقلمت بعض الشيء دعنا نذهب ونجد الفندق».

غادرا المحطة، وركبا العربة الثانية التي وجداها أمامهما، بدا على الحوذي الحيرة إن كان يجدر به المخاطرة بنقل الفتيتين، لكن شارلوك أظهر له قبضة مليئة بالنقود فما كان من الحوذي إلا أن أوماً، وما داما يستطيعان أن يدفعوا له لم يهتم عمرهما. كان شارلوك قد نظر مسبقاً في المغلف الذي أعطاه إياه مايكروفت، وأخبر الحوذي باسم الفندق الذي يريدان التوجه إليه.

استغرقت الرحلة من محطة القطار إلى الفندق نحو عشرين دقيقة، وقد مروا أمام مصطبات أبنية مرتفعة وكانت كلها مبنية من الحجر الرمادي، وكان هناك مصطبات كبيرة وقصور تتوسط أكرات من العشب. ولاحظ شارلوك أن الحجارة الرمادية كانت

تحتوي مسحات من ألوان أخرى مثل البرتقالي والأصفر والأزرق والأخضر كما أن الحجارة الرمادية كانت تحتوي تموجات من ألوان أدكن.

سارت العربة بجوار متنزه، ثم أخذت تنعطف يمينا ويسارا بين الفنادق والمتاجر، وكانت أدنبره تشبه نيويورك ولندن وموسكو، لقد كانت أدنبره مدينة عريقة وفخورة بنفسها.

توقفت العربة فجأة إلى اليمين، وترجل منها ماتي وشارلوك، وأخذ الحوذي يلقي بحقائبهما من المكان الذي وضعها فيه، وكان واضحاً أنه يستخف بالفتيين، ولا يريد أن يترجل من مكانه. قمع شارلوك نفسه من رمي النقود أمام قدميه كرد فعل على تصرف الحوذي غير المحترم، إلا أنه قام برفع النقود بعيداً عن متناول يد الحوذي بحيث اضطر أن ينحني بشكل غير ثابت كي يأخذها.

لقد توقفا أمام بناء مرتفع له مصطبة، وكانت هناك لافتة مكتوب عليها فندق فريزر. غادرت العربة وانعطفت نحو الطريق الرئيسي، ولاحظ شارلوك أن الطريق أمامهما كانت منحدره. ولاحظ، عندما ابتعدت العربة، وبتعجب وإعجاب، القلعة التي كانت تخفيها العربة المتوقفة؛ لقد كانت قلعة كبيرة ولكن بناءها على تلة والضباب الذي كان يخفيها جعلها تبدو وكأنها عاصفة من الغيوم تخيم على المدينة.

سأل ماتي: «ماذا سنفعل الآن».

أحس شارلوك أن غياب راف ستون يلقي بثقل على تفكيره،
وشعر أنه غير حصين وغير واثق. لقد كانا فتيين بمفردهما في
أدنبره، فما يسعهما أن يفعلا؟
أجابه شارلوك: «لا أعرف».

الفصل التاسع

بعد أن أفرغا حقيبتيهما غادرا الفندق إلى المدينة، كانت الشمس تغيب خلف الأفق، وكانت عتمة الليل تنار بواسطة مشاعل الغاز التي كانت معلقة على الأبنية بواسطة حمالات. وكانت الشوارع مزدحمة بالناس الذين يتنقلون من حانة إلى أخرى باحثين عن قضاء وقت مسلٍ. في النهاية، تجنب الفتیان المناطق المزدحمة، ووجدا مقهى راقياً، وجلسا في إحدى زواياه وتناولوا فطيرة، ثم تناولوا شراباً لم يجد النادل أي حرج في تقديمه لهما، وعندما طلبا منه دورق ماء نظر إليهما نظرة غريبة. كل بضع دقائق كان شخص مختلف يحاول الجلوس إلى جانبهما وافتتاح محادثة معهما. كما أتت بعض النساء اللواتي يضعن مكياجاً بصورة منفرة وغير ضرورية ويرتدين ملابس لم تغسل منذ فترة، أما الرجال فكان بعضهم يطلقون لحاهم ويرتدون بذلات متسخة دون ياقات. وكان ماتي يقول لهم العبارة ذاتها: «سيكون أبي هنا في غضون دقيقة ولن يكون مسروراً إن وجدك هنا». عندها كان الرجل أو المرأة يغادران وهما يتمتمان معذرين أو شاتمين. عندما حصل هذا الأمر للمرة الأولى هزّ شارلوك كتفيه ونسي الأمر. ولكن بعد المرة الثالثة حدّق إلى ماتي وبدا أن في عينيه سؤالاً. تجنب ماتي نظراته وتمتم وقال: «هناك كثير من الغرباء في الأرجاء، وهذا لا يتعلق

بالمدينة التي توجد فيها فهم دائماً يسعون لإقامة صداقة معك إن كنت بمفردك، ولاحقاً ستتعلم بمفردك ألاّ تتعاطى معهم». لم يسأل شارلوك أي أسئلة وكان واضحاً أن ماتي لا يريد الدخول في التفاصيل، ومرة أخرى كان مسروراً لوجود صديقه معه.

تحدثا عما يجب أن يقوموا به بشأن راف ستون، وكان من الجلي أنهما كانا يأملان في سرهما أن يعثرا عليه أو أن يرسل لهما رسالة إلى الفندق، وهما كان منزعجان من أنهما لم يصلا إلى أي جديد بشأنه.

اقترح ماتي: «يمكننا إبلاغ الشرطة بفقدانه».

«المشكلة أننا لا نعلم ما حصل مع راف بالتحديد، ولذلك لا يمكن للشرطة القيام بشيء من أجله، فنحن لم نَره يتعرض للختف، وربما سيقولون إن القطار فاته وسيصل في الغد. والأكثر سوءاً سيقلقون على فتيتين بمفردهما في أدنبره وسيسعون للاهتمام بنا وربما سيتركونا في دار للرعاية ريثما يصل ستون وهذا آخر ما نود أن يقومون به».

أوماً ماتي: «أستطيع تبين الأمر، ولكن ماذا بشأن شقيقك؟ يمكننا أن نرسل له برقية نخبره فيها بما حصل».

«وفي غضون ساعة سيرسل لنا برقية يخبرنا فيها بضرورة العودة إلى لندن ريثما يعرف ما جرى لستون، وإذا طلب مني

العودة لا أستطيع أن أخالف أوامره، لقد جربت أن أخالف أوامره سابقاً ولكن النتيجة كانت سيئة. الأفضل ألا نخبر أحداً بما جرى».

سأل ماتى بهدوء دون أن ينظر إلى شارلوك: «ماذا تظن أنه جرى لراف ستون؟».

تنهد شارلوك، وهو كان يحاول ألا يفكر بالأمر وقال: «بالتأكيد لا أعرف، ربما خطفه الأميركيان، ويريدان أن يستنطقانه، ولكن لأنه لا يعرف شيئاً يجهلانه، ربما سيطلقان سراحه». فكر شارلوك: أو ربما يقتلانه! ولكن تهديدهما لن يخيفه. بالرغم من أن ماتى كان يتمتع بحكمة الشارع إلا أنه كان أصغر من شارلوك، لذا يتوجب على شارلوك ألا يخبره بكل الأمور وذلك بهدف حمايته.

قال ماتى: «ولكنه يعلم عن أدنبره».

فردّ شارلوك: «إن كانا على متن القطار معنا فهما أيضاً يعلمان عن أدنبره، وعندها يكون السر قد انتشر». توقف برهة ثم تابع: «من جهة أخرى إن كانت بارادول تشامبر هي من اختطفه فليس لدي أدنى فكرة عما تريده».

سدّت هذه المحادثة شهية شارلوك، وفكر بما يجري لراف ستون بينما هما يجلسان مسترخيين في مقهى دافى ويملان بطنيهما.

همس ماتي وقال: لا أريد أن أزيد من قلقك، ولكن هل انتبهت للرجل الجالس هنا؟». وأوماً برأسه إلى الجهة المقابلة.

نظر شارلوك بطريقة غير ظاهرة وكان قلقاً من أن يكون الرجل الذي رآه ماتي هو السيد كايت، ولكنه كان رجلاً غريباً. بعد لحظة، بدأ يشعر بعدم الارتياح، فالرجل لم يبذ عليه أن الفتيتين يشغلان انتباهه، وكان هناك شيء غريب فيه لم يستطع شارلوك معرفته. في البدء لاحظ كم هو نحيل، كما لو أنه عانى من الجوع لأسابيع، وكانت بشرته شاحبة إلى درجة كان باستطاعتك الرؤية عبرها؛ لقد كانت عيناه مخفيتين خلف الجيوب الداكنة، وكانت عظام وجنتيه وذقنه مدفوعة إلى درجة ظن أن بشرته سوف تتمزق. أما ثيابه فبدت وكأنها أفضل ما لديه، وهي الملابس التي يرتديها نهار الأحد. ولكن، بالرغم من كل ذلك كانت الملابس متسخة جداً، وكان هناك وسخ أخضر على كتفيه وردنيه وكان ينظر إلى الأمام، ولكنه لم يكن ينظر إلى شيء معين، فلم يكن هناك شخص أمامه، حتى إنه، وبالرغم من عدم وجود شراب أمامه، لم يتقدم منه النادل ليسأله عن طلبه أو يطرده خارجاً.

كان الحشد يزداد عدداً في المقهى. وأخيراً، حجب الناس الرؤية، ولم يعد باستطاعة شارلوك رؤية ذلك الرجل النحيل الشاحب البشرة. وبعد أن أنهيا فطائرها استعدا للمغادرة،

وعندما وقفا، كان هناك فجوة فارغة بين الحشد، فاستغلها شارلوك لكي ينظر ناحية الرجل إلا أنه لم يجده، لقد غادر. سأله ماتي وهما يغادران المقهى: «هل سبق لك أن سمعت بالظهور».

أجابه شارلوك: «لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم من قبل». «كان هناك رجلان يدعيان بورك وهائر وكلاهما ملقب بويليام، وكان سيئاً السمعة، وكان يعيشان في الغابات قبل سنوات، وقد سمعت بهما عندما أتى والدي للعمل هنا، وعندما نظرت إلى الرجل الذي في المقهى تذكرتهما. كانت أدبره مدينة يقصدها الأطباء من أجل التدريب، فقد كانت كلية للطب توجد هنا، ولكن كانت هناك مشكلة وهي أن أعداد الجثث التي يمكن التدريب عليها والتي يمكن تشريحها والاطلاع على أعضائها كانت قليلة».

قال شارلوك عابساً: «كنت أظن أن كلية الطب تسمح للطلاب بتشريح جثث الأشخاص المحكومين بالإعدام».

أجابه ماتي: «ما تقوله صحيح نظرياً، ولكن الجثث كانت أقل من عدد الطلاب، لأن عدد الجرائم التي كان يحكم على مرتكبيها بالإعدام كانت تقل، وهذا يعني أن الجثث المتوافرة كانت تقل أيضاً. فقبل ستين عاماً كان هناك نحو مئتي جريمة يحكم على مرتكبيها بالإعدام شنقاً، أما في هذه الأيام فلا يزيد عدد هذه

الجرائم عن الخمس، وهذا يعني أن جثتين يمكن أن تأتي في العام لكي يشرحها طلاب الطب، ولهذا السبب ظهر بورك وهاير. فقال شارلوك بهدوء وهو يشعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري: «إنني أستطيع أن أتوقع ما سينتهي إليه هذا الحديث، هل كانا يخرجان الجثث من القبور ويقومان ببيعها؟».

حدّق ماتى إليه وقال: «ليس تماماً بل كانا يقومان بشيء قريب من ذلك يدعى انتشال الجثث، كان الأقرباء والأصدقاء يقومون بحراسة قبر الشخص الميت حديثاً، وكان الأغنياء منهم يبنون ما يشبه الأقفاص لحماية الجثث، ولكن قبل أن يعرف الناس والأقرباء والأصدقاء بأمر انتشال الجثث كانوا يظنون أن الجثث قد عادت إليها الحياة وغادرت القبور» وهنا وجد شارلوك وماتى طريقهما بين الحشد وتوجها إلى الفندق. «وعندما علم الناس بأمر منتشلي الجثث غير المنتشلون من طرقهم، فأخذوا يستخدمون وسائل خشبية في الحفر بدل المعدنية، وهي أقل إصداراً للضجة، وكانوا يحفرون عند نهاية القبر، ويقومون بسحب الجثث بواسطة حبل».

«حسناً لقد قلت إن بورك وهاير لم يكونا ينتشلان الجثث فما الذي كانا يقوم به إذا؟».

«يمكنني أن أقول لك إن بورك وهاير، وهما رجلان إيرلنديان، أتيا لكي يعملوا في يونيون قنال. كان بورك يقيم في منزل تعود

ملكيتها للسيدة التي يعمل لديها هاير. كانا يشربان ويفكران بطريقة يزيدان بها مدخولهما. فاقترح أحدهما أن يقوموا بسرقة جثث الأشخاص الذين يموتون لأسباب طبيعية ولا يكون لهم أقرباء يسألون عنهم ويقومون ببيع الجثث إلى كلية الطب ليستخدمها الأطباء في التشريح. لم يمر وقت طويل حيث توفي رجل متقاعد فباعا جثته بأربعة جنيهات بعد أن دفنا مكانها جذع شجرة».

قال شارلوك: «يا له من عمل مقدام».

«ولكن المشكلة التي واجهتهما كانت أن عدد الأشخاص الذين يموتون لأسباب طبيعية لم يكن كافياً، لذا الحصول على الجثث من خلال قتل الأشخاص. وكان أول ضحايهما طحان أشرباه حتى ثمل ثم خنقاه. وضحيتهما الثانية كانت متقاعدة هذه المرة وكانت تدعى أبيغال سيمسون» هز كتفيه وتابع «وكانا يأخذان الجثث إلى الدكتور نوكس الذي كان يأخذها من دون أن يطرح أي سؤال، وكان يدفع لهما ثمانية جنيهات إن كانت الجثة فيها جروح وعشرة جنيهات إن كانت جيدة، وكان بورك وهاير يفضلان خنق النساء والأطفال لأنه يسهل التغلب عليهما».

شعر شارلوك بالرغبة بالتقيؤ، نظراً لطبيعة الأمر الذي كان بورك وهاير يقومان به. فهما لم يكونا يقتلان لشغفهما بالقتل أو نتيجة

حوادث عرضية بل لأنهما جعلاً من الأمر عملاً، فلكي تزدهر أعمالهما كان يجب عليهما قتل الناس.

«وكم شخصاً قتلاً؟» سأل شارلوك وهو ينعطف عند الزاوية ويتوجه نحو باب الفندق.

أجابه ماتي: «وفقاً لأحسن تقدير سبعة عشر شخصاً في غضون سنة».

«ألم يشتبه بهما أحد؟ أقصد الطبيب الذي كانا يبيعانه الجثث، فقد كان يجب عليه أن يلاحظ أن هذه الجثث لم تكن تعود لمجرمين أنزل بهم حكم الإعدام شنقاً. فالشنق يترك علامة على الرقبة».

«أتقصد الدكتور نوكس؟ بالطبع كان يعلم بالرغم من أن بورك أقسم نافياً، ولكن الطبيب لم يكن يريد أن يوقف تدفق الجثث، فقد ذاع صيته بأنه أفضل طبيب تشريح، وكان طلاب الطب يتدفقون إلى محاضراته، ويدفعون لقاء العمل على هذ الجثث».

شخر وتابع «ولكن المشكلة حدثت عندما قتل بورك وهائر شخصاً معروفاً في المدينة وكان يُدعى دفت جيمي. وعندما كشف الدكتور نوكس عن جثته في المحاضرة تعرف إليها بعض الطلبة، ولكن نوكس قال إنه شخص يشبهه، لذلك بدأ بتشريح الوجه كي يخفي أي أثر بحيث لا يمكن لأي كان أن يتعرف إليه».

سأله شارلوك بينما كان يفتح الباب الأمامي للفندق: «وماذا حصل في النهاية؟ أعتقد أنهم تمكنوا من اكتشاف الأمر.»

«بعد ذلك قتل هاير وبورك امرأة في منزلها كانت تُدعى مارجوري دوتشرتي، ولكن ريثما يتمكنان من نقل الجثة أخفيها تحت السرير. ولكن جيرانهم المستأجرين شكوا بأمرهما، وعندما غادر بورك وهاير منزلها دخل الجيران ووجدوا الجثة، وأخبروا رجال التحري، ولكن قبل وصولهم تمكن بورك وهاير من إخراج الجثة، ونقلها إلى مقر الدكتور نوكس، وقد تمكن رجال التحري من العثور على الجثة هناك. هاير خان بورك مستفيداً من قرينة «الشاهد الملك»، فأبلغ عنه وعمل شاهداً ضده. وما لبث بورك أن سُئِلَ، وانتهى الأمر بجثته في كلية طب أدنبره وشرّحها الطلاب بصورة شرعية.

«وماذا حل بهاير؟».

«اختفى، ولم يُشاهد مجدداً».

«هل من المحتمل أن يكون لا يزال في المدينة». أوماً ماتي وهو يفتح باب غرفة النوم: «ممكّن، ولكن الأرجح أنه عاد إلى إيرلندا».

حل الصباح ولم يصلهما خبر من راف. بأسى تناولا فطورهما والذي كان عبارة عن عصيدة الشوفان قدمته لهما خادمة صامتة. كانت العصيدة سميكة إلى حدّ أن شارلوك كان بإمكانه

أن يقطعها بالسكين وبدأت كأنها تصلح لإطعام حيوان ولكن من غرائب الصدف أنها كانت لذيذة.

سأل ماتي: «ما الخطة؟».

أجابه شارلوك: «سأبحث عن مكتبة؛ أريد خريطة للمدينة، أريد أن أعرف أكثر عن المدينة إنني أشعر بالضيق هنا، فأنا لا أعرف الاتجاه. وأنت لماذا لا تبحث في الأماكن التي تعرفها فلربما تجد أشخاصاً لا يزالون يتذكرونك ويمكنهم مساعدتنا فنحن بحاجة إلى كل مساعدة ممكنة». توقف لبرهة قبل أن يتابع: «سنلتقي عند الظهيرة في المتنزه المقابل للفندق».

أجابه ماتي: «إنني لا أملك ساعة».

«إذاً، اسأل شخصاً يملك واحدة».

عندما أنهيا العصيدة ودّع أحدهما الآخر وسلك كل واحد منهما طريقه.

عثر شارلوك على مكتبة صغيرة على الطريق الرئيس، وعندما دخلها شم رائحة الكتب. كانت مريحة وذكريته بمكتبة عمه شرينفورد، وأحس وكأنه في منزله، ثم توجه نحو القسم المخصص لإسكتلندا، وسحب مجموعة من الكتب ووضعها على المنضدة وشرع بمطالعتها.

بعد ساعة كانت لديه فكرة جيدة عن تاريخ أدنبره وجغرافيتها ومكانتها في تاريخ إسكتلندا الطويل. لقد بُنيت المدينة على

سبع تلال وهذا ما يفسر لماذا كل الطرق كانت إما صعوداً وإما نزولاً.

بعد برهة، بدأت الكتابة تظهر مغبشة أثناء القراءة، عندها أغلق الكتاب، وأغمض عينيهِ. ولكن المشكلة أن المعلومات التي كان يبحث عنها شارلوك كانت تختلف عن تلك المدونة في الكتب المرجعية، فقد كان يريد أن يعلم ما هي المناطق التي يقصدها الفارون، وكيف يتجنبون أن يُكتشف أمرهم. وهذه المعلومات كان يمكن لماتي أن يحصل عليها من الأشخاص الذين يعرفهم. قرر شارلوك أن يدوّن كل المعلومات التي سيحصل عليها هو أو ماتِي، ربما إذا دونها على بطاقات يمكنه أن يراجعها عندما يريد مرة أخرى.

فجأة، خطرت في ذهنه فكرة جعلته يشعر بالقشعريرة. فما كان يقوم به الآن لا يختلف كثيراً عما كان يقوم به جوش هاركينز، فقد كان يجمع معلومات عن نشاطات غير قانونية، إلا أن الفرق بينه وبين هاركينز أنه لم يكن يريد أن يستعمل هذه المعلومات لجني فوائد مالية.

دَقَّق في ساعته التي كانت تتدلى من صدرته، كانت الحادية عشرة والنصف، لقد حان الوقت للتفكير بموعده مع ماتِي.

عندما أعاد الكتب إلى الرفوف، لاحظ وجود خرائط لأدنبره للبيع مقابل ستة بنسات، فابتاع خريطة، وعاد وجلس إلى طاولة

حيث كان بإمكانه فتح الخريطة والاطلاع عليها. من خلال نظرة ماسحة، تمكن من حفظ معظم التفاصيل لشكل المدينة، واتجاهات الطرقات الرئيسية. وتمكن من التعرف إلى طريق سكة الحديد القادم من لندن، كما تمكن من تتبع الطريق الذي سلكته العربة التي أوصلتهما إلى الفندق، فعرف أنه يُدعى برنسس ستريت، والذي كان الطريق الأساسي، وهذا ما جعله يعرف أين يقع الفندق وأين هو الآن.

طوى شارلوك الخريطة، ووضعها في جيبه، وتوجّه نحو المتنزه، وشعر بثقة في نفسه وبقدرته على التحرك في أنحاء المدينة.

كانت أشعة الشمس تخترق الغيوم مرسله حزماً مستعرضة من الضوء تتراوح بين درجات الأزرق والرمادي، وبدأت هذه الحزم الضوئية وكأنها عوارض ودعائم تدعم السماء. حدق أسفل الطريق الذي كان يسير عليه أي شارع برنسس ستريت، ولاحظ أن القلعة لم تعد كما لو أنها غيمة رمادية تهيمن على المدينة، فقد بدا هناك تناقض في الهندسة والمنظور. بدا له أنه يفترض بالقلعة أن تكون هنا والمدينة هناك.

بينما كان يعبر أحد الأزقة سمع ضجيج شجار في الظل فتوقف، وظن أن هناك مكيدة ما، فنظر ذات اليمين وذات

الشمال، ولم يتقدم نحو الزقاق أكثر لأن ذلك سيكون تصرفاً أخرق، ولكن كان هناك شخص يتبعه وأراد أن يعلم من هو. لم يتمكن من رؤية أي شيء فأشعة الشمس لم تكن تخرق المكان، ولكن بعد برهة اعتادت عيناه على التناقض، وتمكن من رؤية شيء يطفو، وكأنه بالون، واستغرقه الأمر برهة ليتبين الأمر، لقد كان رجلاً متسربلاً بالسواد وكان يحدق إليه.

تراجع شارلوك خطوة إلى الخلف بشكل لاإرادي. كان وجه الرجل أبيض وعيناه غائرتان كما لو أنهما ثقبان أسودان وكانت عظام وجنتيه ناتئتين وشفثاه - هذا إن كان لديه شفثان - كانتا مندفعتين إلى الخلف وملتصقتين بأسنانه كما لو أنه مستمتع بفكاهة لا يعلم بها شخص سواه. للحظة فكر شارلوك أن ذلك الشكل قد يكون جسداً متعفنًا أو هيكلًا عظمياً كان يقف هنا في الزقاق وينظر إليه أو جثة انثُرعت من قبر، وأسندت إلى قطعة من الخشب كتحذير. ولكن من يمكن أن يقدم على شيء مرعب كهذا.

رفع الشكل يده نحو وجهه، ولوّح بها قبل أن يمضي في سبيله في الظلال حيث لم يكن باستطاعة شارلوك رؤية أي شيء. رحل الشكل، وترك شارلوك يشعر بالبرد والرجفان. وتذكر الرجل الذي كان يجلس بمفرده في المقهى، هل كان هو؟ ولكن، ما رآه كان

أكثر حولاً وكانت مظاهر الحياة فيه أقل، لربما يكون ذلك نتيجة خدعة بصرية.

ما الذي كان يحدث؟ فكر شارلوك بما أخبره به شرينفورد وأنا. أيعقل أنه جنّ كوالده؟

لثوانٍ معدودة، أراد شارلوك التقدم إلى داخل الزقاق، والبحث عن الرجل، والبحث عن حقيقته، ولكنه قرر التراجع. فمن الناحية المنطقية يفترض أن يكون هذا فخاً لإغوائه واستدراجه. ولكن هل هذا محض صدفة أم أن أحدهم كان يعرف أن فضوله يتفوق على منطقته؟ تراجع شارلوك من أمام مدخل الزقاق متحشراً ولم ينظر إلى الخلف.

كان المتنزه على بعد دقائق، وعندما وصل وجد ماتي بانتظاره. فسأله صديقه: «هل أنت على ما يرام؟ تبدو كمن شاهد شبحاً؟».

أجابه شارلوك بحدة: «لا تكن غيبياً، ما من شيء يدعى أشباح». «حسناً لا داعي لكل هذه الحدة».

فسأله شارلوك عندها: «هل عثرت على شيء ما؟». هز ماتي رأسه: «معظم الرجال والأولاد الذي أعرفهم إما غادروا وإما ماتوا، وقد عثرت على شخصين يتذكراني، ولكنهما لا يعلمان أي شيء عن أميركي ضخّم أتى عبر هذا الطريق، وماذا فعلت أنت؟».

«أستطيع تدبر أمري في المدينة الآن ولن أتوه».
«حسناً، أظن أن هذا الأمر مفيد؛ هذا إن كانت لديك مخططات للانتقال والعيش هنا».

«لا تستخف بأهمية المعلومات الجغرافية».
حدّق ماتى إليه وقال أخيراً: «ما هي الخطوة التالية؟».
فكر شارلوك لبرهة، وكان يفكر بالسؤال عينه: «أفترض أنه يجدر بنا العودة والتحدث مع جامع البطاقات وحراس المحطة». قال ذلك ببطء وتابع «ولكنهم يرون مئات المسافرين في اليوم وليس هناك من ضماناة أنهم سيتذكرون السيد غروي، أضف إلى ذلك، إن كان السيد غروي قد اتبع الحرص عينه الذي بدأه في فارنهام فعلى الأرجح أنه ترجّل في محطة قبل هذه، واستقل عربة لتوصله وفرجينيا إلى أدنبره».

قال ماتى: «هذا إن كان هنا أصلاً، فنحن لا نستند إلا على رأس أرنب مقطوع يقودنا إلى هنا، وهذا ليس بالدليل الكافي، إنني لا أزال أعتقد أننا لا نزال نسلك درباً مختلفاً بالكامل».
فسأله شارلوك: «بالرغم من اختفاء راف ستون؟».

هز ماتى كتفيه وقال: «هذه النقطة تدعم وجهة نظرك ولكن ما دمنا هنا الآن فماذا يجب علينا أن نفعل؟ أنتتظر أن يظهر دليل آخر؟».

فقال شارلوك ببطء: «ماتي، لقد قلت سابقاً وسأقول مجدداً، أنت لست عبقرياً ولكنك تظهر العبقرية الموجودة في الأشخاص المحيطين بك».

«ماذا تقصد بقولك هذا؟».

«أميوس غروي ترك دليلاً أوصلنا إلى أدنبره، هذا إذا كنا قد فهمناه على نحو صحيح. لماذا قام بذلك، فنحن لم نسأل أنفسنا هذا السؤال بعد».

أجابه ماتي: «لأنه يريدنا أن نتبعه».

«بالضبط لأنه يريدنا أن نتبعه، فهو لم يكن يقول مجرد إلى اللقاء أنا متجه إلى أدنبره». هو أراد أن نعرف بالتحديد إلى أين هو متجه والسبب الوحيد لذلك أنه أرادنا أن نتبعه، فهو يريدنا أن نساعدده. وما دمنا قد وصلنا فلا شك أنه لن يتركنا نهيم على وجوهنا من دون أن يترك لنا دليلاً آخر يرشدنا إلى أين يجب أن نذهب».

سأله ماتي: «ولماذا لم يقم بذلك منذ البداية؟».

«لأن كل ما كان يعلمه وقتها أنه ذاهب برفقة فرجينيا إلى أدنبره، وعندما وصل إلى هنا كان يبحث عن مكان يقيم فيه بسلام، حيث لن يتعقبه أحد، وبالتالي لن يقيم في فندق. لذا، ربما بحث عن مكان يمكنه استئجاره، وعندما عرف المكان الذي يقيم فيه، لذا فهو بحث عن طريقة ليخبرنا فيها».

فقال ماتي: «ولكنه لا يعرف أين نحن؟».

«إذاً سيقوم بترك رسالة في مكان ما يمكننا رؤيتها في أي مكان كنا فيه هنا». وعاد بفكره إلى الصحيفة التي طالعها في القطار. وتذكر على وجه الخصوص الإعلانات المصنّفة التي أعجب بها والتي كانت عبارة عن رسائل من شخص إلى آخر أو من شخص إلى مجموعة أشخاص كُتبت بواسطة لغة مشفرة وتابع قائلاً: «لقد ترك لنا رسالة في الإعلانات المصنّفة في الصحيفة المحلية فهو يعلم أنني سأبحث فيها».

«ولكن، ماذا لو لم نجد الرسالة، كأن يكون قد وضعها في صحيفة الأمس؟».

هز شارلوك رأسه وقال: «صحيح هو لم يكن يعرف متى سنصل لذلك، وإن كنت أعرف أميوس غروي جيّداً، فأنا أعتقد أنه سيضع الإعلان لمدة أسبوع».

أوماً ماتي، إما لأن ما قاله شارلوك منطقي جداً وإما لأنه كان على استعداد لأن يحضه كل ثقته.

«إذاً دعنا نذهب، ونجلب الصحيفة المحلية، دعنا نجلب كل الصحف المحلية».

سأل شارلوك: «كم صحيفة يوجد في هذه المدينة؟». وهو يستعلم إن كان سيقراً عشر صحف أو اثنتي عشرة صحيفة أم أن أميوس وضع الرسالة في كل الصحف.

أجابه ماتي: «ثلاث». واستدار ليغادر قبل أن يستدير مجدداً ويقول: «ستقرأ الصحف الثلاث لأنني لا أعرف القراءة، وستدفع ثمن الصحف لأنني لا أملك أي نقود».

وجدا بائع صحف عن مدخل المتنزه، فاشترى شارلوك الصحف الثلاث الصادرة هذا اليوم، وعادا إلى المتنزه حيث يستطيع شارلوك أن يجلس ويقرأ. لفت نظره قصة الجريمة التي قرأ عنها في صحيفة التايمز في القطار، وقد كانت تتصدر الصفحات الأولى للصحف الثلاث. كانت الصحيفة الأولى الهيرالد أدنبره وفيها كتب:

ألقت شرطة أدنبره صباح اليوم القبض على المشتبه بها بقتل رجل الأعمال السير بنديكت فنثام. مصادر قريبة من الشرطة أفادت أن المتهمة هي الطاهية أغني ماكفرلين، وأفادت الصحيفة أن شقيق الطاهية مجرم سيئ السمعة وزعيم عصابة بلاك ريفرز، ويدعى غاهان ماكفرلين. ويعتقد أن الطاهية دست السم في الطعام لسبب لا يعرفه أحد سواها حتى الآن.

البلاك ريفرز! لقد أفزع هذا الاسم شارلوك، وجعل العصابة تبدو خطيرة، وعلى قدر كبير من الشر. كان شارلوك يريد التوجه إلى المقطع المخصص للإعلانات عندما لفت نظره اسم العصابة مجدداً هذه المرة في تقرير موجود مباشرة أسفل الفقرات التي تتحدث عن تسميم السير بنديكت فنثام.

الحريق يهدد أصحاب محلات الخُصَر المحليين
مبنى مسرز ماكفرسن أند غاغيل للبقالة في شارع برنسر
ستريت حرق بالأمس وكان الحريق مريعاً. ولقد كافح المارة
الحريق لنحو ثلاث ساعات بواسطة دلاء الماء من النهر القريب،
ولم يحالفهم النجاح، ولم يبلغ عن أي خسائر في الأرواح لأن
الحريق نشب ليلاً. لقد عمل ماكفرسن أند غاغيل في هذا المبنى
منذ خمسين عاماً. وقد أعلم مراسلون من قبل أشخاص يفضلون
عدم كشف أسمائهم أن البقالة كانت هدفاً للعصابة السيئة
السمعة التي تُدعى بلاك ريفرز التي تفرض أتاوى على الأعمال
المحلية...

انتقل شارلوك إلى قسم الإعلانات، وهو لم يكن كبيراً كما هي
حاله في التايمز، فبالكاد كان يشغل نصف صفحة، ومعظم
الإعلانات كانت عبارة عن منازل تطلب خدماً أو طهارة أو كبير
خدم، وكانت بعض الإعلانات إعلاماً عن فقدان ممتلكات. فمثلاً،
في كينغ ستريت عُثر على بروش نسائي من الذهب والزمرد
وعلى صاحبه أن يقدم وصفاً دقيقاً له قبل أن يسترجعه. لم
يستوقفه في هذا الإعلان شيء يجعله يظن أن أميوس هو من
وضعه.

وليتأكد أنه لن يجد شيئاً في هذه الصحيفة، تفقد صفحة
الرسائل أيضاً. تضمّنت معظم الرسائل انتقادات حول مواضيع

غير دقيقة تناولتها الصحيفة سابقاً وعلى ذمّ لأفراد الطبقة السفلى في المجتمع لافتقارهم الأخلاق والقيم. جذبت شارلوك إحدى الرسائل وقرأها بصوت عالٍ لماتي:

سيدي،

أكتب لك هذه الرسالة بعدما تم ملاحظة عدد كبير من الرجال والنساء على حدود المدينة التي لا يمكن وصفهم إلا بالتالي «متوفون ولكنهم لا يزالوا يتحركون». هذه الأحداث تدل على حالة مواطني هذه المدينة المحفوفة بالخطر. أود أن أشير إلى بعض المقتبسات من الكتاب المقدس:

أشعيا 19:26: «تحيا أمواتك وتقوم الجثث. استيقظوا ترنّموا يا سكان التراب. لان طلكّ ظلّ أعشاب والأرض تسقط الأخيلة». رؤيا: 13:20 «وسلم البحر الأموات الذين فيه وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله». أليس هذا كافياً ليدل على أن يوم القيامة قريب، وأن الله سيحاسبنا عما قريب؟ توبوا عن خطاياكم قبل أن يفوت الأوان! بإخلاص، جيو. ثريب

فكّر شارلوك بالهيكليين العظميين الذي رأهما من قبل - الأول كان في الحانة الليلة الماضية والثاني كان في الشارع منذ نصف ساعة فقط. أهذا ما يشير إليه كاتب الرسالة؟ هل هناك مجموعة

من الناس الذين يبدون كالموتى يتجولون في الشارع الآن وإذا كان هذا صحيحاً ما المقصود من ذلك؟

نحى هذه الفكرة جانباً. مع أن هذا مثير للاهتمام، ولكنه لن يساعد في مهمته الحالية وهي العثور على أميوس وفريجينا غروي أو راف ستون.

في صحيفة أدنبره ستار كانت الإعلانات تتركز حول حفلات قريبة، حيوانات أليفة مفقودة وأحصنة للبيع. ولكن لفت انتباهه إعلان: «ببغاء مفقود، يستطيع تسميع مسرحية هاملت بأكملها بالإضافة إلى بعض قصائد تينيسون. هناك مكافأة مخصصة لمن يجده». ببغاء يستطيع تسميع هاملت بأكملها؟ لم يستطع شارلوك التصديق.

وجد شارلوك ما كان يبحث عنه في صحيفة أدنبره تريبيون. برز من بين مجموعة الإعلانات الأخرى إعلان واحد: فندق السيغرسون

ستجد هنا المكان المثالي لترتاح وتسترخي فيه. من واجبنا الإصغاء إلى أحلامك وتحقيقها. يومان في ربوعنا كافيان لتصنع العجائب. السيد والسيدة كراموند، وهما صاحباً الأرض، ملتزمان بتلبية جميع طلباتكم.

ستجدوننا بالقرب من مدينة كيركالدي، في فيفي. أشار شارلوك إلى الإعلان وقال: «هذه هي».

شرح له ماتي بهدوء: «لا أستطيع القراءة».
قرأ شارلوك الإعلان لماتي الذي قَطَّب حاجبيه.
قال ماتي: «يبدو هذا الإعلان طويلاً نوعاً ما، ومخيفاً. ليس
المكان الاعتيادي الذي يرتاده الناس الطبيعيون».
قال شارلوك: «لأنه ليس فندقاً حقيقياً».
«كيف عرفت ذلك؟».

أشار شارلوك إلى اسم الفندق: «فندق السيغرسون. اسم والدي
سيغر - سيغر هولمز، ما يجعلني ابن سيغر (سون). هذا الإعلان
موجّه لي».

بدا ماتي مشككاً: «قد تكون مجرد صدفة. قد يكون هناك
فندق حقيقي يدعى سيغرسون».

اعترف شارلوك: «من الممكن. ولكن يتم الدفع لنشر الإعلانات
في الصحف بحسب عدد الكلمات. تتضمن هذه الرسالة كثيراً من
الكلمات، عدد أكثر مما يحتاج إليه الشخص ليعبر عن مدى جمال
فندقه ولكنه كافٍ ليخفي رسالة فيها».

عبس ماتي: «إذاً فيرجينيا وأميوس غروي في مدينة
كيركالدي. إن هذه المدينة بعيدة جداً. ظننت أننا سنجدتهما في
أدنبره».

«لقد وضعنا اسم هذه المدينة كإشارة مضلّة. هذا ليس مكان
إقامتهما الحقيقي».

«حسناً. إذاً أين هما؟».

هز شارلوك كتفيه: «لا أعرف عليّ فك الشيفرة أولاً».

نظر إلى الرسالة جيداً. لو كانت الرسالة مجموعة من الأحرف أو الأرقام كان من الممكن استخدام استراتيجية استبدال الأحرف لفك الشيفرة التي علمه إياها أميوس. تدور فكرة هذه الاستراتيجية على استبدال الأحرف بأحرف أخرى - على سبيل المثال استبدال كل حرف «أ» بالرقم واحد وكل حرف «ب» بالرقم اثنين... يمكن استخدام هذه الاستراتيجية لفك شيفرة من دون العلم بنمط الاستبدال، وذلك من خلال استبدال الأحرف الأكثر تردداً في الرسالة بالأحرف الأكثر تردداً في اللغة العربية. والأحرف الأكثر تردداً في اللغة العربية على التوالي هي: الألف ثم اللام ثم الميم والنون. ولكن لكسر هذه الشيفرة بدقة يجب أن تكون الرسالة طويلة حتى يتم ملاحظة النمط. أعاد شارلوك التمعّن في الرسالة وانتبه أن الاستبدال ليست الطريقة التي يجب اعتمادها هنا. استبدال الأحرف في هذه الفقرة الصغيرة سيؤدي إلى الحصول على مجموعة كلمات دون معنى لها. حاول التفكير بطريقة أخرى. سحب من جيبه قلماً وكتب بسرعة الحرف الأولى من كل كلمة في هذه الرسالة ولكن لم يصل إلى نتيجة: س ه ا ا ل و ت ف و ن م و...

ثم فكر أن يكتب آخر حرف من كل كلمة. وكتب مجموعة أخرى من الأحرف: د ا ن ي ح و ي ه ون... لم تبد صحيحة أيضاً. ربما يجب عليه البدء من آخر الرسالة وليس أولها. حاول الخيارين - أول حرف وآخر حرف - ولكن كل ما حصل عليه هو: م م ك ف ف... بالإضافة إلى: ي ي ي ي ي... إذا لم يحاول أميوس غروي تعقيد الأمور واستخدام لغة غريبة كان شارلوك يسير باتجاه خاطئ.

ربما عليه العمل بالكلمات عوضاً عن الأحرف. حاول استعمال أول كلمة من كل جملة - ستجد ويومان السيد ستجدوننا - ثم حاول ثاني كلمة من كل جملة - هنا نحن في وبالقرب -. باستثناء أن الجملة الثانية بدت كشعر سيئ لم يتوصل شارلوك إلى حل.

تنهد شارلوك وعرض شفته وهو يعلم أن ماتي يتابع كل خطواته. كادت الأفكار تنفذ منه. ربما كانت هذه الرسالة معقدة جداً وصعبة عليه. شعر بشيء في داخله يشده ولكنه حاول أن يسترخي ربما تأتيه الفكرة عندها. حاول الكلمة الأولى والكلمة الثانية من كل جملة... ولكن ماذا لو حاول الكلمة الأولى من أول جملة والكلمة الثانية من الجملة الثانية إلى ما هنالك؟

حفظ شارلوك الإعلان بعدما عمل عليه لفترة فلم يضطر حتى إلى النظر إليها.

ستجد نحن في كراموند مدينة.

لم تكن واضحة بما فيه الكفاية. بعدما أعاد ترتيب الجملة ودمج بعض الكلمات توصل إلى رسالة مفهومة: ستجدنا في مدينة كراموند.

همس شارلوك: «لقد وجدتها!». «ماذا؟».

قال شارلوك: «إنهما في مكان يدعى كراموند». بدا ماتي مشككاً: «ظننتك قلت كراموند هو اسم صاحبي الفندق».

فسر شارلوك مجدداً: «ليس هناك فندق. هذا الإعلان مجرد شيفرة. كان على أميوس أن يضع اسم المنطقة التي يقيم فيها في الإعلان دون أن يجعل الأمر واضحاً، فاختار أن يجعل المنطقة اسماً لصاحبي الفندق الوهمي». «حسناً، إذاً أين كراموند؟».

أحضر شارلوك الخريطة التي ابتاعها من المكتبة. أحاطت بخريطة أدنبره خريطة المنطقة المجاورة. في أعلى الجهة اليمنى من الخريطة وجد مفتاحاً فيه أسماء المدن بحسب الرقم التي يرمز لها على الخريطة. قرأ أسماء المدن حتى وجد كراموند وبحث في الخريطة عن الرقم الذي يرمز إليها.

قال: «إنها على الساحل. تبعد بضعة أميال. قد نتمكن من الذهاب إلى هناك بالعربة».

طوى شارلوك الخريطة والصحيفة، ووضعهما في جيبه. أحس ببعض الراحة والاطمئنان عندما وجد مكان إقامتهما. لقد نجح! لكن المهمة الأصعب لا تزال تنتظره وهي تتمثل بمعرفته سبب ذهابهما وإقناعهما بالعودة...

نظر شارلوك خلف ماتي عندما لاحظ حركة. اقترب رجلان نحوهما. حمل أحد الرجلين شيئاً بين يديه: بدا له كيساً فارغاً. بعد برهة تمكن شارلوك من تمييز الرجل وعرف أنه الرجل الأمريكي صاحب الندوب والجذري الذي التقى به سابقاً في فارنهام ثم المحطة. أحس شارلوك بدقات قلبه تتسارع. ونظر إلى ماتي مجدداً، وأراد أن يطلب منه الهرب، لكنه لاحظ أن الصبي كان ينظر بدوره خلف شارلوك. كانت عيناه جاحظتين وخائفتين.

لا بد أن رجالاً آخرين يتبعونه، على الأرجح الرجل المقطوع الأذن وصاحب الشعر الطويل المربوط إلى الخلف. كان شارلوك على وشك دفع ماتي إلى اليسار والقفز باتجاهه عندما لاحظ الرجل خلف ماتي أن شارلوك رآه. ركض الرجل نحو ماتي وأدخل رأس ماتي في كيس. أراد شارلوك أن ينزع الكيس عن رأس رفيقه، ولكن في الوقت عينه تحولت الدنيا في عينيه

ظلاماً حالكاً. فقد أنزل على رأسه شيء ثقيل غطّى وجهه، لقد
قام الرجلان بحمل شارلوك وماتي بعيداً.

الفصل العاشر

كانت رائحة دخان قوية تعبق بالكيس، وكاد شارلوك أن يختنق بسبب الحرارة العالية ونقص الهواء والرائحة القوية. تسرب قليل من النور عبر فتحات ضيقة في الكيس، ولكن لم تكن كافية ليرى محيطه. احتك الكيس بجلد شارلوك ما جعله يرغب في حك جبينه وأذنيه وعنقه. تخيل جلده يتفتت تاركا وراءه بقعا مؤلّمة، وعلم أنه عندما يهرب سيجد جروحا بليغة تغطي جسده. هذا إن تمكن من الهرب.

تم تكبيل معصميه وكاحليه بسرعة ومهارة. التفت يدان حول صدره ورجليه، ثم حُمِلَ كرزمة شعير، وُنُقِلَ بسرعة إلى الجهة الثانية للمتنزّه دون أن ينتبه أحد لما يجري. لا بد أن أمراً مشابهاً حدث لماتي. جرّب الركل برجله اليسرى محاولاً الإفلات، ولكن هيهات، فقد أحكم الرجل قبضته على رجل شارلوك قبل أن يتحرك إنشأً واحداً. شعر وكأن أحزمة جلدية لفت حول ساقيه. فتح فمه ليصرخ طلباً للنجدة، ولكن لكمة تحت أذنه سبقته وجعلته يتألم وكأنه صعق ببرق قوي. فشعر بتوعك ورغبة شديدة بالتقيؤ، ولكنه علم أنه لو تقيأ ورأسه في الكيس سيضطر إلى تحمل النتائج، فازدرد ريقه مرات عدة، وأجبر معدته أن تهدأ وتتأقلم مع الأمر.

عندما فتح فمه دخل فيه التبغ، شعر بالتبغ بين شفتيه وأسنانه وشعر به أيضاً ملتصقاً على لسانه. أعاد التبغ إليه الإحساس بالرغبة بالتقيؤ فما كان منه إلا أن ازدرد مزيداً من ريقه. كان شارلوك يعلم أن الناس لا تدخن التبغ فقط بل تمضغه أيضاً. وتساءل كيف يمكنهم ذلك؟

شعر بوخز في يديه ومعاناة الدم في عبور معصميه المكبلين، وأحس بأصابعه وكأنها تورمت وأصبحت كمقانع موضوعة في مقلاة.

غير الرجلان اللذان حملاه قبضتهما. فتساءل لبرهة عما كانا سيقدمان عليه، وسرعان ما أدرك الجواب على سؤاله فقد خففا قبضتيهما على صدره ورجليه وراحا يرجّحانه يميناً ثم يساراً بسرعة قبل أن يفلتاه، فما كان منه إلا أن حلّق في الهواء على غير هدى فاقداً القدرة على التحكم في مساره. انتظر لفترة بدت وكأنها لن تنتهي لكي يعرف أين سيستقر: على عشب؟ أو رصيف؟ أو نهر؟ أو مجرى مياه؟

رجّح أن يجد نفسه غارقاً في مياه باردة، تفاجأ عندما ارتطم بسطح ناعم وتدحرج حتى ارتطم بلوح خشبي. هل كان داخل عربة مفروشة بالقش؟ بدا الاحتمال مرجّحاً. سمع شيئاً يرتطم بالقش بالقرب منه، وبعد ثانية ارتطم شيء ثقيل به، وكاد الهواء أن يفرغ من رئتيه.

ماتي.

نادى شارلوك من داخل الكيس: «هل أنت بخير؟» ولكن قبل أن يجيب ماتي ضرب شخص ما شارلوك على قفصه الصدري. شعر بموجات من الألم تسري في صدره. تنشق الهواء. وكان من الواضح أن ماتي لم يرد. ربما لم يستطع، وربما فقد وعيه. لم يتفوه الرجال الذين خطفوهما بكلمة واحدة، ولكن الرسالة كانت واضحة: لا تتحركا، لا تكافحا، وابقيا صامتين. خرق أي من هذه الأوامر سيؤدي إلى عقابهما.

بالرغم من سوء الوضع إلا أن حسنته الوحيدة أن ماتي وشارلوك لم يفترقا. إذا ظل شارلوك حياً وقادراً على استعمال حواسه سيتمكن من الهرب كما في معظم مغامراته السابقة. زال الشك منه حول وجوده في العربة عندما بدأت بالتحرك. في الوضعية التي كان فيها شارلوك كان رأسه باتجاه الجهة التي سيسافرون إليها. بسرعة تذكر آخر دقيقة من حياته. كان شارلوك واقفاً خلف ماتي في المتنزه والبوابة التي تؤدي إلى شارع برنسس ستريت كانت إلى يساره. عندما وضع الكيس على رأسه ورفع عن الأرض وألقى به الرجال في العربة دخل رأسه أولاً ما يعني أنهم يتجهون بعيداً عن شارع برنسس ستريت، بعيداً عن وسط أدنبره.

بينما مضت العربة في طريقها، حاول شارلوك تذكر الانعطافات التي قامت بها العربة، إلى أي اتجاه انعطفت وما هي المدة الفاصلة بين الانعطاف والآخر. لقد ساعده مجهوده الفكري على تذكر التفاصيل واحتساب الوقت، كما ساعده ذلك في قمع الذعر الذي كان يجيش في صدره. أضف إلى ما تقدم، فإن هذه المعلومات ستكون قيمة في حال تمكن من الفرار. فستكون خير دليل له على طريق العودة.

أخيراً، توقفت العربة، فقام أحدهم بالإمساك بشارلوك وإجلاسه، قبل أن يقوم بحمله ووضعه فوق إحدى كتفيه والسير به. لقد استطاع شارلوك سماع وقع خطوات الرجل ما عنى أنه لم يكن يسير على العشب. ولكن السؤال الذي طرحه على نفسه هل يسير على الصخور؟ أم في الشارع؟ تعثر الرجل الذي حمل شارلوك مرات عدة فتوقع شارلوك أنه يمشي على حصى. كانت هذه معلومة مهمة وربما سيستفيد منها لاحقاً.

أحس شارلوك بوخز بأصابعه بسبب الكمية الضئيلة من الدم التي تتدفق إليها، وامتلاً رأسه بصور تثير الاشمئزاز عن جلده وهو يتحول إلى اللون الأسود ومن ثم يتقشر مبرزاً لحمه. بيأس حاول أن يخرج هذه الصور من رأسه مجبراً نفسه على التركيز على شيء آخر. الخطوات! تغيّر صوت الخطوات - لا بد من أن الرجل الذي يحمل شارلوك قد بدأ المشي على الخشب، وتسربت

كمية ضوء أقل وأقل من السابق عبر فتحات الكيس الضيقة.
فاستنتج شارلوك أنه أصبح داخل بناء.

مجدداً، تغير وقع الخطوات على الخشب ما دلّ على أن الأرض
هنا جوفاء. في الوقت عينه أحس شارلوك أن جسده انحدر
قليلاً فأصبح رأسه بمحاذاة خصر الرجل. يبدو أن الرجل يصعد
درجاً الآن.

وعندما أنهى الرجل صعود الدرج، تغير الوضع، وأصبح رأس
شارلوك مجدداً بعيداً عن خصر الرجل، وتابع الرجل تقدمه. كان
صوت الخطوات هنا مختلفاً عن الأسفل. حيث أصدر الخشب
صريراً ما جعله يعتقد بأن الأرضية هنا ليست بمتانة الأرضية
في الأسفل.

فجأة ألقي الرجل به أرضاً. كان أمام شارلوك أقل من ثانية
حتى يحضر نفسه للارتطام. أول ما ارتطم بالأرضية كانت كتفه
اليسرى، فأطلق صرخة ألم، ولكنه بذل قصارى جهده كي يكبتها،
فعض على لسانه إلى الحد الذي جعله يشعر بطعم دمه.

سمع شارلوك صوت ماتي إلى جانبه، لا بد أنه يعاني ما يعانيه.
لم يصرخ ماتي بل كان يئن.

وُضع بين أصابع شارلوك شيء حديدي وحاد. قبل أن يقوم بأي
رد فعل، قطعت هذه الآلة الحبل عن معصميه فسقط على
الأرض. وبعد ثانية سقط الحبل عن كاحليه بالطريقة نفسها.

مدد شارلوك يده ورفع الكيس عن وجهه.

لم ير شارلوك في البداية سوى لون رمادي غامق، فرمش مرات عدة قبل أن يتمكن من الرؤية بوضوح. كان في غرفة تقارب حجم غرفة الطعام في منزل عمه، ولم يستطع إيجاد غير هذا الشبه بين الغرفتين. كانت الغرفة خالية من أي أثاث، وكانت هناك شقوق عدة في الجدار، وبدل السجاد والستائر الموجود في غرفة طعام عمه غطى العفن الأخضر ما تبقى من ورق جدران متقشر في هذه الغرفة. وقد كشف الورق المتقشر بعد الحفر في الجدار الخشبي، وكان براز الفئران متناثراً في كل مكان على الأرضية، وكأنه حصى أسود صغير، كما أن بعض ألواح الأرضية كانت مفقودة. وبدا أن السقف قد فقد معظم الجفصين الذي عليه ما أبرز عوارضه الخشبية التي تشبه القفص الصدري، وكانت أمطار الشتاء قد تسربت وتركت بقعاً على الأرض ما أبرز حالة الفوضى والإهمال أكثر.

بينما كان شارلوك يبذل جهداً ليحثو على ركبتيه، انزلت الصحيفة من جيبه، وسقطت على الأرضية. استطاع رؤية كلمة «كراموند» مكتوبة في الهامش، فنظر إلى الأعلى مذعوراً. وجد ثلاثة رجال أمام النافذة المحطمة، كان أحدهم جالساً ويسند يده على عكاز بينما كان الآخران يقفان إلى جانبيه. جعل النور المتدفق إلى الغرفة الرجال يبدو كأنهم أجسام ظليلة رسمت

على ورقة. حذق شارلوك إلى الرجال محاولاً أن يلمح وجوههم، ولكن دون جدوى. فقد كان الضوء ساطعاً.

كان ماتي مستلقياً إلى جانبه على الأرض وقد أقحم رأسه في كيس كالذي أقحم فيه رأسه هو. لبرهة لم تبدر من ماتي أي حركة ما أقلق شارلوك، هل مات رفيقه؟ ولكنه ما لبث أن انتبه لتنفسه البطيء، فرجح فقدانه الوعي.

حسب توقعاته للأحداث التي ستحصل في هذه الغرفة، بدا فقدان ماتي للوعي خياراً جيداً الآن.

نظر شارلوك خلف ماتي. كان هناك كرسي موضوع إلى جانب الرجال الثلاثة. وكان يجلس عليه راف ستون مقيداً. نظر راف إلى شارلوك وابتسم. كانت هذه الابتسامة مطمئنة أكثر لو لم يكن جبينه وعينه متورمين، والدم يغطي أصابعه.

قال صوت هادئ وناعم توقع شارلوك أن يكون مصدره الرجل الجالس في الوسط: «دعني أفسر لك كيف ستجري الأمور. أنا لا أندم عندما أؤذي الصغار، لقد قمت بذلك سابقاً ولا مانع لدي من تكرار الأمر مجدداً. لا أعتبر إيذاء الصغار أمراً ممتعاً، ولكن إذا اقتضى الأمر إيذاءهم فلن أتردد». لاحظ شارلوك أن لهجة الرجل تشبه لهجة أميوس غروي ما يعني أنه أميركي.

سأل شارلوك: «ماذا تريد؟ ليس لدي مال؟».

لم يضحك الرجل ولكنه أحس ببعض السخرية في صوته عندما ردّ: «لست بحاجة إلى مالك أيها الصبي. لدي مال كثير لا أعرف كيف أنفقه. أن بحاجة إلى معلومات عن صديقك أميوس غروي وابنته».

أجابه شارلوك بنبرة فيها بعض الاستهجان: «لا أعرف شيئاً». حدق شارلوك بعينين نصف مغمضتين إلى الرجل محاولاً أن يرى ملامحه. كل ما استطاع معرفته هو وجود شكل غريب على العصا الذي كان يسند إليها الرجل يده.

«حسناً، لن أقول لك إلا أنك ستعذب حتى الموت، وإذا كنت متعاوناً قلّ الألم وعشت لوقت طويل، هناك مجموعة من الأسئلة أريد إجابات عنها من دون كذب».

لمح شارلوك الصحيفة، وكان عليه منع الرجل من رؤيتها. سأل شارلوك بينما كان رأسه منهمكاً بالبحث عن طريقة يخفي فيها الصحيفة: «وماذا يحصل إن لم يكن لديّ أجوبة عن أسئلتك؟». أبعد نظره عن الصحيفة حتى لا يجذب الانتباه إليها.

اعترف الرجل: «سؤال جيد، ولطالما حيرني سابقاً. لقد قمت، وكما تتوقع، بعدة عمليات كهذه سابقاً. لحسن الحظ لقد عثرت على الحل المثالي. إن لم تلاحظ لقد قمنا بمراقبتك في الفترة الأخيرة. لذا أنا متأكد أنك تعرف الجواب عن بعض الأسئلة، كما أنني أعرف أصلاً أجوبة بعض الأسئلة التي سأطرحها. وما دمت

لا تعرف أي أسئلة أملك أجوبة عنها فلا أعتقد أنك ستجازف بالكذب، إلا إذا كنت من هواة التعذيب، الحل الأمثل بالنسبة إليك أن تخبرني بالحقيقة ولا شيء سواها. مجال الخداع لديك ضيق، لأنه من خلال بعض الأسئلة سأعرف إن كنت تقول الحقيقة حتى ولو كانت إجابتك لا أعرف؛ حسناً هل أصبحت تعرف القواعد التي ستحكم هذا الاستجواب».

فكر شارلوك دقيقة. لقد عرض الرجل المسألة بطريقة واضحة وبسيطة. فإذا قرر شارلوك الكذب، وادعاء عدم المعرفة، هناك احتمال كبير أن يكشف أمره. ولكن ما لم يعرفه شارلوك هو كم سؤال حُضر الرجل له، وكم من الأسئلة كان يعرف أجوبتها. لو كان عدد الأسئلة أحد عشر سؤالاً سيتمكن شارلوك بالاحتفاظ بسر أميوس. أما إذا كان عدد الأسئلة خمسة عشر، فسيقل احتمال إبقاء السر.

حاول شارلوك التفكير بطريقة منطقية للتخلص من المشكلة، ولكنه لم يجد أي طريقة. فقد كانت السلطة بيد الرجل الذي سيطر على الأسئلة، ويبدو أنه مستعد لكل الاحتمالات.

سأله الرجل بهدوء: «هل فهمت القواعد النازمة للاستجواب؟ لن أسألك مرة أخرى».

ردّ شارلوك وهو يحرك قدمه قليلاً كأنه يحاول الجلوس بوضعية أكثر راحة: «نعم». دفع شارلوك بالصحيفة نحو إحدى

يقع المياه على الأرضية.

حرّك الرجل رأسه ونظر إلى راف ستون، دهش شارلوك بالطريقة التي أثار بها الضوء وجهه وقال: «وغني عن القول أنني أرفض أي تدخلات جانبية. مفهوم».

هز ستون برأسه المجروح والمضرج بالدم، ولكن شارلوك كان يصب جل اهتمامه على الصحيفة بحيث لم ينتبه إلى ما يحصل مع صديقه. بدأت الصحيفة تبتل بالماء، ولكن كان من الممكن لشخص أن يخرجها من الماء الآن. جازف شارلوك بالنظر إلى الصحيفة. ولاحظ انحلال الحبر ماحياً ما دونه على هامشها. بعد بضع دقائق حتى الأحرف المطبوعة ستصبح عصية على القراءة. تنفس شارلوك الصعداء، وأعاد انتباهه إلى وجه الرجل الهادئ، ليحاول معرفة إن رأى الصحيفة أم لا. فجأة صدم شارلوك عندما انتبه إلى أن هناك خطباً ما في جلده. كان على جلده علامات ولكنه لم يستطع أن يراها بوضوح.

«لنبدأ».

رفع الرجل يده عن العصا، فتفاجأ شارلوك عندما رأى أن رأس العصا عبارة عن جمجمة ذهبية، تلمع في النور المتدفق. لمحها شارلوك لثانية فقط قبل أن يتقدم نحوه الرجلان الواقفان إلى جانب الرجل الهادئ. مشى الرجلان فوق جسم ماتي، وأمسكا

بشارلوك من يديه ورفعاه. أصدرت الأرضية الخشبية صريراً وتقوست بسبب القوة التي بذلها الرجلان.

حمل كل من الرجلين حبلاً فيه حلقة في نهايته. رمى أحدهما - الرجل ذو الشعر الطويل والمربوط والأذن المقطوعة - الحلقة حول رأس شارلوك، ورمى بالطرف الآخر من الحبل فوق إحدى العوارض الخشبية وشدها. حاول راف الاعتراض بينما كبل الرجل القريب منه يديه.

أحس شارلوك بالحبل يضيق حول رقبته. وبطريقة غريزية وقف على رؤوس أصابعه ليخفف من الشد - بينما قام الرجل الذي يحمل ندوب الجذري - برمي حلقة أخرى حول كاحلي شارلوك.

عندها قال الرجل بنبرة هادئة ومنطقية: «أقترح عليك أن تحكم القبضة على الحبل الموجود فوق رأسك. بعد بضع ثوانٍ ستعتمد حياتك على قوة قبضتك على الحبل. وبالطبع على مدى دقة أجوبتك وصدقك».

فجأة شدّ الرجل الحبل حول عنق شارلوك، فارتفع شارلوك عن الأرضية. تمسك شارلوك بالحبل الموجود فوق رأسه ليحافظ على حياته. كان الحبل خشناً، وأحس شارلوك بيديه تتصببان عرقاً، ولكنه عرف أنه لو انزلت يده سيترك متدلياً من الحبل حتى يختنق.

تدلت رجلاه فوق الأرض. فشد الرجل الحبل بقوة أكبر، وارتفع شارلوك محلقاً في الهواء ممسكاً بالحبل بكليتي يديه. تحولت رؤيته إلى اللون الأحمر، ولكنه استطاع رؤية الرجل الذي يشد الحبل يتجه إلى الجهة الأخرى من الغرفة ليربط الحبل بمخرطة. عندها قال الرجل الهادئ: «لنبدأ. ما نوع العلاقة التي تربطك بأميوس غروي؟».

قال شارلوك وهو يتوقف ليتنفس بين كل كلمة وأخرى: «أنا... لا... أعرف... أحداً... بهذا... الاسم...!»

فأجابه الرجل الهادئ: «من الواضح أنه لا صحة لكلامك». رفع يده إنشأً فوق العصا. عندما نظر شارلوك إلى الأسفل انتبه إلى أن الرجل الذي طوق كاحليه بالحبل، ألقى ثم اتجه نحو الظلال حيث سحب صخرة بحجم رأس شارلوك. ثم ربطها بحبال وبطرف الحبل علّق الرجل صنارة صيد. رفع الرجل الصخرة بيده وعقف صنارة الصيد بالحبل المتدلي من كاحلي شارلوك. ثم أفلت الصخرة.

فجأة انتقل وزن الصخرة عبر الحبل إلى ساقَي شارلوك. شد الثقل شارلوك إلى الأسفل ما مَدَّ عضلات وأوتار شارلوك وأوتاره وضيق الحلقة حول عنقه. أحكم شارلوك قبضته حول الحبل متجنباً الاختناق.

عندها قال الرجل الهادئ: «سأتصور أنك غبي ولم تفهم القوانين من المرة الأولى. سأعيد السؤال. لا بد أن عاقبة الكذب أصبحت واضحة لك الآن. ويبدو أنك تدرك الآن أنني أعرف جواب السؤال الذي طرحته، لذلك سأكرّره لأرى مدى صدقك: ما هو نوع العلاقة بينك وبين أميوس غروي؟».

لهث شارلوك: «إنه معلمي!».

«جيد. شكراً». توقف ثم أكمل: «الآن أخبرني، أين أميوس غروي؟».

ضاق نطاق نظر شارلوك وأصبح غير واضح. تدفق الدم بسرعة في أذنه، ولكن رغم كل ذلك تمكن من سماع السؤال واستيعابه. لا يستطيع الإجابة عن السؤال. ولكن إذا لم يجب...

لم يكن لديه خيار. لن يسلم أميوس وفيرجينيا غروي. قال مختنقاً: «لا... أعرف».

تنهد الرجل الهادئ: «كذبة أخرى. لن تقطع كل هذه المسافة لو لم تكن تعرف مكان وجود معلمك. هل أنت عنيد أم أحمق؟». رفع يده مجدداً إنشأ فوق العصا.

بيأس ركل شارلوك رأس الرجل الذي أقعى مجدداً، ولكنه لم يستطع الوصول إليه بسبب الثقل الذي شده. سحب الرجل مجدداً من الظلال صخرة بحجم السابقة. تم ربطها أيضاً بحبل تتدلى منه صنارة صيد.

كان الحبل يرفع ذقن شارلوك إلى الأعلى. بدأت أصابعه بالتشنج. لم يعرف شارلوك كم من الوقت سيتحمل رافعاً جسده قبل أن ينقطع عنه الهواء.

عقف الرجل الذي أحضر الصخرة الصنارة بحبل شارلوك. ارتطمت الصخرة بالصخرة الأولى مصدرة صوتاً عالياً. شعر شارلوك أن وزنه قد تضاعف منذ أن وضع الرجل الأول الحبل حول عنقه.

ارتجفت فرائص شارلوك بسبب الجهد الذي كان يقوم به ليحمل ثقله، وتسارعت دقات قلبه وضاق مجال رؤيته ليصبح فقط بحدود عملة صغيرة في وسط ظلام يتخلله بعض اللون الأحمر. انغرز الحبل في لحمه، وشعر كأن الوزن يخلع قدميه. غير الرجل الذي ألقى إلى جانب شارلوك وضعيته، وسمع شارلوك بوضوح صوت صرير الألواح الخشبية تحته. بالمقابل، خطا الرجل الذي وضع العقدة حول عنق شارلوك خطوة إلى اليمين، ومجدداً سمع شارلوك صوت الصرير. رغم انسداد أذنيه بصوت تدفق الدم، تمكن من سماع صوت الصرير ما يعني أن حالة الخشب تعيسة وقد ينشق بعد قليل. عندها لمعت في رأس شارلوك فكرة.

ولكن كان عليه تنفيذها في الوقت المناسب وإلا فلن تجدي نفعاً.

قال الرجل الهادئ بصوت بدا لشارلوك كأنه صادر من مكان بعيد: «يبدو أنك الوحيد الذي لا تفهم المسألة هنا. لا بدا من أن الألم قد أصبح هائلاً، ولا أظنك ستستطيع الاستمرار لأكثر من سؤال أو سؤالين إضافيين. أنا معجب بشجاعتك، ولكن هل يستحق أصدقاؤك كل هذا العذاب؟ في النهاية، هل سيضحي رفاقك بأنفسهم من أجلك؟».

كان على شارلوك دفع كل كلمة وحدها من حلقة الضيق: «لا... يهمني... ماذا.. سيفعلون... لي». توقّف وتنشّق بعض الهواء «يهمني... ما... أفعله... أنا».

تنهد الرجل الهادئ: «تبدو شخصاً صاحب مبادئ. كم أصبح أصحاب المبادئ نادرين. سأسألك مرة أخرى، وهذه المرة اقترح عليك أن تعطيني جواباً أستطيع استعماله. أين أميوس غروي؟».

قال شارلوك: «لا... أعرف».

رفع الرجل الهادئ يده مجدداً. كانت رقبة شارلوك ملتوية بسبب الثقل عند رجليه والحلقة التي تشد رقبتة فلم يستطع رؤية الأرضية. ولكنه استطاع سماع صوت حفيف الصخرة على الخشب بينما انتشلها الرجل من الظلال. كم صخرة لديهم؟

ساد الصمت الغرفة، بينما علّق الرجل الصخرة بالحبل وأفلتها. كان الألم هائلاً لدرجة توقع شارلوك أن أميوس غروي هو من

يشده بكل قوته. كادت يده أن تقتلعا من مكانهما بينما كان شارلوك متمسكاً بالحبل خوفاً من أن يختنق. ورغم كل جهوده، انغرز الحبل الذي يطوق عنقه بجلده وضيق تنفسه.

تمسك شارلوك بالحبل الذي يعلو رأسه بيده اليمنى وشد بها قدر المستطاع ثم أفلت يده اليسرى.

حملت يده اليمنى وعنقه ثقل جسده والصخورات الثلاث. قبل أن تنزلق أصابع يده اليمنى عن الحبل، تاركة الثقل على عنقه فقط، أدخل يده إلى جيب بنطاله. وأمسك بسكين ماتي - التي كان يستعملها رفيقه حين ثقب الخابية، في مدبغة جوش هاركينز، والتي استعملها شارلوك حتى يصل الثقوب في حائط كوخ أميوس غروي لكي تصبح على شكل سهم. سحب شارلوك السكين من جيبه، وفتحها مبرزاً الشفرة. لم ير شارلوك، ولكنه أحس باقتراب الرجال منه حتى يمنعه من متابعة ما بدأه.

قطع شارلوك الحبل بشفرته. فجأة ارتخت الحلقة حول عنقه وبدأ يسقط بسرعة والهواء يتدفق إلى صدره كالمياه الصافية والباردة. اصطدمت الصخور بالأرض الخشبية. بعد أقل من ثانية، ضربت رجلا شارلوك بالصخور. لم يتحمل الخشب ثقل الصخور وشارلوك والرجلان الآخران فتكسر محدثاً فجوة وقع فيها الرجال الثلاثة إلى الغرفة السفلى.

رفع شارلوك ركبتيه عندما وقع واصطدم بالرجلين. كشط الخشب جلد شارلوك، وعندما ضرب الرجلان الأرض علا صوت أشبه بالانفجار. انهارت الأرضية الخشبية بسبب قوة الصدمة، ما أوقع الرجال مرة أخرى. وفاجأ هذا الفئران بسبب غياب الظلمة فهربت في كل اتجاه.

شد شارلوك الحلقة الموجودة حول رقبته بيأس، فارتخى الحبل حتى تمكن من سحبه بكل سهولة. حوّل شارلوك نظره بين الفجوة التي أحدثها في سقف الغرفة وبين الرجال. لم يفعل الرجال شيئاً سوى الأنين والتلوي ألماً. انتبه شارلوك إلى أنه لم ينظر أحد من الفجوة ليرى ما حدث لهم أو ليخلق بهم.

سحب الحبل عن كاحليه المتورمين وتوقع أن رقبته بالحالة نفسها، ولكنه لم يعر الأمر أي أهمية.

فهو الآن حر طليق إن جاز التعبير!

وقف شارلوك ولكنه لم يلبث أن انهار. لم تستطع رجلاه تحمل ثقله. ولكنه أدرك أنه ليس من الحكمة أن يظل مستلقياً على الأرض فحاول مرة أخرى، وأخرى. أقنع شارلوك نفسه أن هذه المسألة تعتمد فقط على الإرادة. سينفذ جسمه ما يأمره شارلوك بالقيام به وليس العكس.

في المحاولة الرابعة، صمد شارلوك وتمكن من الوقوف رغم ارتجاف عضلاته. أخذ نفساً عميقاً وترنح إلى الجانب الآخر من

الغرفة حيث الدرج. لم يرد الهرب من المنزل بل أراد إنقاذ ماتي وراف ستون المحتجزين في الأعلى والمجردين من أي وسيلة تساعدتهما بالدفاع عن نفسيهما، وعقد العزم على إنقاذهما ولو كان الثمن حياته.

كان تسلق الدرج أصعب ما واجهه شارلوك في حياته وكان مشقة ما بعدها مشقة. وكاد أن يفقد وعيه مرتين. عندما وصل إلى الأعلى دخل إلى الغرفة التي تم تعذيبه فيها حاملاً السكين في يده ليدافع عن نفسه ولكنه لم يجد الرجل الهادئ هناك. لم يفهم شارلوك كيف تمكن من الخروج من الغرفة وما دامت النافذة مغلقة فلا بد أنه نزل على الدّرج الذي صعد شارلوك للتو ولكنه لم يصادفه. لم يكن في الغرفة سوى ماتي وراف ستون. كان ماتي لا يزال ملقى على الأرض والكيس يغطي رأسه. وعندما نظر شارلوك نحو راف الذي كان يبتسم بالرغم من الدماء التي تغطي وجهه، أوماً نحو ماتي وقال لشارلوك: «أنقذه أولاً». بدا صوته وكأنه يتكلم بفم مليء بالمكسرات وتوقع شارلوك أن ذلك نتيجة التعذيب الذي تعرض له. «لقد تعودت على هذه التجربة مرات عدة. ولكن الفتى لم يتحرك منذ أن ألقى به الرجال هنا. إنه بحاجة إلى مساعدتك». هز ستون رأسه بإعجاب: «ما قمت به هناك كان مذهلاً. لو عشت حتى المئة - وأنا أتمنى ذلك - أشك أنني سأرى شيئاً بمثل هذه الروعة».

ألقى شارلوك إلى جانب ماتي، وقد استبدّ به القلق، مدّ يده ورفع الكيس عن رأسه. حدقت عينا ماتي الزرقاوان إلى شارلوك بدهشة.

تنفس شارلوك الصعداء: «أنت بخير».

رد ماتي: «أنا دائماً بخير».

«ظننت... لم تتحرك... ف...».

ابتسم ماتي: «تعلمت أن أفضل ما يمكن القيام به في مثل هذه الحالات هو التصرف كالقنفذ: كل ما عليك فعله هو أن تلتف كالكرة وتنتظر حتى ينتهي الأمر. عندما تفشل هذه الخطة تصرف كحيوان الغرير: هاجم كل شيء، عض الجميع».

رفع شارلوك ماتي عن الأرض وعملا معا على فك قيود راف ستون. قلق شارلوك من كمية الدماء الكبيرة الموجودة على وجه ستون ويديه وسترته. ولكن العازف لم يعر هذا الأمر أهمية: «لقد تعرضت لجروح أعمق عندما وقعت عن السطح من قبل. مع أنني لن أتمكن من عزف البيزيكاتو قريباً. ماذا حدث للرجلين الآخرين؟ هل سيرجعان؟».

مشى شارلوك باتجاه الفجوة بحذر فقد تقع باقي الألواح بين ثانية وأخرى ونظر إلى الأسفل. بقي الرجلان متمددين على الأرض. كانا يئنان، ولكن لم يظهر أي إشارة أو حركة تدل على

أنهما سيقفان عما قريب. رد شارلوك: «أستطيع رؤيتهما. ولكن لا أظن أننا يجب أن نقلق بشأنهما. ليس بعد».

«آه شارلوك. إعجابي بك لا حدود له».

سأل شارلوك: «ماذا حصل؟ أضعناك في نيوكاسل».

تجهم راف: «لقد لحق بنا الرجال من فارنهام. من خلال ما سمعته، وجدوا كوخ أميوس غروي خالياً، فأرسلوا شخصاً إلى هناك ليراقب المكان تحسباً لعودته وابنته. لقد أرسلوا الرجل ذا الشعر الطويل المربوط والأذن المقطوعة».

عبس شارلوك: «لم أره. لقد فتشنا المنزل».

«كان يختبئ في الخارج. حفر فجوة في أحد جدران المنزل وتمرر فيه أنبوباً. كان بإمكانه سماع كل ما كنتما تقولانه».

سأل ماتي مرتبكاً: «أنبوب؟».

«إنه الشيء الذي يستعمله القبطان ليخاطب مساعده في غرفة التحكم. إذا تكلمت من أحد الطرفين، فيمكن لشخص يضع الأنبوب على أذنه في الطرف الآخر أن يسمعك على بعد أميال».

تمتم ماتي: «من كان ليفكر بهذا؟». ولكن عندها غضب شارلوك من نفسه. فقد رأى شارلوك أنبوباً يمتد من كوخ أميوس ولكنه لم يعره أي انتباه حينها. وعاهد نفسه أن لا يتجاهل أي شيء غير اعتيادي بعد الآن.

تابع راف: «سمعكما عندما كنتما في منزل أميوس. وتبعكما وسمعكما تتكلمان عن أدنبره في الحقل الصغير إلى جانب الإسطنبول. عندما أخبر زملاءه، كل ما كان عليهم فعله هو اللحاق بنا خلال رحلتنا في كينغز كروس ثم إلى القطار. قرر الرجال اختطاف أحدهما في نيوكاسل حتى يعرفوا تماماً مكان اختفاء أميوس. بالطبع إذا حسبت الأمور بدقة وكان موجوداً هنا». نظر إلى يديه اللتين يغطيها الدم: «عندما عرفوا أنني لا أعلم شيئاً سوى أنه موجود في مكان ما في المدينة، قرروا أن يصطحبوني معهم في الرحلة إلى أدنبره كي يستعملوني كأداة ضغط عليك. أقلنا القطار نفسه الذي كنت فيه ولكن الرجل المسؤول - الذي كان يطرح عليك الأسئلة - حجز مقصورة بأكملها كي لا يزعجهم أحد ومن ثم انتظروا حتى فرغ القطار لكي يترجلوا منه. عندما وصلنا إلى أدنبره بحث الرجال عن مكان آمن للبقاء فيه ليضعوا خطة للإمساك بكما ولإعطائكما بعض الوقت حتى تجدا أميوس غروي.. وفي صباح اليوم قررا استجوابكما لربما تعرفان أكثر مني ولكن من الواضح أنكما لا تعرفان شيئاً».

قال شارلوك: «في الحقيقة، أنا أعرف». نظر إلى الصحيفة على الأرض والتي أصبحت الآن كومة من الورق المبتل. ولكن لم يأبه لأمر الرسالة، فقد حفظها. «ولكن ما زلنا لا نعرف لماذا يلاحق

الرجال أميوس». حوّل شارلوك نظره إلى يدي راف: «هل ستتمكن... من العزف على الكمان مجدداً؟».

أجابه راف وهو يرفع يديه أمام وجهه ويحرك أصابعه: «هل أنت قلق على دروسك؟ لا يمكنك استرداد المال أيها الشاب».

كشّر راف بسبب الألم، ولكنه تابع تحريك أصابعه: «العضلات والأوتار سليمة. ستتعافى الجروح عما قريب. ولكنني لن أستعجل لعزف الباغاني».

نظر شارلوك حوله: «ماذا حصل للرجل الذي طرح عليّ الأسئلة. الرجل الذي يحمل عصا المشي ذات الجمجمة الذهبية؟».

عبس راف: «ألم تره؟ ظننته هرب عبر الدرج».

«لم أره». تذكر شارلوك يد الرجل وأضاف: «ما مشكلة جلده؟».

«آه... لقد انتبهت». عندما هز شارلوك رأسه تابع راف: «لديه وشوم على وجهه ورقبته ويديه، في كل مكان».

سأل شارلوك: «أي نوع من الوشوم؟».

قال ستون: «الأسماء. كانت معظم الأسماء بالحبر الأسود باستثناء بعض الأسماء بالحبر الأحمر. بالتحديد كتب اسماً كبيراً بالأحمر على جبينه».

رفع راف رأسه لتلتقي عيناه عيني شارلوك. قال: «كان اسم فيرجينيا غروي».

الفصل الحادي عشر

شعر شارلوك وكأن قلبه توقف عن النبض، ولكن قبل أن يسأل راف عن السبب الذي قد يدفع الرجل ليضع اسم فيرجينيا غروي على جبينه، رفع الموسيقى حاجبيه كأنه انتبه لمعلومة فوّتها سابقاً: «هل تعرف مكان وجود أميوس غروي؟».

رد ماتي: «ترك لنا رسالة في الصحيفة. كانت مشفرة، ولكننا تمكنا من فكّها».

نظر شارلوك إلى ماتي ورفع حاجبه عندما قال ماتي كلمة «تمكنا»، ولكن ماتي ابتسم ببراءة.

نظر راف حوله: «أحسنّت. يجب علينا الخروج من هنا قبل أن يأتي صديقنا مجدداً».

نزل الرجال الدّرج حتى وصلوا إلى الطابق الأرضي حيث كان الرجلان لا يزالان متمددين ويئنّان من الألم. توقف راف أمامهما ونظر إليهما لبرهة. كان هناك شيء ما في نظرة راف تدل على أنه أراد الانتقام، أراد أن يرد لهما بعض الألم الذي تسببا له به، ولكنه استدار وأكمل طريقه. قال وكأنه لا يزال يفكر بالانتقام: «يمكننا استجوابهما ولكنهما يبدوان وكأنهما لن يستسلما أبداً».

قال ماتي وهو يتبع نظر راف: «لا أعلم. يبدو لي أنهما استسلما».

قاد راف الطريق في ضوء الشمس. ملأت غيوم رمادية اللون السماء فبدأ الجو متجهماً. نظر شارلوك حوله بفضول. توقع أنهم كانوا في منزل، ولكنه عندما التفت إلى الخلف، ورأى المبنى الذي خرجوا منه والمباني المجاورة له عرف أنه كان مخطئاً. بدت المباني كأنها تابعة بعضها لبعض، تألف كل مبنى من ستة طوابق وامتد على مسافة تقارب نصف شارع. فرقت أزقة ضيقة المباني التي كانت كلها متشابهة فعند الطابق الأرضي هناك بوابة كبيرة ويحتوي كل طابق نوافذ عدة معظم زجاجها مكسور. بدت المباني مهجورة، أشبه بمأوى للنمل وليس مكاناً ليعيش فيه البشر.

سأل شارلوك: «ما هي هذه المباني؟».

ردّ ماتي: «إنها مبانٍ متعددة الشقق. إنني أتذكرها من المرة الأخيرة التي أتيت لزيارة هذه المدينة. هي شقق رخيصة يقطنها الفقراء، ولكن ينتهي بك المطاف في شقة مؤلفة من غرفتين، إلى جانب مزيدٍ من الشقق كأنها منازل للطيور. إن جميع الغرف هنا متشابهة. الأبواب نفسها، الجفصين نفسه، النوافذ نفسها. يحاول السكان هنا تمييز غرفهم عن الغرف الأخرى بواسطة الستائر وأواني الأزهار وأشياء كهذه. الأمر أشبه بتزيين صندوق شراب بين صناديق أخرى بواسطة شريط جميل. لا يفعل ذلك

شيئاً سوى الإضاءة. وفي النهاية تعم رائحة النفايات والملفوف المسلوق الشقق والمباني».

قال راف وهو يتفحص المكان حوله: «يبدو هذا المكان مهجوراً. إنه المكان المثالي كقاعدة مؤقتة للعصابة التي أتت عبر المحيط الأطلسي. أتساءل كيف عرفوا بوجود هذا المكان».

تابع ماتي: «سمعت بعض الشائعات بأن الحكومة كانت تعمل على إخلاء هذه المباني من السكان. يبدو أنها أرادت بيع الأرض لبناء المصانع عليها أو قصور فخمة أو شيء من هذا القبيل. قال لي الناس إن الحكومة قد تبدأ بنشر الشائعات عن تفشي مرض الطاعون في المباني. عندها سيهرب جميع السكان إلى منازل كبيرة تأويهم جميعاً وتقوم الحكومة بتأمين العمل لهم. وعندها سيتمكنون من هدم المباني والبناء على الأرض. سيحقق لهم هذا المشروع أرباحاً طائلة». خفض ماتي صوته حتى أصبح يهمس: «سمعت أنه عندما تمتلئ المنازل التي تأوي السكان الهاربين ستقوم الحكومة ببناء جدار حول المباني لمنعهم من الهرب فيموتون جوعاً».

قال راف وهو يمعن التفكير: «المشكلة هي أننا لا نعلم أين نحن وكيف نخرج من هنا. ولسوء الحظ ليس هناك من نسأله هنا».

نظر شارلوك حوله. كانت الخريطة في جيبه، ولكنها لم تتضمن هذه المنطقة من المدينة. قال شارلوك مشيراً إلى زقاق ضيق بين مبنيين: «أظن أنه تم حملنا من العربة إلى هذه المباني من هناك. فلم ينعطف الرجال عندما أحضرونا إلى هنا وهذا هو الطريق المستقيم الوحيد».

قال ماتي: «لن نجد العربة هناك أياً يكن الأمر. لا بد من أن الأحمق الذي طرح علينا الأسئلة أخذها».

هز راف رأسه: «كان لديه عربة خاصة. أحضرتني بها إلى هنا. لم يكن على متنها شخص سواه والحوذي. بقي الحوذي في العربة بينما صعدنا إلى الغرفة».

عندها قال شارلوك: «ما دام الرجلان اللذان اختطفانا ما زالا في المبنى فلا بد أن العربة هنا».

تبادل الرجال الثلاثة النظرات، ثم توجهوا بسرعة إلى الزقاق الذي أشار إليه شارلوك. في نهاية الزقاق وصلوا إلى طريق موحل يقود إلى مكان بعيد. على الجانب الآخر من الطريق رأوا حصانين هزيلين، أعينهما جوفاء يرعيان العشب. لم يستطع شارلوك التوقف عن مقارنة المنظر بكوخ أميوس غروي في فارنهام: موقع جميل وريفي قرب حقل كان حصان فيرجينيا يرعى فيه. هنا بدا كل شيء مظلماً على عكس ذلك المكان:

صفوف من المنازل المتشابهة قرب أرض قاحلة ترعى فيها الأحصنة وتترك للموت.

عندما حول نظره إلى مدخل أحد المباني رأى شيئاً يتحرك. ضيق نظره محاولاً الرؤية. هل كانت ستائر تتطاير مع الهواء؟ هل كانت حمامة؟ هل هي نوارس مائية؟

تحرك شيء أبيض في ظلام المدخل الحالك. بسرعة أكبر هذه المرة انتبه شارلوك إلى أنها جمجمة. عيان مجوفتان، رأس أصلع، عظام خدين بارزة وابتسامة مخيفة. كان ينظر إليه رجل ميت آخر!

تراجع الهيكل العظمي إلى الظلال قبل أن يشير إليه شارلوك ليراه رفيقاه. ألقى نظرة سريعة إلى مداخل جميع المباني. هل جنّ شارلوك؟ معظم المباني كانت خالية. ولكن نعم هناك! وجد هيكلاً عظيماً يراقبه من أحد المداخل، ظهر نصفه بينما بقي النصف الآخر مختبئاً في الظلال. تراجع الهيكل إلى الظلال مجدداً عندما انتبه إلى أن شارلوك لاحظته.

هل كانت هذه المخلوقات متعلقة بالأميركيين الذين خطفوهم، أم كانت هلوسات دماغ متعب؟

نظر إلى ماتي فوجده ينظر إلى مدخل المبنى أيضاً. أدار ماتي رأسه ونظر إلى شارلوك.

سأل شارلوك بيأس: «هل رأيتهما؟».

هز ماتي برأسه: «الهيكل العظمية؟ نعم. أنها تتبعنا. إنها تريدنا».

«لا أصدق أن للأموات القدرة على المشي».

«ولم لا؟».

«ألم تَرَ الأرانب الميتة عند الجزار والأسماك عند البائع المتجول».

«نعم. ما علاقتها بالأمر الحالي».

«لا تتحرك الأرانب والأسماك مطلقاً. عندما تموت يختفي منها البريق. الشيء الوحيد الذي يبقى هو اللحم وهذا يضمحل أيضاً. إن لم تستطع الحيوانات أن تحيا بعد الموت فلا يمكن للناس أن يفعلوا ذلك أيضاً».

بدا ماتي غير مقتنع: «ليس لدي الوقت كي أجادلك».

نادى راف: «هيا! يجب علينا الهرب من هنا قبل أن يعود الرجال».

وجد الرجال عربة ذات حصان مربوط إلى الشجرة. بدا الحصان بحالة أفضل من الحصانين الهزيلين الآخرين.

قال راف: «سنستخدم هذه للعودة إلى المنزل إذا عرفنا أي طريق نسلك».

قال شارلوك: «لقد حفظت الطريق. علي فقط عكس المنعطفات التي ستوصلنا إلى الفندق».

نظر ماتي إلى شارلوك وتمتم: «ولكن يجب علينا وضع كيس على رأسك. حتى تكون كل الظروف متشابهة لتلك التي مرت بها في الرحلة».

صعد ماتي وشارلوك إلى الخلف بينما جلس راف في الأمام. ضرب راف ضرباً رقيقاً على الحصان بالسوط، وانطلق الحصان بسرعة. لا يبدو أن الحصان أحب البقاء في هذه المنطقة.

وقف شارلوك خلف راف وتمسك بمقبض خشبي بينما حاول عكس الطريق الذي أحضره منه الرجلان. افترض شارلوك أن العربة تسير بالسرعة نفسها التي سارت فيها العربة التي أتيا بها إلى هنا، فكل ما كان عليه هو تذكر الانعطافات والوقت الذي يفرق بين كل انعطاف وآخر من الأسفل إلى الأعلى. وبالطبع تغيير اتجاه الانعطاف. انعطافاً إلى اليمين أو من وسط المدينة إلى المباني يعني انعطافاً إلى اليسار من المباني إلى وسط المدينة.

كلما أخذ نفساً عميقاً أحس بشيء يقبض عنقه وكأن الغضروف ضاق. ما كان أسوأ من الألم الجسدي هو الشعور بالعجز الذي أحس به في تلك الغرفة. تعرض شارلوك إلى حوادث عديدة سابقاً كاد أن يموت فيها ولكن في كل مرة شعر أن بيده وسيلة لإنقاذ نفسه أما في هذه المرة - قبل أن يتذكر سكين ماتي - فقد شعر أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسه هي الحصول على شفقة

الرجل. لولا هذا السكين لكان مات موتاً مؤلماً وبطيئاً بعد ثوانٍ فقط.

انتبه شارلوك إلى أن البقاء يعتمد على أشياء تافهة وغير متوقعة كهذه. لم تشعره هذه الفكرة بالارتياح. نظر إلى راف الذي كان مصاباً أيضاً، وتساءل إن كان يشعر بالطريقة نفسها. وصل الرجال إلى برنسس ستريت بعد نصف ساعة وانعطافتين معاكستين.

قال راف: «حسناً إلى أين نتجه الآن؟». نظر شارلوك إلى ماتي وقال له: «أتريد أن تخبره؟ ففي النهاية فكنا الشيفرة معاً».

ابتسم ماتي: «كلا. أخبره أنت». «يختبئ أميوس وفرجينيا في مكان يدعى كراموند. لقد عرفت الطريق إلى هناك من خلال الخريطة. أعتقد أننا نحتاج ساعة فقط للوصول إلى هناك».

قال ستون: «دعونا نتناول الطعام ونستحم أولاً. لا أعلم عنكما ولكنني أكاد أموت جوعاً».

عندما فرغوا من الطعام، أحضر ماتي شالاً ولفه شارلوك حول العلامات التي غطت عنقه. ثم قاد راف العربة إلى خارج المدينة بقيادة شارلوك. مرّ بعض الوقت قبل أن يخرجوا من المدينة المرصوفة بالمنازل إلى الريف. في نصف الساعة الأول من

الرحلة علم شارلوك بوجود قصر أدنبره بالقرب منهم. تلاءمت الغيوم الرمادية مع مزاج شارلوك، فقد انقلبت رحلته الممتعة للبحث عن أصدقائه إلى شيء بغيض. كان متأكداً أن هناك أشراراً منتشرين في الأرجاء أرادوا إيذاء أميوس. ولكن السؤال المهم هو لماذا؟ مهما يكن السبب، شعر شارلوك أنه دون علمه قادهم إلى مكان وجود أميوس فكل ما كان باستطاعته فعله هو الوصول إلى هناك قبلهم.

نظر شارلوك إلى الخلف منتظراً عربة أو عربات عدة تلحق بهم ولكنه لم يَرَ شيئاً. شعر أن عليه بذل جهد أكبر للتأكد أنه ليس هناك من يتتبعهم. أوقف راف ستون العربة مرتين وأخفاها خلف اسطبل بينما راقب شارلوك كل من في العربات المارة في الطريق. لم يلاحظ أي وجه مشبوه أو علامات استغراب على وجه أحد السائقين لاختفاء العربة التي كان يتتبعها.

أثناء الانتظار اقترب شارلوك من راف وقال له: «ظننت أنه تم اختطافك من قبل البارادول تشامبر عندما كنا في محطة القطار».

«لماذا ظننت ذلك؟ لم نرهم أو نسمع شيئاً عنهم منذ أن كنا في موسكو ما عدا تلك المرة التي حاولوا بها تشخيص إصابتك بمرض عقلي وإبقاءك في مصح لما تبقى من حياتك».

كشّر شارلوك عندما تذكر تلك الحادثة: «ظننت أنني رأيت السيد كايّيت في محطة نيوكاسل. كان واقفاً خلف كدس من الصناديق، وينظر إليّ»، توقف للحظة وأحس بضيق في صدره، «اعتقدت أن البارادول تشامبر تريد الانتقام منا لإفساد مشروعهم».

هز راف كتفيه وقال: «لم أر السيد كايّيت في المحطة. لو رأيته لكنت أخذت ذقنه الحمراء الطويلة ودفعت أكبر قدر منها إلى داخل حلقه. خُذ نصيحتي يا شارلوك: لا تثق برجل أحمر الشعر أو امرأة حمراء الشعر. لقد وُجدا لصنع المشاكل».

أشار شارلوك: «شعر فيرجينيا أحمر».

استدار راف وحذّر شارلوك: «في هذه الحالة حضّر نفسك لكثير من المتاعب يا رفيقي».

شعر شارلوك بعدم الارتياح لأنه أصبح موضوع الحديث فقال بسرعة: «برأيك ماذا يريد هؤلاء الأشخاص من أميوس غروي؟».

«الأمر نفسه الذي تظن أن البارادول تشامبر تريده منا؛ الانتقام».

«ولكن ماذا فعل السيد غروي لينتقموا منه؟».

رد راف: «أميوس غروي وحش معقّد. من جهة هو متحضّر ورزين ومتفهم ولكن من جهة أخرى» توقف ثم تابع: «لنقل

الأمر بهذه الطريقة: لن نعب بماضي أميوس لو عرفناه». اعترض شارلوك: «قال لنا في السابق أنه عمل جاسوساً للاتحاد ضد التحالف في الحرب الأهلية. بعد ذلك عمل مسؤولاً عن تعقب مجرمي التحالف الذين قاموا بسرقة البلدات والمدنيين أثناء الحرب».

اعترف راف: «نعم. لقد أخبرنا بذلك. ولكنه لم يخبرنا كم تعمق للوصول إلى المجرمين. وكم مجرم تمكن أن يعيده ليواجه القضاء وكم قتل منهم أثناء عمليات الدهم. تذكر يا شارلوك، يصطاد هذا الرجال الناس مقابل المال». تنهد ثم أكمل: «ولكن في هذه الحالة يحاول الناس اصطياده، ولكن هذه المرة ليس للمال، بل للانتقام».

قال شارلوك: «من الواضح أنك لا تحب أميوس غروي. أليس كذلك؟».

ابتسم راف: «لقد انتبهت لذلك بسرعة، كلا. هو ليس من النوع الذي أود أن أنضم إليه في مقهى لتناول الشراب والتدخين. ليس هناك الكثير لنتكلم عنه ولكن هناك الكثير لنتجادل فيه. لدي احترام كبير لقداسة روح الإنسان، على عكس أميوس غروي الذي لا يمانع سلب حياة إنسان لمجرد استفزاز صغير. وما يجعل الأمور أسوأ هو أنه لا يحب الموسيقى».

بقي شارلوك صامتاً لبرهة محاولاً استيعاب كل ما قاله راف. وجد كلامه منطقياً ووصفه لأميوس غروي دقيق ولكنه لم يستطع في الوقت نفسه ربط هذه الكلمات الفجة بالابتسامة اللطيفة التي رآه على وجه السيد غروي سابقاً أو عندما احتضنه غروي واعتنى به. هل كان كل البشر هكذا؛ معقدين؟ إذا كانت هذه هي الحالة فماذا عن راف ستون؟ مايكروفت؟ أو حتى نفسه.

نحى تلك الفكرة جانباً. فضل تصديق أن الناس هم تماماً ما كانوا يعرضونه على وجوههم.

سأل شارلوك بعد صمت طويل: «كم تقدر عدد الأميركيين الموجودين هنا في إنجلترا ليطاردوا السيد غروي؟».

قال راف مفكراً: «من المستحيل التأكد من العدد. كان هناك ثلاثة رجال معنا في الغرفة. زد عليهم قائد العربة - معتبراً أنه جزء من العصابة ولم يتم تعيينه ليوم واحد فقط - ولديهم اثنان آخران رأيتهما سابقاً. المشكلة هي أنه قد يكون هناك مزيد من الرجال الذين لا نعرف عنهم شيئاً».

قال شارلوك: «حملني رجلان إلى العربة».

أضاف ماتي: «وأنا أيضاً».

«المشكلة هي أنه لو أتى قائد العصابة إلى هنا محملاً بالمال فسيستطيع دفع المال لأي شخص من أي جنسية لينضم إليه.

هناك كثير من المواطنين في المدن البريطانية الكبرى مستعدون لقتل جداتهم مقابل مالٍ كافٍ لاحتساء بعض الشراب والمقامرة». تنهّد وأضاف: «هناك عدد كبير من الرجال السيئين هنا وليس هناك عدد كافٍ من الصالحين لردعهم».

قال شارلوك: «لا بأس بذلك. فيساوي كل رجل صالح عشرة رجال سيئين».

تذمر ماتي ونظر إلى راف متشككاً: «آه لو أن الدنيا هكذا لكانت الأحوال أفضل بكثير».

تمتم شارلوك: «عندما أكبر سأجعل الأحوال أفضل بكثير». قال راف وابتسم بطريقة غريبة: «أتعرف شيئاً؟ أعتقد أنك وأخاك قادران على فعل ذلك».

«ولكنني لن أعمل للحكومة كمايكروفت».

سأل ماتي: «لماذا؟».

أجاب شارلوك: «لا أحب تلقي الأوامر من أحد. مع العلم أنه في بعض الأحيان أضطر لذلك ولكن رغماً عني».

عندما أكملوا طريقهم لم يكن هناك أحد على الطريق. يبدو أنهم تمكّنوا من الخروج من المدينة دون أن يلاحظهم أحد.

كان المنظر مزيجاً من الغابات والأراضي الزراعية، وكان الطريق كثير التعرجات والمطبات لدرجة أنه لم يمتد مستقيماً لأكثر من بضع دقائق.

كراموند مدينة ساحلية: مجموعة من الأكواخ المصنوعة من
الغرانيت ذات الأسقف القرمدية. تظهر بعض الطحالب الخضراء
من بين الصخور التي تشكل جدار الأكواخ. ملأ الملح الهواء
وبكت طيور النورس كأطفال ضائعين.

بينما انعطفت العربة حول هضبة تمكن شارلوك من رؤية البحر
أمامه. تلالأت الأمواج تحت أشعة الشمس ما جعلها تبدو كنمط
منوم، ومع اقترابهم من الشاطئ عانقت الأمواج الرمال تاركة
زبدًا أبيض اللون اختفى هو الآخر مع مرور الوقت.

قال راف: «إذًا ها هي كراموند. هل لديكما أي فكرة إلى أين
علينا أن نتوجه؟».

قال ماتي: «يمكننا السؤال عن رجل أميركي ضخم يرتدي بذلة
وقبعة بيضاء».

تسلق الرجال الطريق المنحدر باستخدام ساقيهما ويديهما.
عندما وصلوا إلى الأعلى التفت شارلوك إلى الخلف، وتفاجأ
بالعلو الذي وصلوا إليه. رأى في الأفق البعيد، الخط الداكن حيث
تلتقي السماء الرمادية بمياه البحر الرمادية.

ضاق الطريق أمامهم أكثر، وانعطف إلى اليمين بحيث كان من
المستحيل رؤية الطريق الذي بات مخبأ. تابعوا السير متعبين
بسبب صعوبة التسلق.

بعد بضع دقائق التفت شارلوك إلى الخلف مجدداً. رأى شارلوك جانب الطريق الذي تسلكه للتو ولكنه لم يَرَ شيئاً خلفه سوى السماء بسبب انحدار الطريق الشديد.

أخيراً، بعدما انعطفوا إلى اليمين رأى الرجال كوخاً وحيداً. بدا الكوخ وكأنه ولد في هذه الأرض بجدارية المبني من الغرانيت الرمادي الذي أرهقته العواصف. كان الكوخ موجوداً على حافة الوادي الضيق. تناثرت أمام المنزل أحجار من مختلف الحجم سقطت من التلة مع مرور السنين. وأحاطت بجانب المنزل حجارة عملاقة ومنحدرة شكّلت مساراً وعراً إلى التلال المجاورة. إذا كان هذا مكان اختباء أميوس غروي، فشارلوك يؤيد خياره، لأن العدو لن يستطيع مهاجمته إلا من الجهة الأمامية بعدما يصعد التلة المنحدرة. فعلى الجانبين ومن الخلف صخور خطيرة يتسلقها فقط من هو مستعد للمجازفة بحياته.

وقف الفتى الذي يقود الطريق على مسافة يستطيع منها رؤية النوافذ. وقف خلفه شارلوك وماتي وراف حين فُتحت إحدى النوافذ ومن ثم أغلقت بسرعة. من الواضح أنها كانت إشارة تدل على أن الاقتراب آمن. فجأة لمعت في ذهنه صورة أميوس غروي وهو يجلس خلف نافذة هذا الكوخ حاملاً مسدسه. إذا اقترب شخص من الكوخ دون التعريف عن نفسه أولاً، كان شارلوك متأكداً أن أميوس سيطلق النار عليه.

استدار الفتى وقال للرجال: «لقد سمح لنا الرئيس بالدخول».
قال شارلوك: «شكراً». ثم مد يده إلى جيبه وسحب بعض
النقود وقدمها للفتى: «نقدّر مساعدتك».
نظر الفتى إلى النقود وقال مبقياً يديه إلى جانبه: «يدفع لي
الرئيس ما يكفي. يقول لي الرئيس دائماً من يأخذ النقود من
رئيسين لا يمكن لأي منهما الوثوق به».
هز شارلوك رأسه وأعاد النقود إلى جيبه: «نصيحة جيدة».
عاد الفتى أدراجه إلى أسفل التل.
سأل ماتي: «ماذا الآن؟».
قال شارلوك وهو متّجه نحو الكوخ: «الآن سنفهم ماذا يدور
حولنا».

الفصل الثاني عشر

كانت الخطوات الأخيرة أصعب خطوات خطاها شارلوك في حياته. لم يعرف أي نوع من الاستقبال سيحصل عليه؛ هل سيفرح أميوس لرؤيته أم لا، لم يعرف إن كانت فيرجينيا موجودة هنا أم خبأها أميوس في مكان آخر، ولكن الأهم من ذلك لم يكن يعرف إن كان أميوس وفيرجينيا غروي سيعودان إلى فارنهام أم سيكون هذا الكوخ مكان إقامتهما المؤقت قبل مغادرة البلاد.

لم يكن لديه معلومات كافية ليقوم باستخلاص أمر ما وهذا ما جعله يشعر بعدم الارتياح.

تسارعت دقات قلبه عندما وصل إلى مدخل الكوخ. كان الباب مغلقاً فاضطر شارلوك لقرعه.

نادى صوت مألوف من الداخل: «ادخل».

دفع شارلوك الباب، وقاد الطريق إلى الداخل. انتظر بضع ثوان حتى ألفت عيناه الرؤية في الظلام السائد داخل الغرفة؛ لا بد أن هذه حيلة أخرى للسيد غروي. عندما استطاع الرؤية بوضوح، انتبه إلى أن السيد غروي كان واقفاً في الجانب الآخر من الغرفة. ارتدى أميوس بذلة غامقة وحمل مسدسه بيديه.

قال غروي: «أحسنّت. تمكّنت من حل الألغاز. توقعت أنك ستتمكن من ذلك».

هزّ شارلوك كتفيه وقال: «لم تكن صعبة».

حوّل نظره إلى صاحبي شارلوك: «ربما لم تكن صعبة لك. مرحبا بك أيها السيد الشاب أرناات في كوخى المؤقت. وأنت أيضا سيد ستون. سأبقى بالقرب من النافذة إذا لم يكن لديكم من مانع. أنا لا أتوقع مجيء أي زوار، ولكن لا يعلم المرء متى يفاجئه الضيوف. هل أستطيع أن أقدم لكم أي شراب ربما بعض الماء؟».

قال راف ستون: «بعد تسلق التلة أعتقد أنني أحتاج إلى شيء أشربه».

ابتسم غروي: «أعتقد أن لدي بعض الشراب هنا». رفع صوته ثم تابع: «فيرجينيا يمكنك الخروج الآن. لدينا زوار».

فُتح باب خلف شارلوك، وظهرت فيرجينيا من خلف الباب. لمع شعرها كالنار في الظلام. سمّرت عينيها على الأرض خجلاً، على غير عاداتها، ولكنها رفعتهما بعد بضع ثوان ونظرت إلى شارلوك.

ثم ركضت نحوه بسرعة، لفت ذراعيها حول رقبتة، وبدأت تقبله. حلم شارلوك من قبل بتقبيل فيرجينيا، ولكن في الحقيقة كان الشعور أجمل بكثير من الأحلام. فقد أحس بثقل جسمها بين يديه، وبدفء شفيتها على شفتيه، رائحة شعرها... شعر بالارتباك. لم يكن عقله متأكداً مما عليه فعله، ولكنه انتبه فجأة أنه يقبل فيرجينيا دون تفكير.

ابتعدت فيرجينيا عن شارلوك قليلاً. لم تدفعه بل خطت خطوة إلى الوراء فقط. كان ليعتبر تلك الحركة دلالة على رفضها له لولا أنها أرخت يديها على ذراعيه. نظرت إليه وانتبه أنها كانت على وشك البكاء.

همست فيرجينيا: «جئت لتبحث عنا». قال ببساطة ومن دون تفكير: «اضطرت لذلك. لا أستطيع العيش من دونك».

قاطعها أميوس: «أكره مقاطعتكما ولكن هناك كثير من الكلام الذي يجب أن يُقال. بالإضافة إلى ذلك أعتقد أن السيد ستون سيفقد وعيه إن لم يحصل على شرابه. حبيبتي أحضري بعض الطعام لضيوفنا».

ضغطت فيرجينيا على يد شارلوك لثانية قبل أن تفلتها، وانسحبت إلى المطبخ من دون أن تبعد عينيها عن عيني شارلوك. غرق شارلوك في عينيها، وأحس أنها ترسل له رسالة لم يفهمها. قد لا تعرف هي أيضاً ماهية هذه الرسالة. من الأرجح أن الأمر المهم هو في وجود رسالة بغض النظر عن محتواها.

توقفت فيرجينيا عن النظر إلى شارلوك، فأحس بأنه دمية مسرحية تم إفلاتها من خيوطها. أعاد شارلوك النظر إلى كل الموجودين في الغرفة، ولكن العالم حينها كان قد تغير. كل شيء

بدا طبيعياً ومختلفاً في الوقت نفسه. لم يستطع إيجاد تفسير لذلك.

نظر أميوس غروي إلى شارلوك نظرة غريبة. رفع حاجبه وقال: «سأكتفي بمصافحة إذا أردت».

ابتسم شارلوك وقال: «أنا سعيد لأنك بخير، بالأحرى لأنكما بخير. عندما وجدنا كوخك مهجوراً قلقنا عليكما».

هزّ غروي رأسه: «لم أستطع إخبارك. أعلمني أحدهم بأن هناك من يبحث عني وعن ابنتي. في العادة أبحث عن الأشخاص وأجعلهم يتمنون عدم رؤيتي مجدداً، ولكن عندما سمعت الوصف الدقيق لهذه العصاة التي تتعقبني قررت أن الهرب هو الخيار الأمثل».

سأل ستون: «هل هم بهذه الخطورة؟ علي الاعتراف أن شارلوك تعامل مع اثنين منهم ببراعة - كان لأحدهما شعر أسود وبدا سمعه ضعيفاً بعض الشيء وكان للآخر وجه يشبه البطاطا».

قال غروي: «نعم إنهما نيد فيلون وتوم بابن. لا أهمية لهما باستثناء أنهما مساعدان. الشخص الذي يعملان لصالحه هو الذي يخيفني». انتبه غروي أخيراً، إلى أنه لا يزال ممسكاً بالمسدس فوضعه على الطاولة.

عندها صرح شارلوك: «أعتقد أننا التقيناه أيضاً. لم أستطع رؤية وجهه، ولكنني سمعته يتكلم بصوت منخفض وهادئ». بدوره قال ستون: «لقد رأيته ويا ليتني لم أره، فالوشوم تغطي جسده، والغريب بالأمر أن هذه الوشوم لم تكن رسوماً أو صوراً بل كانت عبارة عن أسماء أشخاص». نظر راف بسرعة إلى فيرجينيا، فما كان من غروي إلا أن هزّ رأسه محذراً راف من التكلم، والتقط شارلوك الإيماءة وفهم مغزاها وهو اللبيب الذي يفهم من الإشارة.

في تلك الأثناء قال غروي: «يُدعى زعيم العصاة برايس سكوبيل، من الواضح أنه هنا». تنهّد وتابع كلامه: «تمنيت لو أرسل رجاله فقط للبحث عني، ولكن يبدو أنني أفرطت في التفاؤل بهذا الشأن، يبدو أن توقيه للانتقام مني دفعه لقطع المسافة من أميركا إلى هنا. لقد رأيته في فارنهام أليس كذلك؟».

اعترف شارلوك وهو يشعر بتأنيب الضمير: «أخشى أنه لحقنا إلى هنا. إلى أدنبره».

حتى في ظل الظلام الذي يخيم على أرجاء الغرفة تمكن شارلوك من رؤية وجه أميوس يمتقع. كان شارلوك يفهم أميوس بشكل جيد، وأدرك خطورة الوضع، وفي تلك الأثناء استل أميوس المسدس من الطاولة، وحقق عبر النافذة ماسحاً بعينه

الطريق المؤدي إلى الكوخ. وقال الأميركي وهو يحاول انتقاء كلماته بحذر رجل يقفز على الحجارة ليجتاز نهراً هادراً: «لقد توقعت منكم أن تخفوا أثركم بطريقة أفضل. هل يعلم بـمكان الكوخ؟».

«كلا».

هز غروي رأسه: «إنها مسألة وقت قبل أن يكتشف مكان الكوخ. كيف تصرفت برعونة يا شارلوك، فأنا لم أعهدك إلا يقظاً فطناً».

أجابه شارلوك بتوتر: «سمع الرجل حديثي مع ماتى قبل أن نتوجه إلى أدنبره. فقد وضع أنبوباً أو شيئاً من هذا القبيل في كوخك واسترق من خلاله السمع».

هز غروي برأسه: «تصرّف ذكي».

أضاف ماتى: «لقد اختطفوا راف على متن القطار ومن ثم اختطفوني وشارلوك ولكننا تمكنا من الهرب».

تجهّم وجه غروي: «هربتم؟ أشك في ذلك. لا بد من أنه أطلق سراحكم».

شعر ماتى بالإهانة: «كسر شارلوك سيقان فيلون وباين».

هز غروي كتفيه: «يعتبر سكوبيل هذا ثمناً بخساً يدفعه للحاق بكم إلى هنا».

أشار شارلوك: «عذبي للحصول على معلومات عنك. كان من السهل أن يتابع تعذيبي حتى يحصل على المعلومات التي يحتاج إليها من دون أن يخسر مساعديه».

لم تزل علامات الغضب عن وجه غروي ولكنه أبعد يده عن المسدس: «ربما. هل أنت متأكد أن أحداً لم يتبعك إلى هنا؟». قال شارلوك بحزم: «نعم. متأكد».

سأل ماتي: «بماذا يختلف سكوبيل عن باقي الرجال الذين حاولوا الانتقام منك؟ صحيح أنه يستمتع بإيذاء الناس ولكن يوجد مثله في كل البلاد». هز شارلوك رأسه موافقاً. عندها تذكر جوش هاركينز، المخادع الذي كانت السيدة إيغلانتين تعمل لصالحه. اعتبر شارلوك هاركينز من أسوأ المخادعين: فهل يمكن لسكوبيل أن يكون أكثر سوءاً؟

ردّ غروي: «هناك كثير من الأمثلة التي أستطيع إعطائك إياها وتظهر مدى اختلاف سكوبيل عن الرجال الآخرين ولكنني سأكتفي بمثل واحد». لم ينظر غروي إلى شارلوك أو أيٍّ من الرجلين الآخرين بل نظر إلى شيء لم يتمكن أحد سواه رؤيته. تابع غروي كلامه: «كان سكوبيل مقدماً في جيش التحالف. لم يكن القائد حينها. لا أعرف إن كانت هناك كلمة تصفه الوصف الذي يستحقه؛ إنه ليس شريراً، ولكن يبدو أن جيناته تخلو مما يمكن تسميته الشعور بالذنب أو العار أو الندم، حتى أن المشاعر

العادية كالحزن والفرح يبدو أنها لم تعرف يوماً طريقها إلى قلبه وأحاسيسه، وهو بخلاف الآخرين لا يعنيه من هذه الحياة سوى البقاء على قيد الحياة أياً يكن الثمن، وأحد مبادئه الأساسية أن لا مبدأ له وأن لا شيء يستحق في الحياة أن ينال اهتمامه سوى سلامته الشخصية». تنهد ثم تابع: «سمعت به للمرة الأولى عندما أرسل للتعامل مع انتفاضة للقبائل المحلية. استغلت تلك القبائل ظروف حرب الولايات لمهاجمة العائلات والسكان وقتلهم. كان سكوبيل تحت إمرة الكولونيل جون تشيفينغتون حينها، وقد ذهباً برفقة جنود لإيقاف أرافو وشيني من إكمال الانتفاضة».

في تلك الأثناء، دخلت فيرجينيا إلى الغرفة حاملة صينية عليها خمسة أكواب وطبق من كعك الشوفان. لم يلاحظ أي من الرجال فيرجينيا وهي تغادر الغرفة إلى المطبخ بسبب الانسجام الشديد بقصة أميوس غروي. أعطت كوبين من الشراب إلى راف ووالدها ومن ثم مررت كوبين من الماء إلى شارلوك وماتي. وناولت الجميع كعك الشوفان دون استثناء.

تابع غروي الكلام: «كان هذا منذ خمس أو ست سنوات، في الماضي كان تشيفينغتون راعي الأبرشية في الكنيسة، وبالنسبة إليه لم تكن روح التسامح والتعاون مع الإنسان الآخر التي تدعو إليها الكنيسة تشمل الهنود. كره الهنود كما يكره الرجل العقارب

والكلاب المسعورة. حينها لم يكره سكوبيل الهنود ولكنه كان يعتبرهم أقل قيمة من سائر البشر ومن الواجب إبادتهم. تحت إشراف تشيفينغتون وسكوبيل لم يكتفِ الجنود بمهاجمة شيني وأرافو بل هاجموا كومانش وكيوا أيضاً».

شرب غروي قليلاً من الشراب. لم يتدخل أحد لكسر السكينة السائدة.

تابع غروي: «تعرّض الهنود إلى خسائر فادحة أثناء الهجوم فقرروا توقيع اتفاقية سلام. خرج الهنود من الاجتماع مطمئني البال لعقد اتفاقية سلام مع السلطة، إلا أنه لم يوقع أي من الطرفين وثيقة تؤكد ما تم الاتفاق عليه. بعد بضعة أيام، خيم قائد هندي يدعى بلاك كيتل وقبيلته قرب فورت ليون. لم يؤذوا أحداً، بل لحقوا بجاموس على ضفة النهر فالجاموس يعني الكثير لهم لأنهم يستعملونه للحصول على اللحم والملابس والزيت».

فجأة توقف غروي عن الكلام ونظر خارج النافذة. مد يده إلى الطاولة وأمسك بالمسدس، ولكن من الواضح أن ما رآه كان شيئاً بريئاً كعصفور أو حيوان، لأنه سرعان ما ترك المسدس وتابع حديثه.

«عند انتهاء الصيد عاد الناس إلى فورت ليون وخيموا في ساند كريك، حوالى أربعين ميلاً إلى الشمال من فورت ليون. كان

المخيم محاطاً بهضاب صغيرة. بعد قليل وصل تشيفينغتون وسكوبيل إلى فورت ليون وأخبروا القائد العسكري هناك أنهم سيهاجمون قبيلة بلاك كيتل. اعترض القائد لأن قبيلة بلاك كيتل استسلمت سابقاً، ولكن سكوبيل أقنعه أنها الفرصة المثالية لقتل أكبر عدد من الهنود. كانت هذه طريقته الخاصة لإقناع الناس عادة. في اليوم التالي، قاد تشيفينغتون جنوده، كان معظمهم ثملين، إلى المخيم حيث حاصروه. اتبع تشيفينغتون نصيحة سكوبيل وأحضر أربعة مدافع».

جلست فيرجينيا على كرسي إلى جانب شارلوك. بطريقة ما وجد شارلوك يدها في يده، ضغط على يدها مطمئناً فضغطت بدورها على يده.

أضاف غروي: «عندما رأت قبيلة بلاك كيتل الجنود يحاصرون المخيم رفعت العلم الأبيض معلنة الاستسلام. ولكن من دون إنذار ومن دون استشارة تشيفينغتون أعطى سكوبيل إشارة الهجوم».

صمت غروي قليلاً، وكانت سيطرة السكينة على الغرفة قوية. «شهدت القبيلة يومها مجزرة أدت إلى مقتل معظم أفراد القبيلة وتدمير المخيم الذي أصبح أطلالاً. لم يفرق الجنود بين الرجال والنساء والأطفال بل قتلوهم جميعاً بالمدافع والبنادق. لم تكن بين أيدي أفراد القبيلة وسيلة للدفاع عن أنفسهم.

وعندما نفدت الذخائر من أسلحتها دخل الجنود المخيم بقيادة سكوبيل، وقتلوا كل هندي بالسلاح الأبيض. لم ينبج أحد». قال شارلوك والصدمة تعلو وجهه: «لا بد أن أحداً قام بشيء لمحاسبة سكوبيل وتشيفينغتون لعدم التزامهما باتفاقية السلام».

ضحك غروي: «أي اتفاقية سلام؟ لم يكن هناك أي عقد يوثق تلك الاتفاقية». عندما فتح شارلوك فمه ليقول شيئاً، رفع غروي يده ليوقفه وتابع: «أُحيلت قضية تشيفينغتون إلى المحكمة العسكرية وأُجبر على الانسحاب من الجيش. أما سكوبيل فاختفى عن الأنظار ولا يزال مطارداً حتى الآن».

همست فيرجينيا: «ولكنني لا أفهم لماذا قتلوا الأطفال؟». «عندما سُئل في المحكمة عن سبب قتل الأطفال ردّ تشيفينغتون: «حتى لا يتأذى البيض؟» والمضحك في الأمر هو أنني أستطيع تخيل سكوبيل يقول هذا الكلام. أعتقد أن لسكوبيل تأثيراً على القائد أكثر مما يعتقد كثير من الناس». هنا أدلى راف بدلوه قائلاً: «أعتقد أنه أنيطت بك مهمة جلب سكوبيل إلى المحكمة ليواجه مصيره وينال جزاء ما اقترفت يداه».

أجابه غروي ومسحة من الشجن تعلو كلماته: «صحيح، كما أنيطت بي مهمة تنفيذ العقوبة التي يستحقها بنفسه، لقد

منحني هذه الصلاحية الرئيس أندرو جونسون شخصياً». تابع غروي كلامه قائلاً: «لقد واجهت رجالاً خطيرين في السابق. لقد واجهت أخطر وأعنف الرجال في العالم ولكن برايس سكوبيل يختلف عن الجميع. من الصعب شرح الأمر ولكن هناك شيئاً.... غير إنساني فيه. يخاف معظم الناس من الألم والدمار ما يساعدك خلال المعركة ولكن هذه الأمور لا تخيفه. إنه لا يعيرها اهتماماً. أنا لا أقول إنه لا يشعر بالألم، لأنه يشعر به بكل تأكيد، ولكنه لا يهتم للألم وحتى لا يتذكره. عندما تصفع رجلاً عادياً على وجهه مرات عدة يتراجع خوفاً من الألم مرة أخرى، ولكن إن صفعت سكوبيل سيتذكر الصفعة وسينسى الألم الذي رافقها، ولن يحاول تجنب الصفعة في المرة القادمة، أوقعه مرة وسيقف مجدداً». هز رأسه وتابع: «أعلم أنكم لا تفهمون ما أقوله، ولكن مواجهة برايس سكوبيل أشبه بمواجهة قوة خارقة. لا يمكن رده. هذا الأمر سيئ بما فيه الكافية حتى ولو كان غيباً، ولكنه من أذكى الناس الذين أعرفهم. يفكر بخطواته القادمة كأنه يلعب الشطرنج وهو يجذب إليه كل الناس الذين يشبهونه».

قالت فيرجينيا فجأة: «ولكنني لا أفهم سبب وضع وشوم لأسماء أشخاص على جسده. لماذا يفعل ذلك؟ وماذا يعني ذلك؟».

رد والدها بقسوة: «لقد أخبرني بعضهم أنه كان لديه ثلاثة وشوم لأسماء على يده عندما دخل إلى جيش التحالف. سأله أحد الجنود عن تلك الوشوم فقال له إنها أسماء الأشخاص الذي قتلهم». توقف وهز رأسه بحزن ثم أكمل: «كان عمره ثماني عشرة سنة فقط. وضع تلك الأسماء مع تاريخ قتلهم على جسده للأبد. قال إنه لا يريد أن ينساهم». هز كتفيه وقال: «طبعاً في الحرب لا يعرف المرء أسماء كل الأشخاص الذين قتلهم، فكان يترك لهم مكاناً فارغاً ويبذل جهده ليعرف مزيداً عنهم لاحقاً. بعد حرب الولايات أنفق كثيراً من المال ليضع وشوماً لجميع جنود الاتحاد الذي قتلوا في مكان معين ووقت معين. حتى أنه حاول معرفة أسماء الهنود الذي قتلهم. وضع اسم بلاك كيتل على رقبته. إنه مهووس بهذه الفكرة».

سأل راف ستون: «وماذا عن الأسماء المكتوبة بالحبر الأحمر؟».

نظر غروي إلى راف. اعتبر شارلوك النظرة إنذاراً لراف كي لا يذكر اسم فيرجينيا. قال ببطء: «هذه أسماء الأشخاص الذي يريد قتلهم ولكن لم يقم بذلك بعد. أعتقد أنها خططه المستقبلية. وعندما يقتل هؤلاء الأشخاص يغطي الوشم بالحبر الأسود. قيل لي إنه وشم اسمي على يده بالحبر الأحمر حتى يتمكن من رؤيته كل يوم».

عبس راف وقال: «يبدو أنه فوّت تفصيلاً مهماً. أعني أنه هارب منك ومن الحكومة الأميركية ولكنه يحاول أن يجعل نفسه مكشوفاً ومعروفاً أكثر من خلال الوشوم التي يزيدها. لو كنت مكانه لكنت صبغت شعري باللون الذهبي واختفيت عن الأنظار». فسر غروي: «إنها عادة. لا يمكن للرجل أن يضبط نفسه. ومن المذهل كم يستطيع قفازان، وبعض مساحيق التجميل وشال حول الرقبة تغيير مظهر الإنسان».

سأل ماتي: «إذاً ما هي الخطة؟ ما الذي سنقدم عليه؟». ردّ غروي: «لن نفعل شيئاً. سأهرب وفيرجينيا من البلد. سنغير اسمينا ومظهرينا قدر المستطاع. وأنتم عليكم الرحيل إلى فارنهام ونسياننا».

صدمت هذه الكلمات شارلوك فنظر إلى فيرجينيا ثم قال: «لا أعتقد أننا نستطيع القيام بذلك».

عبس راف ستون: «لا أفهم. لماذا تركت كل الأدلة لتحضرنا إلى هنا إذا لم تكن بحاجة إلينا؟».

أغمض غروي عينيه للحظة وقال: «لأنني أردت توديعكم ولأنني أردت أن أفسر لكم شخصياً سبب هربنا. أردتكم أن تفهموا حجم الورطة التي أنا فيها. لن يستسلم سكوبيل وسيحاول الوصول إليّ مهما كلف الأمر. سيخفي أثره حتى أتوقف عن الاختباء أو سيضعني في فخ».

ساد صمت ثقيل في الغرفة بينما حاول الجميع استيعاب ما قاله غروي.

في النهاية قال شارلوك: «هناك مشكلتان في كل ما قلته». رفع غروي حاجبه وقال: «وما هما؟».

أكمل شارلوك غير عابئ بموقف غروي: «المشكلة الأولى هي أن هذا الرجل، برايس سكوبيل، سيظل يبحث عنك. لو كان فعلاً ذكياً ومثابراً كما قلت سيجدك أينما تذهب ومهما يستغرق وقت الوصول إليك».

هز راف رأسه وقال: «معك حق».

سأل ماتي: «وما هي المشكلة الثانية».

استجمع شارلوك أفكاره بطريقة منطقية وقال: «المشكلة هي أنك تتعامل مع المسألة كأنها عملية اصطیاد عادية. علمتني في السابق أنك تعامل الأشخاص كالحيوانات. إذا كنت تصطادهم تحاول توقع حركاتهم وفقاً لعاداتهم، وتبحث عن إشارة تدل على وجودهم في مكان معين؛ بحث عن الإشارات التي لا يمكن إزالتها كآثار الأقدام التي تتركها الحيوانات».

اعترف غروي: «لطالما اعتبرت الناس فصيلة أخرى من الحيوانات وأتت هذه الفكرة لصالحي في معظم الأحيان. فما هي الفكرة التي تحاول إيصالها؟».

«برائيس سكوبيل ليس الحيوان هذه المرة بل قلب الأدوار. يعاملك كحيوان ويتعقبك أينما ذهبت وهذا ما أخافك. عليك تغيير طريقتك في التعامل مع الأمور. تغيّرت الأدوار في اللعبة الآن».

نظر غروي إلى شارلوك بعينين لامعتين تحت حاجبيه الكثّين وقال بتحدٍّ: «أتقصد أنه أذكى مني؟».

ردّ شارلوك ببساطة: «نعم. إذا تم عكس الأدوار فلنغيّر اللعبة كلها. إذا كان سكوبيل صياداً أفضل منك فلنلعب لعبة غير الصيد. وإذا كان لاعباً أفضل منك فلنقم بشيء أكثر جدية من اللعب. لا تدعه يختز طريقة القتال. بل غير قواعد الاشتباك».

دمدم غروي ولكنه بدا متفاجئاً عند سماع كلمات شارلوك: «كلامك جميل وسهل القول، ولكن تنفيذه صعب».

قال شارلوك: «ما دام سكوبيل يبحث عنك فلا تختبئ. لا تفعل ما يتوقع منك فعله. ابق في الخارج مكشوفاً. سيظن أن في الأمر حيلة فيترجع».

خاطب غروي شارلوك بتحدٍّ: «ومن ثم ماذا أفعل؟».

«سيرتكب خطأً، وتعكس الأدوار مرة أخرى».

هز غروي رأسه وقال: «عندما تلعب لعبة الصيد وأنت خاسر فغيّر القوانين».

«عندما يكون العدو أذكى وأوسع حيلة منك فتأكد من أن اللعبة لا تعتمد على أن الرابع يجب أن يتمتع بالذكاء والمكر». ابتسم غروي وفتح فمه ليقول شيئاً، ولكن صوتاً صادراً من سطح الكوخ قاطعه. نظر غروي إلى الأعلى وأمسك بالمسدس ثم نظر إلى النافذة مجدداً. نظر شارلوك إلى خارج النافذة أيضاً. وجد الطريق المؤدي إلى الكوخ خالياً ولكنه شم رائحة غريبة. كانت رائحة... حريق».

قال شارلوك: «حريق! أشم رائحة دخان». تحرك أميوس غروي بسرعة نحو النوافذ: «لا شيء يحترق في الخارج».

نظر شارلوك إلى الباب ومن ثم إلى أنحاء الكوخ. هل كان يتخيل أم كان هناك وهج في الخارج».

قال: «إنه سكوبيل. لقد أضرم النار في الكوخ». عندها سأل راف: «ولكن كيف؟ لم يقترب أحد من هنا؟ كيف وجدنا؟».

رد شارلوك: «لم يكن عليه الاقتراب منا. لقد رمى شيئاً على سطح الكوخ من التلال خلف الكوخ! لا بد من أنه أضرم النار في شيء ورماه على السطح المصنوع من القش الجاف. ستنتقل النيران بسرعة ويحترق الكوخ في غضون دقيقة».

الفصل الثالث العشر

صرخ ماتي: «لنهرب».

تحرك شارلوك، وأمسك بيد فيرجينيا ليتأكد من أنها بأمان واتجها نحو الباب. أمسك غروي كتف شارلوك وقال له: «يا بني، سكوبيل على الأرجح في الخارج، وستكون بحوزته بندق وسيصطادنا كالأرنب».

فجأة، لمعت في ذهن شارلوك صورة الأرنب المقطوع الرأس الذي رآه أمام كوخ أميوس غروي في فارنهام. لم يرغب بأن تكون نهايته شبيهة بنهاية ذلك الأرنب.

تدخل ستون قائلاً: «ولكن ما من خيار أمامنا. إن بقينا هنا سنحترق».

استطاع الرجال سماع صوت النيران وهي تلتهم القش الجاف، كان الصوت أشبه بعيدان خشبية تتكسر بين يدين عملاقتين. بدأ الدخان يتسرب إلى الغرفة عبر فتحة في الباب ما صعب من الرؤية والتنفس على حدّ سواء.

فجأة قال شارلوك: «لا أظن أنه يريد قتلنا حرقاً». نظر غروي إليه مستغرباً.

«سكوبيل يريد الانتقام منك. إضرام النار بك ليس كافياً؛ خاصة أنه ليس متأكداً من أنك داخل الكوخ».

سأل ستون وهو يحاول كبح سعاله: «إذاً ما العمل؟».

«إنه يسعى لإخراجنا من الكوخ. لا بد من أنه نشر رجاله المسلحين أسفل التلة وهم سينتظرون نزولنا ليلقوا القبض علينا».

قال ماتي باكياً: «ولكن لا خيار آخر أمامنا!». هز غروي رأسه: «بلى. هناك طريق ضيق يقودنا بعيداً عن التلة والكوخ، إذا تمكنا من الوصول إليه أسفل التلة سنتمكن من النجاة. من الصعب تحديد مكان الطريق ولكنني أعرف الجوار جيداً».

غطى راف فمه وسعل ثم قال: «ولكن المشكلة تكمن في الوصول إلى أسفل التلة. لن يدعنا رجال سكوبيل نبتعد عن المنزل قبل اختطافنا». «أعتقد أن لدي فكرة».

ركض شارلوك إلى الباب، لحق به أميوس غروي وراف ثم فيرجينيا وماتي. فتح شارلوك الباب بسرعة فتسرب كل الدخان الذي بالداخل إلى الخارج مشكلاً سحابة سوداء. لا بد أن تلك السحابة السوداء شكلت إنذاراً لرجال سكوبيل.

توزعت الصخور المتنوعة الحجم أمام الكوخ. وعلى مسافة عشرين قدماً أمام الصخور انحدرت التلة حيث اضطر شارلوك أثناء تسلقها في طريقه إلى الكوخ لاستخدام يديه ورجليه. وفي

مكان ما خلف هذه الطريق ترقب رجال سكوبيل أي حركة تجاههم.

حاول شارلوك إزاحة صخرة كبيرة وصرخ: «ساعدوني!». انتبه راف وغروي إلى ما يفعله شارلوك وبدأ بإزاحة صخرتين أكبر من التي أزاحها شارلوك. ساعد ماتي وفيرجينيا شارلوك في إزاحة الصخرة التي بدأ بالعمل على دحرجتها. وضع شارلوك كتفه على الصخرة ودفعها، فشعر بالألم في رقبتة وكاحليه حيث رُبط الحبل سابقاً، ولكنه تجاهل الألم وتابع الدفع، فبدأت الصخرة بالتحرك.

صرخ شارلوك: «لقد نجحنا!».

حينها سمع شيئاً يصفر ثم هبط على الأرض. ابتعد عن الصخرة بسبب الصدمة فعادت إلى مكانها. أحس شارلوك بالأرض تهتز تحت قدميه بسبب ثقل الصخرة، ونظر إلى الشيء الذي سقط إلى جانبه. للحظة ظن أنها عصا ولكن ألصق إلى مؤخرتها بعض الريش. سحبه من الأرض ووجد الطرف الأمامي حاداً كالسهم. نظر إلى الأعلى. فرأى أعلى التلة ظل شخص يحمل أداة هلالية الشكل. كانت هذه الآلة موجهة نحو شارلوك كما يوجه شخص يوجه بندقيته نحو شخص آخر.

كانت هذه الأداة قوساً. لم يرَ شارلوك في الحياة مثله من قبل، ولكنه رآه في الصور سابقاً. باستطاعة هذا القوس رمي السهام

بسرعة وبقوة تستطيع خرق درع حديدي.

صرخ ماتي وسحب شارلوك باتجاه الكوخ: «انتبه! ابتعد عن هنا».

ابتعد شارلوك عن ماتي وقال: «إنه لا يصوب السهام علينا. هو يريد إخافتنا فقط حتى نهرب إلى الأسفل». وأعاد شارلوك الكرة دافعاً الصخرة بكل ثقله.

تمكن شارلوك من إزاحة الصخرة مجدداً ودحرجتها على حافة التلة ثم قال: «تذكرهم لا يريدون قتلنا الآن».

سقط مزيد من السهام على الأرض حوله ولكنه تجاهلها. دفع الصخرة مرة أخرى بكل ثقله وبكل طاقته. تدحرجت الصخرة على العشب وأكملت طريقها إلى أسفل التلة بسرعة متزايدة.

بدوره تمكن أميوس غروي من إزاحة الصخرة ودحرجتها نحو الأسفل. كانت الصخرة أكبر من صخرة شارلوك فجمعت كومة من التراب والعشب عليها وهي تتدحرج ما زاد من حجمها. ولكنها كانت تتدحرج بسرعة أكبر وأكبر.

أما صخرة راف ستون فتحركت ولكنها لم تلحق بصخرتي شارلوك وغروي بل اتجهت إلى الجانب واصطدمت بسفح الوادي الضيق الصخري. للحظة ظن شارلوك أنها ستتوقف ولكنها ارتدت عن السفح بسرعة وأكملت طريقها دافعة صخرتين صغيرتين.

اختفت الصخور عندما تدحرجت. مرت ثوان دون سماع أي شيء ثم... علا صوت الصراخ من الأسفل. تخيل شارلوك الصخور تحطم صفًا من رجال سكوبيل ككرة البولينغ، تكسر الصخور الأرجل وتدفع الرجال إلى الجانب. ابتسم شارلوك لهذه الصورة.

صرخ شارلوك: «دحرجوا مزيداً!» ثم وضع يديه على صخرة أخرى وبذل قصارى جهده لرفعها. رفع الصخرة بسهولة وحملها على كتفه ثم رماها بعيداً. وكباقي الصخور تدحرجت هذه الصخرة واختفت خلف الحافة.

دحرج ماتي وفيرجينيا صخوراً صغيرة بينما تمكن أميوس وراف من دحرجة صخرتين كبيرتين.

صوب الرجل سهمين آخرين على الأرض إلى جانبهم مما أدى إلى تناثر التراب في كل مكان. حينها أدرك الرماة أن الطريقة التي اعتمدوها غير مجدية. للحظة قلق شارلوك من أن يصوب الرجل السهام عليهم بدلاً من الأرض حولهم ولكن اتضح لاحقاً أن لا أوامر لديه باستهدافهم. تتابع رمي السهام بشكل متقطع ولكنه لم يشكل خطراً عليهم. ارتفع صوت الصراخ الآن. لم يعرف شارلوك عدد الرجال الذين كانوا بانتظارهم في الأسفل ولكن من الواضح أن معظمهم قد تعرضوا للإصابة أو الإلهاء الآن. توقع

الرجال قدوم مجموعة من الأشخاص اليائسين باتجاههم
فتفاجأوا برؤية انهيار صخري.
صرخ شارلوك: «هيا!».

نزل شارلوك الطريق الصخري المنحدر وتبعه ماتي وفيرجينيا
وراف وغروي. بدا الطريق أكثر انحداراً من السابق، وشعر أن
سرعته تتزايد رغماً عنه. كاد أن ينزلق على العشب الرطب. لذا،
حاول أن يبطئ نفسه ولكن غروي الذي وقف خلفه مباشرة دفعه
للمتابعة.

بينما نزل شارلوك المنحدر رأى بقايا كمين برايس سكوبيل.
تألف الكمين من خمسة رجال كانوا في حفرة. رأى أربعة منهم
مصابين وينزفون وكانت جروحهم بليغة، وكان من الصعب
تحديد خطورة الجروح ولكن علق اثنان من الرجال الأربعة تحت
الصخرتين اللتين رماهما غروي وستون. حاول الرجل الخامس
مساعدة رفاقه ولكنه بدا مرتبكاً ولم يعرف بمن يبدأ.

ركض شارلوك بين الكمين بسرعة قبل أن ينتبهوا إلى وجوده.
التفت إلى الخلف فرأى راف وغروي يبطئان ليتيحاً لماتي
وفيرجينيا المرور قبلهما ليتأكدا من سلامتهما. حاول أحد رجال
سكوبيل إمساك سهم كان على الأرض إلى جانبه ولكن غروي
ركله بعيداً عنه عندما مر بقربه.

تابعوا الركض تاركين الكمين خلفهم.

سقطت بعض السهام على الأرض قربهم وعلى بعض الصخور المجاورة، لكنها لم تؤذهم، فالمسافة كانت كبيرة ووقف الرماة في الجهة الخاطئة. عرف شارلوك أن الرماة لا يشكلون تهديداً لهم.

شعر شارلوك بالبهجة وهو يركض. لقد أنقذ أميوس غروي للتو. «شارلوك! فيرجينيا! هنا!».

دون أن يتوقف شارلوك عن الركض نظر إلى الخلف فوجد غروي واقفاً أسفل درج صخري غير ظاهر يبعد حوالى خمسين قدماً عنه. لم ينتبه شارلوك وفيرجينيا إلى وجود الدّرج فركضا من أمامه وأكملا الطريق ولكن بدأ ماتي وراف صعود الدّرج. لا بد أن هذا هو الطريق الذي أخبره غروي عنه في الكوخ! توقف شارلوك وفيرجينيا بسرعة واستدارا ليتجها نحو غروي، ولكن ما أن بدأ بالركض حتى توجه ثلاثة من رجال سكوبيل نحو الدرج حيث وقف غروي. كانت قمصانهم ووجوههم ملطّخة بالدماء - هم الرجال الذين أصابتهم الصخور-وبدوا جاهزين للقتل رغم التعليمات التي أوصاهم سكوبيل بها. لقد كانوا يسعون للانتقام لما جرى لهم جراء الواابل الصخري الذي سقط عليهم.

لفتت نظر غروي الطريقة التي نظر بها شارلوك خلفه. فشعر الأخير بالتوتر الذي ملأ كتفي أستاذه عندما نظر إلى الخلف. أعاد غروي نظره إلى شارلوك وفيرجينيا، وامتلأت عيناه خوفاً

وغضباً. بالطبع قام غروي بالحسابات نفسها التي قام بها شارلوك. من المستحيل أن يصل شارلوك وفيرجينيا إليه قبل الرجال لأن الرجال يركضون نحو أسفل التل بينما يركض شارلوك وفيرجينيا نحو أعلاه. رغم ثقة شارلوك بمعلمه ومرشده وإعجابه به عرف أنه لن يستطيع التصدي لثلاثة رجال وحده. صرخ شارلوك: «اذهب! اعتنِ براف وماتي! سأهتم بفرجينيا!». صرخ غروي: «لا يمكنني!». امتقع وجهه من الصدمة.

صرخ شارلوك: «بلى! ثق بي، يجب علينا المتابعة». ثم نظر إلى فيرجينيا التي بدت مرتبكة وهي تنقل ناظريها بين والدها وشارلوك.

نظرت إلى أميوس غروي، بدا يائساً. في النهاية، وبعد وقت بدا كساعات، ولكن في الحقيقة كان بضع ثوان فقط، هزّ غروي رأسه.

عادت فيرجينيا إلى شارلوك. وصعد غروي الدرج المؤدي إلى الطريق بسرعة بالنسبة إلى شخص بمثل حجمه. حينها أمسكت فيرجينيا بيد شارلوك وركضا سويا إلى الأسفل بعيداً عن المهاجمين.

مرة أخرى نظر شارلوك إلى الخلف. لقد اختفى راف غروي وماتي عن الأنظار خلف الصخور العالية. لحق بهم رجلان انتبها إلى غروي وهو يصعد ولحق رجل ثالث بشارلوك وفيرجينيا.

أصبح التل أقل انحداراً من السابق. رأى شارلوك إلى الشمال دار العبادة التي رآها في طريق الوصول إلى هنا. لم يعد هناك وقت طويل قبل أن يصلوا. هل سيستطيعان تضليلهما أم سيكون هناك مزيد من رجال سكوبيل في الأسفل؟

سحبت فيرجينيا شارلوك نحو دار العبادة وقالت له وهي تلهث: «ربما علينا الاختباء هنا».

اختفيا خلف ضريح صخري كبير. بالكاد كانت هناك مساحة تكفيهما للاختباء. كان على شارلوك الاقتراب من فيرجينيا؛ شعر بنفسها الدافئ والسريع على رقبتة.

سمع وقع خطوات تقترب منهما، ومن ثم اختفى الصوت. سأل شارلوك بعد صمت ساد لدقائق: «ماذا نفعل الآن؟».

«أعتقد أن علينا الانضمام إلى والدي وراف وماتي بطريقة ما».

هزّ شارلوك رأسه: «حسناً».

أدار رأسه، كانت عيناه تبعدان إنشاً فقط عن عينيها. أراد تقبيلها ولكنه قال: «هيا بنا».

جعل نبات الرتم والخلنج السير صعباً. ظلت جذوع الأشجار تعلق بحذاء شارلوك بينما كانا يمشيان بمحاذاة المستنقعات. حاول شارلوك اللحاق بفيرجينيا بكل ما أوتي من قوة، لأن حذاءها كان أخف من حذائه، ما سهل عليها السير.

سارا بحذر، وهما ينظران حولهما إلى الأبنية والجدار المنخفض الذي يمشيان باتجاهه للتأكد من أنه لم يرهما أحد. بدا الجو غريباً نوعاً ما لأن المكان كان مهجوراً. خاف شارلوك أن يهاجمهما أحد من المجهول ولكن شيئاً لم يحصل.

انعكس لون السماء البنفسجي عند المغيب على زهور الخلنج مشكلاً منظراً خلاباً، وفاحت رائحة الزهور الزكية في الجو البارد. طارت مجموعة من النحل ببطء وهي تتنقل من زهرة إلى أخرى باحثة عن الرحيق.

«بماذا تفكر؟».

كانت فيرجينيا تنظر إليه باستغراب. لقد لاحظت انشغال باله. قال شارلوك مفسراً: «أفكر بالنحل».

هزّت رأسها غير مصدقة وقالت: «النحل؟ لقد ابتعدنا عن المجموعة، ونحن نهرب من عصابة خطيرة تحاول قتلنا، وكل ما تفكر فيه هو النحل؟ لا أفهمك».

هزّ كتفيه ودافع عن نفسه: «أنا أفهم النحل. إنها كائنات غير معقدة. لا تقوم بأي شيء إلا لأسباب بديهية. إنها كالات. لكل حركة من حركاتها سبب منطقي».

«وأنت لا تفهم الناس؟».

تابع السير بصمت لبرهة ومن ثم سأل فجأة: «لماذا يحصل كل هذا؟ لأن سكوبيل يكره الهنود ويريد إبادتهم بدلاً من الذهاب

للعيش في مكان ما يخلو من الهنود؟ الآن والدك أرسل لإلقاء القبض عليه ثم أصبح مهووساً بهذه المهمة وغير آبه بعدد الناس الذين سيقتلون لإنجازها؟ الآن سكوبيل بدوره أصبح مهووساً بالانتقام من والدك فلحقه إلى إنجلترا بدلاً من الاختباء بسلام في مكان آخر؟ لا أفهم شيئاً؟ لو تصرف الناس بمنطق لما حصل أي من هذا!«.

قالت فيرجينيا بهدوء: «يقول والدي إن سكوبيل مجنون. لا يهتم للأخلاق والقيم. فهو يقوم بأي شيء ليحقق مراده». قال شارلوك بهدوء مفكراً بوالده: «ضعي الجنون جانباً. الجنون هو الشيء الوحيد الذي أفهمه في هذه الحالة. إنه الوصف المنطقي للحالة التي نمر بها».

ولكن فيرجينيا أشارت: «يكون الجنون منطقياً لو قام به شخص واحد فقط. ولكن إن جنّ الجميع، ستشن الحروب، وتعم الفوضى، وتدمر الحضارات وفي النهاية يصمد القوي فقط». أكمل السير بهدوء. أحس شارلوك بفيرجينيا تنظر إليه، ولكن لم يكن لديه أي شيء ليقوله.

تفاجأ شارلوك وفيرجينيا عندما رأيا شيئاً ما يتحرك ومن ثم سمعا صوتاً، ولكن تبين في النهاية أنه لم يكن سوى طائر يستعد للطيران.

اقتربا من حائط دار العبادة الصخري الذي مرا بالقرب منه سابقاً. نظر شارلوك خلفه متوقعاً أن يرى الأرض الفارغة نفسها التي رآها في كل مرة، ولكن تفاجأ برؤية ناس يقتربون من دار العبادة. لم يستطع التأكد إن كانوا رجال سكوبيل أم سكاناً محليين، ولكن لم يكن مستعداً للمخاطرة. قبل أن يفكر بالقيام بأي، أمسكت فيرجينيا بيده، وسحبته نحو حائط صخري قليل الارتفاع يصل إلى خصره. قفزت فيرجينيا فوق الحائط ولحق بها شارلوك. عندها وقف شارلوك على قدميه، وانحنى قليلاً ليبقى خلف الحائط، نظر إلى الناحية الأخرى من الحائط حيث كانا منذ قليل فرأى مزيداً من الناس يتوافدون إلى دار العبادة. حثته فيرجينيا: «تعال. علينا متابعة السير للوصول إلى أبي». أجابها شارلوك: «حسناً. ولكن بحذر. علينا أن نختفي عن الأنظار».

مشيا بمحاذاة الحائط الصخري وهما منحيان لكي يحتميا من أي شخص قد ينظر باتجاههما. نظر شارلوك أمامه. فرأى غابة كثيفة.

قال: «هلمي. علينا الاختباء هناك قبل حلول الظلام». رغم التشنج الكبير الذي ملأ جسم شارلوك، كان السير باتجاه الغابة مملاً وهادئاً. أحس شارلوك بالتعب بعد كل المعاناة التي مر بها اليوم، ووجد وضع قدم أمام الأخرى مرة تلو أخرى من

أصعب الأمور التي قام بها في حياته. بين الحين والآخر كان يتعثّر ويضع قدمه في حفرة صغيرة ما أدهش فيرجينيا. ظل متنبهاً لأي حركة تدل على أنهما مراقبان، ولكنه لم ير شيئاً باستثناء الطيور في السماء وبعض الأرانب. رأى شارلوك ظبياً يقف عند جذع شجرة مقطوعة. امتدت قرون الظبي كأغصان شجرة عارية. أدار الظبي رأسه، ونظر إلى شارلوك وفيرجينيا. عندما تأكد من أنهما لن يشكلا خطراً عليه انحنى وبدأ بأكل الخلنج.

أصبح لون السماء أزرق داكناً ومال إلى النيلي ثم تحول إلى أسود، وبدأت النجوم باللمعان في السماء. في البداية كان هناك نجمة أو نجمتان فقط ثم تزايد عددها حتى أصبح عدّها صعباً. عندما تذكر شارلوك الطريقة التي تجاهله الظبي ليتابع تناول الخلنج لاحظ أنه كان جائعاً. بل كان يتضور جوعاً، فهو لم يأكل شيئاً طول النهار سوى الفطور وكعكات الشوفان في كوخ أميوس غروي.

عضت فيرجينيا شفتها. من الواضح أنها جائعة هي الأخرى. ما هي الخيارات المتاحة أمامهما؟ أيصطاد أحد الأرانب عندما يخرج من مخبئه. من غير المتوقع أن ينجح في ذلك. فكر في رمي سكين ماتي - التي ما زالت في جيبه - وتوقع أنها ستصيب أرنباً؟ لم يعرف الكثير عن رمي السكاكين رغم أنه شاهد

أشخاصاً يقومون بهذا الأمر في المعارض. لا بد من أنها تتطلب مهارة لموازنة السكين. كان لسكين ماتي مقبض سميك ما جعل تصويبها بدقة صعباً.

تذكر شارلوك أول درس علمه إياه أميوس في الغابة المحيطة في عزبة آل هولمز. علمه كيف يميز بين الفطر السام والفطر الصالح للأكل. إذا وجد شارلوك الفطر فعندها سيستطيعان ملأ معدتيهما الخاويتين. نظر حوله، لن يجد الفطر قرب المستنقعات ولكن سيحالفه الحظ أكثر في الغابة.

نظر كي يحدد المسافة التي تفصله عن الغابة. توقع أنها تبعد حوالى نصف كيلومتر فقط.

قالت فيرجينيا: «انظر يمكننا النوم هناك».

تبع شارلوك الاتجاه التي كانت تشير إليه فيرجينيا بعينه. في البداية، لم يَرَ شيئاً، ثم انتبه لوجود كوخ صخري صغير مخبأ بين الأشجار. في البداية ظن أنه منزل، ولكنه لاحظ أنه صغير جداً ليكون منزلاً، وغير مجهز بنوافذ أو حتى باب. كان كوخاً يلجأ إليه الرعاة حين تهب عاصفة.

قال: «أحسن».

سألت فيرجينيا: «هل لدينا حظ بالحصول على الطعام هنا. أكاد أموت من الجوع بعد كل هذا السير».

فكر شارلوك قليلاً. لا يبدو من الخطر تركها وحدها داخل الكوخ فيما يبحث عن الفطر في الغابة.

عندما أخبرها بخطته نظرت إليه مشككة.

«الفطر؟ أتحاول تسميمي؟».

«صدقيني، والدك معلم ممتاز».

رفعت فيرجينيا حاجبها: «قد يكون معلماً جيداً، ولكن هل أنت متأكد من أنك استوعبت دروسه».

«هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك».

«حسناً. دعني أبحث عن الحطب، وأبدأ بإشعال نار صغيرة بينما تحضر الفطر. هكذا سنوفر الكثير من الوقت».

«هل أنت متأكدة من أنك ستكونين على ما يرام؟ هناك أناس يلاحقوننا».

نظرت إليه ورفعت حاجبها: «أستطيع الاهتمام بنفسي».

ألقياً نظرة إلى داخل المأوى الحجري. كان مؤلفاً من غرفة واحدة انتشرت في أرجائها أوراق الأشجار اليابسة. وتفاجأ أن هناك آلة لإشعال الحطب وبعض المقالي والأطباق المعدنية.

سألته: «هل ستتأخر؟».

هز كتفيه: «لا أعلم. مهما كلف الأمر من الوقت. أنت تريدين العشاء أليس كذلك؟».

ابتسمت: «لم يذهب رجل من قبل لجمع طعامي من قبل باستثناء والدي. وأحب هذا الشعور».

قال شارلوك: «وهل ابتاع أحدهم العشاء لك بالطبع باستثناء السيد غروي؟».

هزت رأسها: «كلا».

«وهل طبخ لك أحدهم العشاء؟».

«كلا».

ابتسم: «سأعود بأسرع ما يمكن».

بعد ثوان من دخول الغابة، أحاطت به الأشجار، ظهرت جذوع أشجار بعرض شارلوك، وشكلت أغصانها سقفاً متشابكاً للغابة. تسربت أشعة القمر إليه عبر سقف الغابة الخشبي. لمست الأغصان المتفرعة وجه شارلوك. ومسحت الطحالب المتدلية من الأشجار جبينه ووجنتيه وربما قامت شبك العناكب بالأمر عينه فاضطر شارلوك لنزعها عنه. زعقت بومة حيناً، وسمع في أحيان أخرى صوت حيوان أكبر منها كالغريز وبعض القوارض، وربما الظبي الذي رآه سابقاً.

سمع صوتاً بعيداً، وكأن أحدهم يخطو على غصن يابس متروك على الأرض، ثم سمع صوت حفيف أشجار. «هل كانت الأصوات بفعل الريح أم أن هناك شخصاً يقترب؟».

تشنج خائفاً من أن يكون رجال سكوبيل قد تعقبوهما، ولكن بعد دقيقة من التفكير، أقنع نفسه أنهم لم يكونوا هنا. استطاع سماع صوت البومة والحيوانات المارة. لو كان هناك أشخاص قريبين لكانت هذه الحيوانات أكثر هدوءاً وحذراً.

عندما تذكر المبنى الذي احتجز فيه في أدنبره، ووجوه الهياكل العظمية التي كانت تنظر إليه من المداخل المظلمة، شعر بنوبة من الهلع. هل كانت الهيكل العظمية تتعقبه في الغابة؟ هل كانت متجمعة أمام مدخل الكوخ حيث فيرجينيا وتستعد للهجوم عليها؟ بدأت دقات قلبه تتسارع. جهّز نفسه ليستدير ويركض إلى الغرفة الحجرية لينقذ فيرجينيا، ولكنه توقف وأخذ نفساً عميقاً. كانت تلك الأفكار سخيفة. وضع شارلوك حدّاً للأوهام التي سيطرت على عقله. لا يمكن للأموات أن يتحركوا، لا وجود للأشباح. لم تكن كل هذه الأشياء منطقية. إنها مجرد خرافات. تعلم شارلوك كثيراً من أميوس غروي على مرّ السنوات، ولكن شارلوك ظل يشكّ فيما تعلمه. كان الشك الدائم جزءاً من شخصيته. هناك سبب لحصول كل شيء في الكون. الكائنات الميتة تبقى ميتة؛ لا يمكنها التحرك. الموت هو فقدان الحياة. وأياً يكن ما رآه في أدنبره، فمن المؤكد أنه لم يكن جثة رجل.

بعدما أشعرته تلك الأفكار بتحسن، تابع السير. متيقناً أنه إذا سمع أي شيء في الغابة غير الهواء فلا بد أنه صوت حيوانات

بكل تأكيد. باقي الأصوات والأوهام كانت استنتاجات سريعة وغير منطقية يولدها عقله من حقائق قليلة. لقد قرر شارلوك أن التخمين بغياب معلومات دقيقة هو إشغال للعقل لا جدوى منه. دخل شارلوك مساحة قاحلة في الغابة منارة بضوء القمر حيث وجد مجموعة من الفطر. اقترب شارلوك من الفطر وجثا على الأرض إلى جانبه. كان الفطر يرتقالي اللون وعليه تموجات على جانبه تشبه تموجات الخس. استطاع شارلوك تمييزه مما علمه إياه السيد غروي فانتزعه من الأرض وملاً جيبه بالفطر البرتقالي اللون، ورأى على بعد أقدام أخرى مزيداً من الفطر البني وكانت بنيته تشبه النحل. وعلى المقلب الآخر رأى الفطر الأبيض.

ملاً شارلوك جيوبه ويديه بالفطر وعاد إلى الكوخ. جمع كمية تكفيهما حتى الصباح. إذا استطاع إيجاد الماء يستطيع سلق الفطر في المقلاة. ثم هل يمكنه إيجاد بعض الأعشاب المنكهة؟ انشغل باله بما يمكنه القيام به ليثير إعجاب فيرجينيا بمهارته في الطبخ حتى وصل إلى الكوخ، قال بهدوء حتى لا يزعجها إن كانت نائمة: «لقد عدت! وأحضرت العشاء!».

دخل المأوى حيث وجد فيرجينيا قد أشعلت النار. من خلال لهيب النيران استطاع رؤيتها نائمة على الأرض، وقد أسندت

رأسها على أعشاب جمعتها من الخارج. بالقرب منها جهزت بعض الأعشاب أيضا لينام عليها شارلوك.

لم يعرف ما يجب عليه القيام به. هل يطهو الفطر ثم يوقظها حتى تتناول الطعام أم يتركها نائمة؟ كان الطريق طويلاً اليوم وهناك مزيد من السير ينتظرهما في الغد. من الأفضل أن يتركها نائمة.

وضع الفطر على الأرض، وجلس بالقرب من فيرجينيا. لن يموتا جوعاً إن فوّتا وجبة واحدة. سيطهو الفطر صباح الغد. نظر إلى وجهها. بدت مرتاحة للغاية وهي نائمة. رسمت شفتها ابتسامة صغيرة وكانت تعابير وجهها اهدأ من العادة. هذه هي فتاة أحلامه.

مدّ يده، وأزاح خصلة شعر عن عينيها. تحركت قليلاً، وأصدرت صوتاً خافتاً ولكنها لم تستيقظ.

تأملها شارلوك معجباً بجمالها الخلاب. من الصعب تأملها عندما يكونا مستيقظين، لأنها تنتبه إلى أنه يتأملها فتنظر إليه أو تسأله بما يفكر. ولكن الآن يستطيع النظر إليها وتأملها قدر ما يشاء.

في النهاية، استلقى إلى جانبها، ووضع رأسه على وسادة الأعشاب التي حضّرتها له. وجد نفسه يسرح في عالم الأحلام. رغم الخطر، ورغم مأزقهما، شعر بالسعادة. شعر أنه وجد المكان الذي ينتمي إليه.

نام بهناء لدرجة أنه لم يشعر أنه نام، ولكنه استيقظ فجأة.
تدفق نور الشمس داخل المأوى. لا بد من أنه استدار خلال
نومه لأنه لم يعد مقابل فيرجينيا.

استدار مجدداً حتى يراها وشعر بقلبه يكاد يتوقف عن النبض.
لم يكن هناك أثر لفيرجينيا. وقف في وسط الغرفة ثلاثة
هياكل عظمية. نظروا إلى شارلوك بعيون جوفاء. وحملوا بين
أيديهم شفرات منحنية، تشبه المناجل التي يستعملها المزارعون
لحصاد القمح خلال موسم الحصاد.

دفع شارلوك نفسه بيأس نحو الباب، ولكن يدين واهنتين
أمسكتا به. بدت أصابع اليدين كالأغصان المتفرعة على كنزته،
ولكنها كانت صلبة كالعظام تسببت بألم شديد لشارلوك حين
أطبقت عليه.

الفصل الرابع عشر

كافح شارلوك بعنف، ليحاول الإفلات من المهاجمين الثلاثة، ولكن قبضاتهم كانت راسخة. وضع أحد الرجال سكيناً على رقبة شارلوك. كانت شفرة السكين سيئة، وكأنها كانت مدفونة في الأرض منذ سنوات. وصلت الرسالة لشارلوك بوضوح، فتوقف عن الكفاح.

ارتجف شارلوك من الخوف عندما انتبه أن ثياب الرجال رثة ومغطاة بالعفن، وكأنهم أيضاً دفنوا تحت الأرض منذ سنوات عدّة.

انحنى أحد الرجال، وأمسك برجلي شارلوك ثم رفعه في الهواء. كان قوياً، رغم مظهره الهزيل. حمل الرجال شارلوك بعيداً عن الكوخ كأنه كيس من الذرة. لم يتفوّه أي منهم بكلمة، ولكن شارلوك تمكن من سماع صوت أنفاسهم. لهث أحدهم كشخص يعاني من الربو، بينما تنفس الآخر كأي شخص عادي يحمل شيئاً ثقيلاً. فكّر شارلوك في نفسه، لا يحتاج الأموات إلى التنفس. لم تبد روائحهم كالموتى أيضاً. فشارلوك يعرف جيداً رائحة اللحم المتعفن (لقد عثر شارلوك في حياته على كثير من الجيف في الغابة). لذا، افترض أنه يفترض أن تفوح من الهياكل العظمية رائحة غريبة ولكن كل ما شمه هو العرق. فإذا هم أحياء. إنهم

يبدون مثل الهياكل العظمية ولكن ذلك مجرد وهم. ولكن لماذا؟ وماذا فعلوا بفيرجينيا؟

نظر شارلوك إلى كتفيه حيث أمسكه الرجل. وجد بقعة بيضاء على ثوبه. هل كانت آثار مستحضرات التجميل؟ ووجد البقع البيضاء على أيديهم أيضاً! تنفس شارلوك الصعداء. لم يشك شارلوك للحظة أنهم كانوا حقاً أمواتاً، ولكنه فرح عندما تأكد من وصوله إلى هذا الدليل. كان الأمر منطقيًا: إذا أردت أن يعتقد الناس أنك ميت فعليك أن تبدو كالميت. الوجوه والأيدي البيضاء تدل على انقطاع دوران الدم في الجسم. إذا رآهم الناس عن بعد فقد يبدون مقنعين.

حملة الرجال إلى أسفل التل بعيداً عن كراموند. بين الفينة والأخرى، لمح شارلوك وجه أحد الرجل. من هذا القرب استطاع رؤية شعر لحيته الظاهر من تحت مستحضر التجميل الأبيض الذي غطى وجهه. واستطاع أيضاً أن يرى أوراقاً ممزقة ملصقة على جلدهم لتبدو جافة ومقشرة، وقد تم استخدام الظلال في الرسم ليبدووا أشبه بهياكل عظمية ذات أسنان مخيفة. كان كل هذا خداعاً.

أصر شارلوك: «أخبروني إلى أين سنذهب؟».

نظر إليه الهيكل العظمي الذي حمل يده اليمنى وابتسم. كانت أسنانه مبرقعة باللون الأخضر لتبدو عفنة، ولكن حتى هذا بدا

قال الرجل بصوت عميق وكأنه آتٍ من تحت الأرض: «ستأتي معنا. وستلتقي بقائد قبيلة الأموات».

قال شارلوك: «أنتم لستم أمواتاً. أنتم تتظاهرون بهذا فقط». ظل الهيكل العظمي يبتسم وسأله: «هل أنت متأكد من ذلك؟ أتراهن بحياتك على هذه المعلومة؟». لم يرد شارلوك.

حملة الرجال وساروا عبر أرض وعرة لمدة ساعة تقريباً. ظل ينظر حوله علّه يرى فيرجينيا ولكن إذا كانت تحمل بالطريقة نفسها فلا بد من أنها سبقته وقد أصبحت بعيدة عن الأنظار. تمنى شارلوك أن تكون قد هربت.

في النهاية، ألقى به الرجال على صهوة حصان. ثم ربطت يدا ورجلا شارلوك بحبل يتدلى من الحصان. ووضعوا الحزام على شارلوك كي لا يقع عن صهوته. امتطى أحد الهياكل العظمية الحصان قبل أن يتحرك.

شعر شارلوك بالغثيان بسبب ارتطامه المستمر بورك الحصان في كل مرة خطأ خطوة إلى الأمام بالإضافة إلى رائحة الحصان الكريهة. أكثر من مرة، كاد أن يتزحلق عن صهوة الحصان ويقع بين قوائمه وإن حدث ذلك لكانت عظام شارلوك ستسحق. حاول التشبّث بالحصان بأصابع يديه حتى لا يفلت.

اهتز رأس شارلوك في كل مرة تقدم الحصان قليلاً ما جعل من المستحيل عليه أن يرى المناطق والمعالم التي مروا بها، ولكنه استطاع أن ينتبه إلى وجود أحصنة أمامه وخلفه. هل كانت فيرجينيا على صهوة أحد الأحصنة؟ عندها ازداد عدم ارتياحه وتمنى أن لا تكون أمامه.

تغير الصوت الذي أصدرته سنايك الأحصنة. يبدو أنها لم تعد تسير على التراب بل أصبحت تسير على الصخر. سمع صوت صدى وكأن هناك مئة حصان حوله، وإذا هم داخل فناء صخري. خفف الحصان سرعته قبل أن يتوقف فجأة. ارتد شارلوك إلى الأمام، وطار السرج من مكانه، فصفع جانب شارلوك الذي كاد أن ينقطع نفسه.

قطع الرجال الحبال من حول رجليه ويديه بواسطة سكين. تم حمل مجدداً ولكن هذه المرة كان وجهه ناحية الأرض لأنه كان يشعر بتعب وغثيان شديدين منعه من رفع رأسه. كل ما رآه هو الحصى وزاوية حائط صخري. ورأى كثيراً من الظلال. لا بد من أن المكان بأسره مضاء بالمشاعل.

ما هذا المكان؟ تذكر شكل قصر أدنبره المصنوع من الغرانيت. من المؤكد أنهم لم يسيروا كل تلك المسافة حتى يصلوا إلى أدنبره. هل توجد قصور أخرى قريبة من هنا؟

حَمَل شارلوك عبر ممر ومن ثم أُدخل غرفة. سمع صوت صراخ ونباح. في المقلب الآخر من الغرفة رأى منطقة مسيجة. نظر إلى تلك المنطقة باهتمام، فرأى رجالاً يتبادلون النقود. من خلال بعض الفجوات في السياج استطاع شارلوك رؤية كلبين - كبيرين - يتقاتلان. عض كلٌّ من الكلبين أذني الآخر وسحج كلٌّ منهما جلد الآخر بمخالبهما الحادة. في نور المشاعل الخافت استطاع شارلوك رؤية الدم المتناثر على الأرض. كان بعضه طازجاً وبعضه الآخر جافاً ما يدل على أن الكلاب - وربما حيوانات أخرى - تتقاتل هنا منذ وقت طويل.

بعد ذلك، مرّ شارلوك عبر غرفة أخرى. لم يكن هناك منطقة مسيجة فيها، ولكن مكان السياج، وقف الرجال والنساء في دائرة كانت حدودها مرسومة بالطباشير على الأرض. في وسط تلك الدائرة تعقب رجلان أحدهما الآخر. كانا عاريي الصدر ولمع صدراهما وكأنهما دُهما بالزيت. لاحظ شارلوك أن على بطن أحدهما آثار سحج. فجأة تقدم الرجل الثاني، وحمل منافسه من خصره. رفعه في الهواء، ومن ثم ألقيه أرضاً. جنّ الجمهور وراح الجميع يصرخ ويهتف بحماس.

بعد ثوانٍ أُدخل شارلوك غرفة أخرى. ولكن هذه الغرفة كانت مختلفة. كانت مؤلفة من حفرة مستطيلة في الوسط - تشبه مسبحاً - وامتد ممر يحيط بالحفرة. ولكن لم يكن هناك ماء في

هذه الحفرة التي طوّقها سياج خشبي. شمّ شارلوك رائحة مقرّفة تشبه رائحة الحيوانات، وسمع صوتاً قادماً من الحفرة. انتبه شارلوك لوجود حيوان محبوس في أسفل الحفرة. لا بد أن هذا الحيوان سمع صوت خطوات الرجال الذين حملوا شارلوك لأنه اندفع نحو السياج الخشبي فهزّه. ما هذا الحيوان؟ هرب الرجال نحو الباب خوفاً من الحيوان.

ألقي شارلوك على أرض غرفة كبيرة. ظل مستلقياً على الأرض ونظر إلى الأعلى. أحس بيديه ورجليه وكأنهما أصبحا أكثر طولاً. وشعر بالجروح تملأ جسده. لم يكن بوضع يسمح له بمواجهة أو إيذاء أحد.

أغمض شارلوك عينيه، وأصغى لكل يجري حوله. سمع هسيس النار، وصوت ضجيج بعيد يشبه صوت مجموعة من الناس تترقب حصول شيء ما؛ همسات، ضحكات، ووقع خطوات. صوت جمهور بانتظار عرض ما.

في النهاية، جلس شارلوك ونظر حوله. كان في قاعة حجرية. وجد مشاعل معلقة على الجدار تعطي كل شيء لمسة حمراء. غُلق السجاد بين المشاعل، وفرق بين السجاد والمشاعل رؤوس حيوانات مقطوعة ومعلقة على دروع حديدية. كانت معظم الرؤوس لحيوان الظبي ذي القرون الممتدة، ولكن كان هناك بعض رؤوس تعود لذئاب ذات أفواه

مفتوحة مبرزة أسنانها الحادة، ورأس دب. توقع أن عليه
الابتهاج لعدم وجود رأس إنسان بينها.

وجد أمامه منصة صغيرة عليها كرسي. بدا وكأنه صُنع من
جذع شجرة ضخمة. جلس رجل على الكرسي - كأنه ملك في
وسط هذه الغرفة - بضخامة أميوس غروي، وكان متسربلاً
بالأسود. كان شعره، وحاجباه ولحيته غير المرتبة بلون الليل
الحالك. ارتدى معطفاً وكلتية سوداء تخللتها بعض الخطوط
الحمراء والخضراء. مثل غروي ناهز هذا الرجل أواخر
الخمسينيات أو أوائل الستينيات من عمره ومن الظاهر أن
باستطاعته أيضاً أن يهزم عدداً من الشبان اليافعين في الوقت
نفسه.

وقف عدد من الرجال خلفه. توقع شارلوك أنهم مصارعون
بسبب عضلاتهم المفتولة والبارزة وأنوفهم الفطساء وآذانهم
المشوهة. ارتدى الرجال أيضاً زياً مشابهاً للرجل الضخم. قبيلة
تارتان، أهذا هو الاسم الذي وصفهم به ماتي؟ هل عنى ذلك أنهم
جميعاً من القبيلة نفسها؟

نظر الرجل الجالس على الكرسي إلى شارلوك ورفع حاجبه.
قال الرجل بلهجة إسكتلندية: «إذاً أنت الذي يبحث عنك
الأميركيون». رفع يده وأشار إلى رجل يقف خلفه: «أحضر رفاق

هذا الشاب إلى هنا لنقوم باجتماع عائلي قبل الفراق المأساوي الذي لا مفر منه».

هزّ الرجل رأسه واتجه نحو الباب، انتهز شارلوك الفرصة ليلقي نظرة حوله. تجمّع على جانبي المنصة مجموعة من الناس ينظرون إليه وإلى الرجل الجالس على الكرسي. كانت تلك المجموعات مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال ولكن دلت عيونهم المتنبهة وجلودهم التي عانت من الشمس والمطر على أنهم يعيشون وفقاً لأهوائهم. لم يرتدوا الثياب المقلّمة كالرجل الجالس على الكرسي بل ارتدوا الثياب المرقّعة والمبتذلة. عندما رأى شارلوك رجلاً يرتدي بنطالاً وسترة ملائمتين اعتقد أن تلك صدفة أو أنه ربما سرقهما. رأى شارلوك بين الحشد الذي تجمع حول المنصة الرجال ذوي الوجوه البيضاء والأجسام الهزيلة كالهياكل العظمية. لم يمانع الحشد وجودهم بينهم - وبخلاف المرة التي رأهم فيها في الحانة - كانوا منسجمين في الحديث مع الرجال الآخرين، وغير مستبعدة. لم تشبه حركاتهم حركات الأموات التي لاحظ شارلوك أنهم كانوا يقومون بها في السابق، ولم يعرف لماذا ارتدوا تلك الملابس ولكن لا بد أنهم قاموا بذلك لسبب وجيه.

سرت موجة من الاهتمام بين الحشد واستداروا لجهة الباب. بعد ثوانٍ دخل غروي، وفيرجينيا، وراف ستون، وماتي من

الباب. نظروا في أرجاء الغرفة لتألف عيونهم الضوء فيها. عندما رأى غروي شارلوك في وسط الغرفة اتجه نحوه.

هز غروي رأسه مرحباً بشارلوك وقال له: «يا بني، لقد توقعت عندما أحضروا فيرجينيا أنهم سيحضرونك إلى هنا أيضاً».

أعذر شارلوك: «أنا آسف لأنني لم أستطع حماية فيرجينيا». هز غروي رأسه: «لم يكن باستطاعتك القيام بشيء. هؤلاء الرجال على درجة عالية من التنظيم. تمكنوا من إحضارنا من أعلى التل إلى هنا».

عبس شارلوك وقال: «أعتقد أنهم ليسوا رجال سكوبيل. يبدوون رجالاً محليين، إسكتلنديين».

هز غروي رأسه: «أعتقد أنهم عصابة محلية مقرها أدنبره. لقد وقعنا بين أيديهم رغم أنني لست متأكداً من سبب إحضارنا إلى هنا».

اتجه الرجل الذي أرسل لإحضارهم نحو غروي وقال له: «اصمت». ثم مد يده باتجاه أذن غروي. أمسك غروي بيد الرجل وفتلها حتى صرخ الرجل وسقط أرضاً.

قال غروي بهدوء: «لا أحب أن يتحكّم فيّ أحد. ولقد تحكّمتم فيّ كثيراً في الآونة الأخيرة. أتمنى لو باستطاعتكم التوقف عن ذلك».

كافح الرجل الذي وقع على الأرض، حتى تمكن من الوقوف مجدداً، وتقدم رجلان من خلف الرجل الجالس على الكرسي باتجاه غروي ولكن قائدهما أوقفهما بإشارة من يده.

قال القائد: «دعوه يكمل، لديه روح الحرية والمقاومة. أحب هذا الشيء في كل رجل. ولكن انتبه إلى ما تقوله يا سيد غروي يمكنني أن أرسل كل رجالي ليهاجموك الآن، وأعتقد أن هذا سيكون باعثاً على سرور المشاهدين. وكما لاحظت نحن نحب مشاهدة الصراعات؛ نشاهد ونراهن أيضاً. ولكن المشكلة هي أنك ستتمكن من إيذاء بعض رجالي وأنا بحاجة إليهم في الوقت الحالي».

نظر غروي إلى الرجل ذي اللحية السوداء: «أنت متقدم علي في هذه المعركة يا سيدي. أنت تعرف اسمي رغم أننا لم نتعرف بعد».

وقف الرجل. تفاجأ شارلوك عندما انتبه إلى أنه أطول مما توقع، وكان صدره بعرض برميل.

«اسمي غاهان ماكفرلاين من قبيلة تارتان. وقد كُلفت بمهمة إحضاركم إلى هنا».

بدا اسم «ماكفرلاين» مألوفاً لشارلوك. لقد سمع بهذا الاسم منذ وقت قريب. ولكن أين؟

ابتسم غروي، ولكن لم يكن هناك كثير من الفكاهة في تعابير وجهه ثم ردّ: «لا تبدو لي رجل أعمال. تبدو مجرمًا ومتنمرًا». ابتسم ماكفرلاين وقال: «هذا كلام جريء لرجل يواجه رجالاً يفوقونه عدداً. يا صديقي، هناك كثير من مختلف الأعمال، وكثير من رجال الأعمال المختلفة. لا يرتدي جميع رجال الأعمال البدلات الفخمة».

«إذاً أي نوع من الأعمال تمارس؟».

نظر ماكفرلاين في أرجاء الغرفة وضحك ثم قال: «دعني أقل أنني أعمل في مجال التأمين وقد برعت في ذلك». قال غروي بأسى: «دعني أخمّن. يدفع لك أصحاب المحال المال مقابل نوع من التأمين ليتأكدوا من أنه لن يصيبهم مكروه».

قال ماكفرلاين: «صحيح. وقد تفاجأ بالسرعة التي تصيبهم الحوادث عندما يقررون أنهم لا يستطيعون تحمل تكاليف التأمين الذي أقدمه. الحياة صعبة. لا تتخيل كم من المحال تحترق يومياً وكم من أصحاب المحال يتم ضربهم من قبل العصابات دون سبب وجيه. من وجهة نظري، أنا أقدم خدمة للمجتمع لأحميهم من هذه المخاطر».

نظر غروي إلى شارلوك وقال له: «هذا يدعى ابتزازاً. أصحاب المحال الأبرياء والفقراء يدفعون المال لهذا الرجل حتى يوقف

رجالہ من دخول المحال، وتخریب السلع الموجودة فیہا، وإحراق المحل. إنها طريقة خسیسة لتأمين لقمة العیش». هزّ ماكفرلاين كتفيه وقال: «إنها الحیة. یخشى كل حیوان شیئاً یستطیع قتله وأكله. لیس هناك شیء مختلف هنا فی أدنبره. یتجنب السكان دفع الضرائب للحكومة من وقت إلى آخر، وأصحاب المحال مخادعون. أنا أتدخل وأخذ حصتي من هذه الدائرة. یدعوننا البلاك ريفرز. یخشانا الناس من هنا إلى غلاسغو».

كان الاسم مألوفاً لشارلوك من صحیفة أدنبره. إذاً البلاك ريفرز هي العصاةة الذی یخشاها الناس. سأل شارلوك بشجاعة: «إذا ممّ تخافون؟ من یأخذ حصته منكم؟».

حوّل ماكفرلاين نظره إلى شارلوك: «أيها الشاب أنا فی أعلى هذه السلسلة فی هذه المنطقة. لیس هناك من أخاف منه هنا». ثم نظر إلى غروي وقال له: «أعطني حقي. أنا لا أتدخل فی الأمور التي تتعلق بالاعتصاب ونشر الشائعات والاختطاف، كما أنني لا أقوم بأي شیء یؤذي الأطفال. إنني أترك هذه الأمور للمجرمین الصغار فمعايیری مرتفعة. وقد أقوم ببعض النشل أو السرقة بین الفینة والأخرى. فی بعض الأحيان یتهتر العمال عند الرصیف البحري فیقع القفص على الأرض وتفلت منه السلع فنقوم بسرقتها. أنا لا أنظم الجرائم ولا أقوم بها بنفسی ولكن

أُتْقاسم الربح مع الذين يقومون بتلك الأعمال لأني أسمح لهم بالسرقة في منطقتي».

استهزأ غروي به: «مجرم صاحب أخلاق. كم هذا مؤثر». أضاف ماكفرلاين: «مجرم بأسلوب عملي إن صح القول. تهتم الشرطة أكثر بالجرائم التي تتعلق بالاختطاف والقتل والابتزاز. وأنا أحاول ألا أجذب الانتباه».

أشار شارلوك: «إذاً هناك من هو أعلى منك في هذه السلسلة». ردّ ماكفرلاين عليه بغضب: «حتى الدب يخشى من إزعاج الدبابير».

فكر شارلوك، لم يحب الرجل التطرق لهذا الموضوع. نظر إلى حشد السارقين والنشّالين والمتنقّرين إلى جانب ماكفرلاين. وبالطبع انتشر بينهم الرجال الذين يشبهون الموتى. سأله شارلوك: «ولكن ما الفائدة من التظاهر بوجود الموتى تحت قيادتك؟ علي الإشارة أنك قمت بعمل رائع لتجسيدهم كموتى ولكن لا أفهم لماذا».

ردّ ماكفرلاين ببساطة: «أنا أسيطر على الناس من خلال إخافتهم. يدفع لي الناس المال رغم ابتزازي خوفاً من أن أؤذيهم. لقد اكتشفت أنهم سيخشونني أكثر لو عرفوا أن لدي قدرة لا يستطيعون إيجاد تفسير لها. في بعض الأحيان يحاولون مواجهة رجالي، أو يدفعون لهم المال ليتراجعوا، ولكن كيف

سيرشون أو يهددون جثة؟ إذا ظنوا أنني أستطيع التحكم في الموتى فسيخافونني وسيدفعون لي المال».

أشار شارلوك: «ولكنهم رجال يرتدون ملابس معينة ويضعون مساحيق التجميل ليدوا كالموتى. ألا يلاحظ الناس ذلك؟». قال غروي: «بالرغم من استمتاعي بهذا الحديث، لا أفهم سبب وجودنا هنا وأهميتنا بالنسبة إلى عملك. فنحن لسنا سارقين ولا نشالين ولا نملك أي محال».

قال ماكفرلاين: «هذا سؤال جيد وفي مكانه، وصلني خبر عن أن مجموعة غريبة عن البلد تبحث عن شخصين: أحدهما رجل ضخم أبيض الشعر ولكنته غريبة، والشخص الثاني فتاة ذات شعر أحمر ترتدي ملابس الفتيان. وقد علمت أنها قد تكون تنكرت كصبي ولكن من السهل معرفتها بسبب لون عينيها الفريد». ثم أشار إلى غروي وفيرجينيا وتابع: «وها أنتما رجل ضخم أبيض الشعر ولهجته غريبة وفتاة ذات عينيْن فريديتين. عندما علمت أنكما قد تكونان في كراموند قررت أن أبحث عنكما بنفسى. أردت أن أعرف ما هو ثمنكما».

قال غروي: «ثمننا؟!». تجهّم وجهه. عرف ما الذي سيتوصل إليه في نهاية هذا الحديث وكان لشارلوك فكرة جيدة عن الموضوع أيضاً.

«آه، ولم أقل لك أن هناك مكافأة لمن يجد الرجل والفتاة اللذين وصفهما، شرط أن يكونا على قيد الحياة. وقيمة المكافأة خمسمئة ليرة. وهذا المبلغ يعد كبيراً في هذا الجزء من المدينة. ولكن ليس هناك مكافأة إذا جُلبا ميتين. في الحقيقة، لقد أشيع بأن من يتعرض لهما بالأذى سينال عقاباً وليس مكافأة». ابتسم لغروي وأكمل: «لا أعرف من أنت ومن ضايقت في السابق، ولكن هناك شخص يحاول الوصول إليك مهما كلف الأمر. هو ليس مهماً، ولكن هل يمكنك إخباري ماذا فعلت؟».

نظر غروي إلى ماكفرلاين وقال: «يخاف كل الناس من شيء ما».

هزّ ماكفرلاين رأسه: «كلمات شجاعة. ولكنك هنا لا تبدو مخيفاً لي. لقد أرسلت رسالة للرجل الذي طلبك وسيصل بعد قريب. عندها سنرى ماذا سيحصل».

سأل غروي وأشار برأسه إلى ماتي وشارلوك: «ماذا عن الفتيتين؟ لقد قلت إنك لا تؤذي الصغار. لقد تورطنا في هذا الأمر عن طريق الخطأ. أتمنى أن تخلي سبيلهما. ليس هناك جائزة لهما وسأسبب لك متاعب أقل لو أخرجتهما من هنا».

فكر ماكفرلاين لدقيقة وقال: «صحيح أنني لست من النوع الذي يؤذي الصغار».

قال شارلوك: «لن أخرج من هنا!».

فنهري غروي قائلاً: «ستخرج من هنا إذا طلبت منك ذلك يا بني. أنت لا تعلم قدرات سكوبيل». «ولكن».

رفع غروي يديه: «لا مزيد من النقاش. من الأفضل أن يبقى اثنان منا لمواجهة سكوبيل فقط. سأشعر بتحسن عندما أعرف أنك وماتي بخير». نظر غروي إلى ماكفرلاين وسأله: «إذا؟ أتوافق على إخلاء سبيلهما؟».

نظر ماكفرلاين إلى غروي للحظة وقال: «من ناحية، أنت محق - ليس هناك مكافأة مخصصة بشأنهما. ولكن من ناحية أخرى، على عكس ما قلت، إذا أبقيتهما هنا ستكون مجبراً على إطاعة أوامري حتى لا أؤذيهما. إذاً لن أعقد معك هذه الصفقة. في هذه اللحظة كل الظروف في صالحني ولن أتخلي عنهما بسرعة».

ظل الاسم «ماكفرلاين» يتردد في ذهن شارلوك. ترك الذكرى تتغلغل وحدها إلى ذهنه دون جهد. هل سمع بهذا الاسم مؤخراً؟ كلا. لقد رأى هذا الاسم مؤخراً.

قال شارلوك فجأة عندما تغلغل تلك الفكرة إلى سطح أفكاره: «قضية القتل! قضية قتل السيد بنيديكت فنتام». حاول تذكر جميع الصور العالقة في ذاكرته - صور صفحات الصحيفة التي قرأها من فارنهام إلى لندن، والصحيفة الأخرى التي قرأها في الحديقة في شارع برنسز ستريت. تابع شارلوك: «المرأة التي

تم اعتقالها كان اسمها ماكفرلاين، وذكرت الصحيفة أنها على صلة بعصابة بلاك ريفرز».

ساد الصمت أرجاء الغرفة. أصبحت ملامح وجه ماكفرلاين غاضبة ثم صرخ: «إنها أختي المسكينة. من المؤسف ما حصل لها! إنها بريئة! هي بريئة لا تحب حتى إيذاء الحشرات!». قال غروي: «إنها أخت رئيس عصابة. أعتقد أن الشرطة ألقت نظرة إلى شجرة عائلتها وهذا كان كافياً لرميها في السجن». وقف ماكفرلاين، ونزل عن المنصة، ومشى صوب غروي. وقف الرجلان وجهاً لوجه، وأنفاً لأنف. كانا في الطول نفسه، وتمتعا بالبنية الجسدية نفسها وكثافة الشعر عينها. الفرق الوحيد بينها أن شعر غاهان ماكفرلاين أسود بدلاً من الأبيض.

قال بصوت هادئ، تاركاً أثراً كصوت الصخور وهي تقع في بحيرة: «إنها بريئة. لطالما كرهت العمل الذي أقوم به. أنها تخشى الله وليس هناك شيء في الكون قد يغير فكرها». قال غروي بصوت مشابه لماكفرلاين: «قد تحدث أمور عدة. ربما هاجمها السيد فينثام فاضطرت لقتله دفاعاً عن نفسها».

«لقد كتبت لي رسالة». لم يرمش رمش لماكفرلاين. نظر إلى الرجل الأميركي بجرأة وكأنه يتحداه لوجود أسباب أخرى لكي يثبت أن أخته مذنبه. تابع الرجل الكلام: «أقسمت بالكتاب

المقدس أنها لم تفعل شيئاً قد يؤدي إلى مقتل الرجل. وأنها
حزنت لموته كما قد تحزن على موت والدها. لقد صدقتها».
قال شارلوك بصوت عالٍ: «في هذه الحالة لديّ عرض لك».

الفصل الخامس عشر

نظر ماكفرلاين إلى غروي، كأنه لم يسمع ما قاله شارلوك، ثم أدار رأسه، ونظر مباشرة إلى شارلوك ثم قال: «تفضل أيها الفتى».

«إذا استطعنا إثبات براءة أختك، ستخلي سبيلنا ولن تسلمنا إلى سكوبيل».

سمع شارلوك همسات تدل على الدهشة تبادلها الحشد. التفت غروي أيضاً إلى شارلوك. على عكس تعابير ماكفرلاين المرتاحة والهادئة كان غروي عابساً وكأنه يتساءل عما يخطط له شارلوك. كان على شارلوك الاعتراف أنه لم يعرف ماذا يفعل أيضاً.

قال ماكفرلاين بهدوء: «دعني أفهم الأمر. تريد... ماذا؟ أن تحقق في قضية القتل. تبحث عن أدلة فوتتها الشرطة؟ وهل تعتقد أن باستطاعتك جمع أدلة كافية لتقنع الشرطة ببراءة أختي من هذه الجريمة؟».

هزّ شارلوك كتفيه: «ماذا لديك لتخسره؟ إذا فشلنا في إثبات براءتها، ستسلمنا إلى سكوبيل وتأخذ المال منه. وإذا نجحنا وتمكنا من إثبات براءتها سترجع أختك لك وستدعنا نذهب. في الحالتين أنت الراح».

ابتسم ماكفرلاين وكأنه مندهش من شجاعة شارلوك: «أنت صغير لتكون تحريماً أيها الفتى».

تذكر شارلوك الوقت الذي اتهم به أخيه مايكروفت بالقتل منذ عدة أشهر. لم تكن الشرطة مهتمة في البحث عن تفاصيل الجريمة: كان أمامهم مشتبه به وبعض الأدلة. وكان شارلوك هو من بحث عن القاتل الحقيقي.

قال شارلوك بأسى: «تري الشرطة ما تريد رؤيته فقط. تسلك الشرطة الطريق الأسهل. أنا لا أرى البديهي، أنا أرى الأشياء التي لا تراها الشرطة».

نظر ماكفرلاين إليه من دون أن ينبس ببنت شفة. برزت على وجهه تعابير مختلطة. فكان يبدو أنه وجد بصيصاً لاسترجاع أخته، ولكنه في الوقت نفسه لم يصدق شارلوك. كان هناك شيء في صوت شارلوك يعمل على إقناعه.

أخيراً قال ماكفرلاين: «أعتقد أن بإمكانك البحث في الموضوع. ولكنني سأحتاج إلى مزيد من الإقناع حتى أدعك تذهب. قد تكون هذه طريقة لخداعي حتى أتركك تذهب وتهرب».

أشار شارلوك: «لن أهرب ما دام رفاقي هنا». نظر شارلوك حوله، وبحث عن أي شيء يستطيع إقناع ماكفرلاين به أنه على قدر الحمل.

سأل شارلوك: «أقلت سابقاً أن بعض رجالك يعملون على المرفأ؟».

هزّ ماكفرلاين رأسه.

«ماذا لو أخبرتك أياً من رجالك يعملون على المرفأ وأيهم لا يعملون هناك؟ هل سيقنعك ذلك؟».

«من خلال النظر إليهم فقط؟ من دون أن تسألهم أي سؤال».

هزّ ماكفرلاين رأسه وتابع: «لا أعرف كيف يمكنك ذلك».

قال شارلوك: «أوقف عشرين من رجالك هنا. ولا تخبرني عدد الذين يعملون في المرفأ سأتمكن من معرفة ذلك بنفسى».

قال ماكفرلاين: «دعنى أجعل الأمور أكثر صعوبة. لا يمكنك النظر إلى أيديهم في حال كنت تنوي العثور على أي آثار للحبال عليها».

هزّ شارلوك كتفيه: «حسناً، إن كان ذلك سيسعدك».

ابتعد ماكفرلاين عن أميوس وكأنه نسي أنه كان هناك. أشار إلى عدد من الرجال في الحشد وقال: «أنت، وأنت، وأنت الذي تجلس قرب الحائط، ودوغي أنت أيضاً. وأنت يا فيرغس. ضعوا أيديكم خلف ظهوركم».

بينما اختار ماكفرلاين رجاله العشرين سأل راف ستون شارلوك: «هل أنت متأكد من ذلك؟ هل بإمكانك فعل هذا؟».

أجاب شارلوك: «أعتقد ذلك. لست متأكداً من أن هناك خياراً آخر. يجب أن نضغط عليه حتى يطلق سراحنا. هل لديك فكرة أفضل؟».

هزّ راف كتفيه: «كلا. ليس حالياً».

أعلن ماكفرلاين: «حسناً، أبهرنا بمهاراتك».

اصطف عشرون رجلاً على الحائط، ووضعوا أيديهم خلف ظهورهم. اختلفت أعمارهم من شخص بعمر شارلوك إلى مجموعة من الرجال يبلغون الستين من العمر. تجمع الوسخ حول أعناقهم وخلف آذانهم وزينت أيديهم بالوشوم الزرق. كان لبعضهم شعر طويل يلامس أكتافهم، ولبعضهم الآخر شعر طويل مربوط إلى الخلف.

وقف شارلوك بجانب صف الرجال. بدلاً من أن ينظر إلى وجوههم وثيابهم كما توقع ماكفرلاين، جثى على الأرض ونظر إلى حذاء الرجل الأول بانتباه. سمع بعض الهمسات والضحكات من الحشد ولكنه تجاهلهم. دبب شارلوك إلى بقية الرجال وأمعن النظر بأحذيتهم. عندما نظر إلى نهاية الصف وقف، ونظر الرجال العشرون إلى الأسفل نحو شارلوك بإعجاب وتشكيك في آن. أما الحشد فتبادلوا الهمسات وأشاروا إلى شارلوك.

قال شارلوك: «حسناً». ثم أشار إلى خمسة رجال، وطلب منهم أن يخطوا خطوة إلى الأمام. التفت إلى ماكفرلاين الذي نظر إليه

بإعجاب ثم قال له: «يعمل هؤلاء الرجال على المرفأ بشكل دائم. أما الرجال الآخرون فلا».

أشار ماكفرلاين إلى الرجال حتى ينضموا إلى الحشد مجدداً ثم قال: «أنت محق. كيف عرفت ذلك؟».

أجابه شارلوك: «إنهم يعملون بالقرب من المياه المالحة ولا بد من أنهم يتبللون يومياً بمياه البحر المالحة. لاحظت سابقاً أن المياه المالحة تترك أثراً. عندما يمتص جلد الأحذية المياه المالحة، ومن ثم يجف تبقى علامات بيضاء عليه. بالإضافة إلى ذلك عندما تتجمع بعض المياه المالحة في طيات الثياب ثم تتبخر تترك مكانها بعضاً من حبات الملح. وكان من الواضح لدى هؤلاء الرجال الخمسة وجود العلامات البيضاء على الأحذية أو حبات الملح على الثياب أو كليهما».

اعترف ماكفرلاين: «لقد أعجبت بمهاراتك. من الواضح أنك ذكي ومنتبه أكثر من رجال الشرطة الذين يحققون بالقضية التي اتهموا أختي بها. حسناً، لقد قبلت عرضك لكن علي أن أعلمك أنه ليس لديك كثير من الوقت. إنها - نظر إلى ساعته - التاسعة صباحاً. لقد حضّرت للقاء مع الرجل الذي يريد رفيقك الأميركي عند الساعة الثانية بعد ظهر اليوم. لديك خمس ساعات».

نظر شارلوك إلى أميوس ثم إلى وجه فيرجينيا الأبيض وإلى ماتي الذي أعطاه إشارة الرضا.

قال بتجهم: «إذا كان هذا كل الوقت الذي لدي فسيكون الوقت الذي سيستغرقني لحل هذا اللغز».

أشار ماكفرلاين إلى أحد رجاله: «دان إذا كنت تعلم أين تقع الأرض خلفنا. أحضر عربة من هناك، وخذه إلى منزل الضحية أولاً. بروغ اذهب معهما أيضاً. إذا حاول الهرب ابحثا عنه ومن ثم احضراه إلى هنا. مهما حدث أريده هنا في تمام الساعة الثانية. هل فهمتما؟».

هزّ الرجلان رأسيهما.

قال ماكفرلاين لشارلوك: «إن كبير الخدم في منزل السيد بنديكت فينثام هو... أحد زبائني. أخبره أنك تعمل لدي وسيدعك تلقي نظرة داخل المنزل مع أنني لا أعرف ماذا ستجد هناك».

تمتم شارلوك: «ولا أنا أيضاً». استدار ليذهب مع الرجلين ولكنه توقف، نظر إلى فيرجينيا ثم قال: «سأعود إليك».

ردت: «أنا على ثقة من ذلك».

كان بروغ رجلاً هزيلًا في الثلاثينيات ويغطي النمش رأسه الأصلع. التفت شفتاه بسخرية وكأنه شم رائحة كريهة. قاد شارلوك في الغرفة التي مر بها سابقاً عندما وصلوا إلى المبنى.

مهما يكن الكائن الموجود في أسفل الحفرة يبدأ بشم الهواء عند دخولهما إلى الغرفة. أما في الغرفة المجاورة فاستمر الرجلان بالتقاتل وضرب بعضهما بخفة. بدا الرجلان متعبان ومتورمان من الضرب وغطى الدم وجهيهما. انتهى صراع الكلاب، وبدأ الحشد يفترق رغم أنه بقي بعض الناس هناك لتبادل المال.

توجهوا إلى الخارج، فاستقبلهما نور الشمس الذي تسرب عبر الغيوم الرمادية المحملة بالأمطار. استدار شارلوك إلى الخلف ليلقي نظرة على المبنى الذي خرج منه للتو. توقع بسبب السجاد المعلق على الحائط ورؤوس الحيوانات المعلقة والمشاعل المضاءة أنه في نوع من القصور أو المزارع القديمة ولكنه تفاجأ عندما رأى مخزناً خشبياً كبيراً موجود بين العديد من المخازن الأخرى. بدت المنطقة مهجورة. لا بد من أنها قريبة من المرفأ حيث يعمل الرجال. من الخارج بدا المكان لأكياس القمح وليس مقرأً لعصابة إجرامية. بمزيد من التمويه، من الممكن جعل أي مكان يشبه مكاناً آخر مع بعض المجهود فقط.

كان دان لو بانتظارهما في الخارج. كان أكبر سناً من بروغ، ولكنه أقصر منه وأضخم. بدت ضخامته مؤلفة من العضل وليس الدهن. قاد الرجلان شارلوك إلى عربة سوداء.

بعد نصف ساعة توقفت العربة أمام مبنى مشيد من حجارة رمادية وسطح مصنوع من القرميد الأسود. وكانت هناك قضبان

حديدية على النوافذ. حفرت على صخرة فوق باب المبنى عبارة «شرطة أدنبره ولوثيران».

قال دان لو: «تحتجز الشرطة أخت ماكفرلاين هنا». بدا صوته كصوت حف صخرتين إحداهما بالأخرى. لم يكن الرجل مرتاحاً لوجوده أمام مبنى الشرطة. ثم تابع الرجل: «دعني أدخل لأرى إن كانت الشرطة ستسمح لك بالدخول للتحدث معها».

سأل شارلوك: «مهلاً هذا محرج؟ أعني أنا لست قريباً لها أو حتى لو أدعيت أنني قريبها فسيعرفون أنني أكذب من اللحظة التي أفتح بها فمي لأنني لا أتكلم بلهجة إسكتلندية».

ردّ دان لو: «تدار مصلحة فريدة من نوعها في هذه الناحية من البلاد. أي شخص يملك بعض المال يستطيع رشوة الشرطة لتدعه يدخل ويقابل المجرمين في زنازينهم. يحب المواطنون رؤية الفقراء المسجونين، حتى يتمكنوا من النوم بهناء في الليل. سأذهب وأعطي الشرطي بعض المال وأقول له إنك ابن رجل إنجليزي ثري تريد زيارة السجن. سيكون سعيداً ليدعك تراها لمدة خمس عشرة دقيقة، ما لا شك في ذلك». رأى الرجل تعابير شارلوك المصدومة فقال بسخرية: «ماذا، أظن أن الشرطة أفضل من المجرمين؟ الفرق الوحيد بيننا هو أنهم يرتدون زيّاً موحداً».

دخل مبنى الشرطة وعاد بعد خمس دقائق.

قال الرجل: «هناك شرطي يجلس إلى مكتبه. سيأخذك إلى الزنزانة، ولكن اخرج منها قبل مرور ربع ساعة وإلا سيطلب مزيداً من المال».

دخل شارلوك المبنى. شم رائحة كريهة تشبه العفن. وبالطبع وجد شارلوك شرطياً جالساً إلى مكتبه. كان لديه شارب أبيض عريض. قال الشرطي من دون النظر إلى شارلوك: «تعال من هنا. لديك ربع ساعة لرؤيتها والتكلم معها. تقم بأي شيء غريب. أسمعت؟».

وافق شارلوك: «لا شيء غريب». غير أنه لم يفهم ماذا قصد بكلمة غريب.

وصلا إلى الزنزانة بعد أن صعدا درجاً صغيراً. ذكره هذا المشهد بالوقت الذي زار فيه أخاه في السجن في لندن. تمنى أن تكون هذه الزيارة مثمرة كتلك.

توقف الشرطي أمام باب وفتحه بواسطة مفتاح كبير معلق بحزام حول خصره. دفع الباب، وأشار إلى شارلوك حتى يدخل. حذّره الشرطي مذكراً: «لديك خمس عشرة دقيقة. تقضي السجينة معظم وقتها في البكاء فلا أعتقد أنها ستقوم بأي شيء غبي، كمهاجمتك على سبيل المثال، ولكنك لا تستطيع الجزم بذلك. إذا هاجمته اقرع الباب. سأكون في الخارج».

دخل شارلوك وأقفل الباب خلفه. كان بمفرده مع امرأة قد تكون قاتلة.

استلقت السجينة على السرير الذي بدا مثبتاً بالحائط بواسطة قيود ومفاصل. نظرت إليه. كان عمرها قرابة 35 سنة وكانت عيناها زرقاوين وشعرها مقصفاً. ذكره وجهها بوجه أخيها رغم أنها كانت أصغر حجماً وأكثر نعومة. قالت بصوت ضعيف ولكن حازم: «لست بحاجة إلى كاهن الآن».

قال شارلوك: «أنا لست كاهناً. لقد أرسلني أخوك». جلست وقالت: «غاهان؟». امتلأت عيناها بالقلق وتابعت: «يجب ألا يتدخل». نظرت إلى الباب كأن الشرطي يتنصت عبر الباب. «إذا اعتقدت الشرطة أن له علاقة بالجريمة سيتعقبونه إلى آخر أصقاع الدنيا».

طمأنها شارلوك: «لا تقلقي، لا علاقة لأخيك بهذا. لقد سألته إن كان باستطاعتي النزول إلى هنا لرؤيتك. أريد أن أعرف ماذا حدث».

نظرت بعيداً عنه وترقرقت عيناها بالدموع: «ماذا حدث؟ لقد مات السيد بنديكت وتعتقد الشرطة أنني القاتلة. هذا ما حصل».

«وهل أنت مذنبه حقاً؟».

نظرت إليه وقالت بصدمة: «لا يمكنني قتله! لقد عملت لديه لمدة عشرين عاماً. كان بالنسبة إلي بمنزلة أب!». هزّ شارلوك برأسه: «حسناً. إذاً لماذا تعتقد الشرطة أنك القاتلة؟».

وضعت رأسها بين يديها وقالت: «لأنني طاهيته الخاصة. أو على الأقل كنت طاهيته الخاصة. أحضر له كل طعامه وهو مات مسموماً أو على الأقل هذا ما تقوله الشرطة. فإذا مات مسموماً فلا بد من أنني من قتله. أليس ذلك منطقياً؟». «ولكن من المؤكد أنه كان هناك من يحمل له الأكل ويقترّب من الطعام غيرك؟».

هزت برأسها: «لم يكن السيد بنيديكت يثق بأحد. كان يظن دوماً أن منافسيه في العمل يسعون لتدميره. كان مقتنعاً أنهم سيهاجمونه أو يسمّمون طعامه لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. أحاط الحراس بمنزله لمنع أي كان من مهاجمته أو إضرار النار بالمنزل. واصطحب مرافقاً معه أينما ذهب. كانت أبواب المنزل مقفلة دوماً ونوافذه مغلقة بقبضان حديدية. كنت الشخص الوحيد الذي وثق به ليحضّر طعامه».

تنهدت ثم أكملت: «كان المكان مثل السجن في بعض الأحيان، ولكنني عشت سعيدة رغم ذلك. لقد عملت لديه لفترة طويلة، وكان يعلم أنني لن أقوم بأي شيء لإيذائه. بالإضافة إلى ذلك

كتب في وصيته أنني سأحصل على خمسمئة جنيه إنجليزي. واتبع الأمر نفسه مع كبير الخدم والخادمت والمزارع والحراس». تنهّدت ثم تابعت: «كان متأكداً من عدم استطاعة أي كان من تقديم رشوة لنا لكي نسمح له بإيذائه أو الدخول إلى المنزل. ولكن من الجدير الذكر أن المال ليس السبب الذي يردعني من إيذائه».

«إذاً أنت حضّرت طعامه - وحدك - وقدمت له الطعام أيضاً وحدك؟».

أكدت ماكفرلاين: «نعم، أجمع كل الأشياء بنفسى أيضاً. وأبتاع الأعشاب والخُصّر والحليب من السوق واللحم من الجزار وأخبز الخبز بمفردي».

«حسناً، إذاً لو كان اللحم والخُصّر مسّمين لكان جميع من ابتاعوه في المنطقة المجاورة قد تسّمّموا أيضاً، ولكن لم يتسّمّم أحد؟ أليس كذلك؟».

«صحيح. ولهذا السبب أنا موجودة هنا أنتظر حكم الإعدام». ألقى شارلوك نظرة على ساعته. أحس بالوقت ينفد منه. الآن يفصل بينه وبين لقاء سكوبيل ساعات عدة فقط. «ومتجر الجزار والسوق هما المكانان الوحيدان اللذان تحضرين منهما كل الأشياء؟».

«نعم». ثم ترددت وقالت: «باستثناء الأرانب. يصطاد المزارع الأرانب من خلال نصب الفخاخ. يحضر لي الأرانب فأقوم بذبحها وسلخها وتنظيفها. أحب السيد بنيديكت تناول لحم الأرانب وكان يطلبها مرتين بالأسبوع». أخذت نفساً عميقاً، ولكن هذه المرة كانت على وشك البكاء: «كانت هذه الوجبة التي اعتقدت الشرطة أنها قد تسببت في موته. أطعمت الشرطة الكلب بقايا طعامه فمات أيضاً».

«مثير للاهتمام. كانت وجبته الأخيرة مكوّنة من لحم الأرانب؟».

«صحيح. لقد أحضرت القشدة وحبوب الخردل من الحديقة. أحضر المزارع الأرنب بنفسه. كان دافئاً فعلمت أنه اصطاده للتو».

أجهد شارلوك عقله ليفكر بمزيد من الأسئلة. ولكن لم يخطر بباله أي سؤال. نظر إلى المرأة وهي جالسة على السرير الحديدي الصلب، كانت عيناها مليئتين بالدموع، وبدأ على وجهها مزيج من الحزن والأمل. اعتمدت عليه ليثبت براءتها كما اعتمد عليه أميوس وفيرجينيا وستون وماتي. لم يرد أن يخذلهم ولكن لم تشر إليها إلى أصابع الاتهام. إن كان ما أخبرته إياه صحيحاً فلا بد من أنها دست السم في طعامه. ولكن رغم

ذلك إذا كانت هي المذنبه ألن تؤلف قصة أخرى تبدو بها بريئة؟
من المحتمل أن يتم سجنها وإعدامها بسبب صدقها الزائد.
قال شارلوك: «عليّ رؤية المنزل لألقي نظرة على مسرح
الجريمة. إذا عثرت على شيء سأعلمك على الفور».
تركها في الزنزانة وهي تنظر إليه يذهب بعينين مليئتين
بالأمل.

أخبر دان لو وبروغ أنه يريد الذهاب إلى منزل الضحية. رفعها
حاجبيهما ولكنهما انطلقا إلى المنزل من دون التفوّه بأية كلمة.
استغرقت الرحلة حوالي العشرين دقيقة. تفقّد شارلوك ساعته
خمس مرات وهو يعد الدقائق والثواني.
غادرت العربة الطريق، وسارت صوب مدخل منزل كبير. بدلاً
من أن تتوقف العربة أمام المنزل تابع الرجل قيادتها على رصيف
إلى جانب المنزل.

فسر دان لو: «سنذهب إلى مدخل الخدم».
ترجّلوا من العربة. قادهما دان لو ووقف بروغ في النهاية فيما
اتجها نحو باب في الجهة الخلفية من المنزل. فتح الباب بمجرد
وصولهم إليه. نظر إليهم رجل طويل وهزيل له شارب مضحك.
ارتدى سروالاً مقلماً وسترة سوداء. بدت وجنته اليمنى منتفخة
بعض الشيء وتساءل شارلوك إذا كان يتناول شيئاً قبل وصولهم.

قال: «ماذا تفعلان هنا؟ لقد دفعت المال لرئيسكما هذا الأسبوع. اخرجوا من هنا!».

أجابه دان لو: «يريد السيد ماكفرلاين أن يرى هذا الفتى مكان موت السيد بنديكت».

قال الرجل: «هذا ليس مرفقاً سياحياً. لا تنظم جولات هنا». «هل الشرطة في الداخل؟».

هز كبير الخدم رأسه: «كلا، قالوا إن لديهم كل ما يحتاجون إليه».

«إذاً لا ضرر في أن ترينا المكان الذي توفي فيه الرجل والمطبخ حيث يتم تحضير طعامه. أم تريدنا أن نخبر الرئيس أنك لا تريد؟» تردّد كبير الخدم قليلاً. نظر إلى شارلوك وقال: «يدخل الفتى فقط لبضع دقائق لا أكثر».

نظر دان لو إلى شارلوك.

فقال شارلوك: «من المفترض أن يكون الوقت كافياً». قاد كبير الخدم شارلوك داخل المنزل، من الغرفة المخصصة للخدم حيث كانت الجدران بحاجة ماسة للطلاء والسجاد ممزقاً إلى وسط المنزل حيث كانت الجدران مطلية بدقة وبأجمل الألوان والسجاد سميكاً وكأنك تسير على الغيوم. مشى شارلوك إلى الرواق حيث وضعت ساعة كبيرة في الجهة المقابلة تعد الدقائق

والثواني بصوت عالٍ. استدار كبير الخدم إلى جهة، حيث غرفة الطعام. لاحظ شارلوك أنه يمضغ شيئاً.

قال كبير الخدم: «هنا توفي السيد بنديكت». ثم أوماً برأسه إلى كرسي على رأس الطاولة. «كان يجلس على ذلك الكرسي». فاحت رائحة التبغ بينما تحدث كبير الخدم، ففسّر هذا سبب انتفاخ خده. كان يمضغ التبغ.

سأل شارلوك: «من أحضر الطعام إلى هنا؟». كان شارلوك يعرف الجواب ولكنه أراد التأكد من أنها أخبرته الحقيقة. «آغي ماكفرلاين. كانت مقربة من السيد بنديكت. كانت مقربة جداً منه. دخلت وهي تحمل الصينية وكأن كل شيء طبيعي ولكنها وحدها علمت أن الطعام مسّم».

سأل شارلوك: «هل أنت متأكد من أنها سمّمت الطعام؟». سأل كبير الخدم: «إن لم تكن هي فمن سيقوم بذلك؟». كان السؤال وجيهاً، وسأل شارلوك نفسه السؤال ذاته. ثم سأل شارلوك: «ماذا عن الطبق؟ هل من الممكن أن يكون الطبق مطلياً بالسم؟».

توقف كبير الخدم عن الكلام لبرهة، ولاحظ شارلوك أنه ينقل التبغ من جهة إلى أخرى في فمه. وقال أخيراً: «كان للطاهية أوامر صارمة أن عليها غسل كل الأطباق قبل وضع الطعام فيها. علم الجميع ذلك فما من فائدة لمحاولة طلاء الطبق بالسم».

توقف عن الكلام وفكر ثم تابع: «وتم إعلامي أن الشرطة أطعمت الكلب من الطعام ليس من الطبق بل من القدر التي طهت فيها. مات الكلب. يعني ذلك بوضوح أن السم موجود في الطعام وليس في الطبق».

قال شارلوك ببطء: «نعم. ما يعني أن الطعام تم تسميمه قبل طهيهِ. ولكن ما الفائدة من تسميم الطعام ثم طهيهِ؟ فالسم سيدمر بسبب الحرارة المرتفعة. فمن المنطقي أن تضع السم على الطعام بعض تقديمهِ». شعر ببعض الحماس في صدرهِ. كان هذا أول دليل يمتلكهِ ليساعده على إثبات براءة آغي ماكفرلاين. لم يكن هذا الدليل كافياً لإخراجها من السجن ولكنه كان كافياً ليشجعه في متابعة مسعاه.

أصدرت الساعة الموجودة في الرواق صوتاً عالياً فيما تحركت عقارب الساعة. نظر شارلوك إلى الساعة. يجب عليه أن يكون على المسار الصحيح الآن وإلا فأت الأوان. قال شارلوك: «أريد الذهاب إلى المطبخ».

«اتبعني».

فيما عادا أدراجهما إلى قاعة الخدم، ألقى شارلوك نظرة على ساعته. كانت الساعة العاشرة والنصف. بقي لديه ساعتان ونصف الساعة، ولكنهم سيحتاجون إلى نصف ساعة للعودة إلى المستودع. لقد بدأ الوقت ينفد.

كان المطبخ يشبه المطبخ في عربة آل هولمز - طاولة كبيرة في الوسط مبقعة من كثرة الاستعمال، فرن كبير، منصة مليئة بالأطباق النظيفة، ورف مليء بأجسام الطيور والأرانب، حوض غسيل مربع وكبير... كل المعدات اللازمة للطبخ. لم يكن هناك أطباق متسخة أو قدور مليئة بالطعام. لا بد من أن آغي تنظف كل شيء على الفور، وربما لم تعتقل مباشرة بعد مقتل الرجل فكان لديها الوقت للتنظيف..

لن يحصل على أي دليل هنا.

قال شارلوك: «أريد رؤية مكان اصطلياد الأرنب الذي وُضع فيه السم».

«هذا ليس من مهماتي. أنا أعمل في الداخل وليس في الخارج. سأنادي المزارع».

مشى إلى باب يقود إلى الخارج نحو الحديقة وفتحها. بصق التبغ من فمه ومن ثم نادى: «هندريكس! تعال إلى هنا!».

التفت كبير الخدم إلى شارلوك وقال: «سيجيب هندريكس عن أسئلتك. الآن سأذهب لأعالج أموراً أخرى».

مشى كبير الخدم بعيداً، تاركاً شارلوك وحده عند مدخل المطبخ يتأمل الحديقة المرتبة. انتبه شارلوك لرائحة التبغ المقرفة التي فاحت بعدما بصق الرجل. شعر بالغثيان بسبب

الرائحة. لم يفهم الفائدة من التبغ، إذا كنت تدخنها أو حتى تمضغها. كانت هذه عادات سيئة ولا ينوي القيام بها أيضاً.

ظهر شخص في ممر في الحديقة. كان في الأربعين من عمره، شعره أسود تخلّته بعض الخصلات البيضاء ويرتدي كنزة خضراء وبنطالاً بنياً. قال الرجل بلهجة إسكتلندية على خلاف كبير الخدم: «هل ناداني أحد؟».

«هل أنت السيد هندريكس؟».

«لا داعي للفتنة - السيد -». ثم نظر إلى ملابس شارلوك وأضاف: «سيدي، كيف أستطيع مساعدتك؟».

فكر شارلوك إذا كان عليه إخبار الرجل عن سبب مجيئه ولكنه قرر في النهاية أن يسأله دون تفسير: «الأرنب الذي اصطدته - الذي طبخته آغي - أريد رؤية مكان اصطياده».

نظر هندريكس إلى شارلوك للحظة ثم قال: «حسناً. اتبعني».

نظر شارلوك إلى ساعته. أخذت هذه المهمة وقتاً طويلاً. بدأ الوقت ينفد منه، وحياة الرفاق على المحك.

الفصل السادس عشر

قاد هندريكس الطريق عبر فجوة في سياج من الشجيرات. على الجهة الأخرى من السياج امتدت غابة ضمن نطاق العقار. سار المزارع بخطوات رشيقة بعيداً عن المنزل، ولم يتلفت إلى الخلف ليتأكد إن كان شارلوك لا يزال يتبعه.

تفقد شارلوك ساعته مجدداً. لقد قاربت الحادية عشرة وكل ما يفعله حالياً هو المشي في أرجاء هذا المنزل. يبدو أنه لن يتمكن من إنجاز المهمة.

توقف المزارع على ضفة مجرى مياه. على الجهة الأخرى من الضفة تحولت الأرض إلى مدرجات دائرية مجردة من الأشجار. استطاع شارلوك رؤية حفر داكنة حول الضفة؛ ربما هي جحور للأرانب.

فجأة تذكر رأس الأرنب الذي رآه في فارنهام. السبب الذي بدأ هذه المغامرة. بدا كأنه مضى وقت طويل على ذلك، ولكن في الحقيقة لم يمضِ على الأمر أكثر من أيام قليلة.

قال هندريكس: «أنصب الفخاخ هنا». لم ينظر إلى شارلوك بل نظر إلى المدى البعيد ثم تابع: «أربط الأنشودة إلى غصن شجرة ملتوي. يضع الأرنب رأسه في الأنشودة فيرتفع غصن الشجرة مع الأرانب. إنني أقوم بتفقد الفخ دائماً لأحضر الأرانب إذا علق أي منها».

نظر شارلوك حول الحبل، ولكنه لم يكن متأكداً ما سيبرزه له هذا الحبل من حقائق. بسرعة مشى إلى الضفة الثانية حيث توجد مجموعة من جحور الأرانب. جثا على الأرض وتفقد الجحر الأقرب إليه. لم يكن هناك أي إشارة تدل على وجود أرنب هناك ولكنه لاحظ وجود بعض النباتات عند مدخل الجحر. للحظة أعتقد أنها بقايا طعام جلبها أحد الأرانب معه، ولكنه انتبه لاحقاً إلى أن التفسير غير منطقي. لم يلاحظ البتة أرنباً يجر طعامه معه بل الأرانب تأكل كل ما هو متوفر في مكان وجودها. انحنى وسحب البتة من مكانها. كان هناك زهور أرجوانية على جهة، ولكن تم قطع البتة من الجهة الأخرى. يبدو أن البتة وضعت هنا عمداً. ولكن من فعل ذلك؟

سأل شارلوك وهو يرفع البتة كي يراها هندريكس: «هل تعرف ما هذه؟».

نظر المزارع إلى البتة وعبس: «فوكس غلوف. انتبه منها يا سيدي، ينعته البعض بالبتة القاتلة. لقمة واحدة من أوراقها قد تقتل رجلاً. يعتقد البعض أن استنشاق عبيرها قاتل أيضاً. لقد سرت في هذه الغابة مرات عديدة ولكنني لم أرَ مثلها هنا. يندر وجودها في الأرجاء».

سأله شارلوك: «لماذا قد يأكل الأرنب نباتاً ساماً؟ من المؤكد أن الحيوانات تتجنب أكل الأطعمة السامة». قلب البتة بين يديه

وتابع: «ولكن السؤال الأهم هو من وضع نبتة سامة في مكان يسهل لأرنب الوصول إليه؟».

قال هندريكس: «يقول بعضهم إن للأرنب مناعة على الفوكس غلوف».. بدا على وجهه الارتباك وكأنه يفكر في الأمر مرة أخرى: «ولكنني لا أعلم مدى صحة هذا الكلام».

قاطعته شارلوك والكلمات تخرج من فمه قبل أن يفكر فيها ملياً: «إذا كانت هذه المعلومة صحيحة إذن السم سيتراكم في جسم الأرنب مما سيؤدي إلى تسمم كل من يأكله».

نظر إلى الأعلى كي يلتقي نظره بنظر هندريكس. كان المزارع ينظر إليه عابساً. لمعت في ذهن شارلوك فكرة مفادها أنه إن كان هندريكس هو من وضع النبتة هنا على أمل أن يأكلها الأرنب حتى يتراكم السم في جسمه ومن ثم يعطي الأرنب إلى آغي كي تطبخه فقد ارتكب جريمة فظيعة. فإنه سيسعى لمنع شارلوك من كشف أمره. شنج شارلوك عضلاته كي يطلق ساقيه للريح بمجرد أن يبدأ المزارع بمهاجمته.

ولكن كلا، إذا كان هندريكس القاتل، لماذا قد يخبر شارلوك بالمعلومة التي ستفضح أمره.

سأل الرجل: «ترك أحدهم النبتة هنا عن قصد حتى يأكلها الأرنب؟ ما يعني أن الأرنب الذي اصطاده كان مسقماً مسبقاً؟».

هزّ شارلوك رأسه: «كم من الوقت سيستغرق حتى يتجمع السم في جسم الأرنب؟».

قال هندريكس: «حوالي أسبوع أو أسبوعين.. ولكن من قد يفعل شيئاً همجياً كهذا؟».

بدل من أن يجيب شارلوك نظر إلى الأرض. كانت الأرض صلبة؛ صلبة بما فيه الكفاية حتى لا تترك بصمات أقدام. من الممكن أنه عرف كيفية حصول الجريمة ولكن كل هذا دون نفع إذا لم يعرف الجاني.

أراد أن يتفقد الوقت، ولكنه منع نفسه من فعل ذلك. لن يساعده ذلك على التفكير بسرعة أكبر.

حوّل نظره إلى الأرض حيث تناثرت الجحور. أراد أن يجد أي شيء يساعده على حل اللغز عندما انتبه أخيراً إلى وجود شيء غريب على الأرض. كان الشيء بنياً وقاسياً، وبدا لبرهة دودة طويلة ومستقيمة. نظر إليها دقيقة وهو يتساءل: كيف يمكن لدودة ميتة أن تكون في هذه الوضعية المستقيمة.

أخيراً، انتبه إلى أن الشيء الموجود أمامه ليس دودة. كان الشيء تبغاً مبصوقاً جف مع الوقت على التراب.

نظر إلى هندريكس. كان المزارع قد تتبع نظر شارلوك وينظر إلى العلامة أيضاً.

تمتم شارلوك: «أتمضغ التبغ؟».

أجابه: «كلا لم أعتد على مضغ أو تدخين التبغ. ولكنني أعرف من يقوم بذلك هنا».

تذكر شارلوك كبير الخدم داخل المنزل وهو يمضغ كمية كبيرة من التبغ وكيف أنه ادّعى أن لا علاقة له بالغابة. إذا كان محقاً لماذا كان موجوداً هنا في هذه المسافة البعيدة عن المنزل؟ قال شارلوك: «عليك الذهاب إلى الشرطة وإخبارهم بما اكتشفت».

قال المزارع: «أنت من اكتشفت ذلك ولست أنا. كان علي الانتباه إلى كل هذا ولكنني لم أفعل ذلك».

هزّ شارلوك رأسه: «لن تقتنع الشرطة مني فما زلت صغيراً ولست من المحليين. هناك احتمال أكبر أن يصدقوك. إذا أردت أن يطلقوا سراح آغي، عليك إخبارهم بكل شيء».

«حسناً سأفعل ذلك. لطالما أحببت آغي. سأبذل قصارى جهدي لإخراجها. ولكن ماذا عنك؟».

الآن التفت شارلوك إلى ساعته.

كانت قد تجاوزت الواحدة ظهراً بعشر دقائق. كان لديه أقل من ساعة ليعود إلى ماكفرلاين ويقنعه أنه أنجز مهمته بنجاح.

قال شارلوك: «علي الذهاب. يجب أن أوجد في مكان آخر الآن».

ركض شارلوك إلى المنزل حيث انتظره بروغ ودان لو. قبل أن يصعد إلى العربة صرخ شارلوك: «علينا العودة بسرعة».

عندما صعد إلى العربة كانت قد بدأت بالتحرك. نظر شارلوك إلى الخلف حيث المنزل. تهيأ له رؤية كبير الخدم ينظر إليه عبر نافذة الطابق السفلي ولكن كانت العربة تسير بسرعة هائلة. فيما انطلقوا لم يستطع شارلوك منع نفسه من التفكير بالسيدة إيغلانتين: هل جميع العمال الذين يديرون المنازل مجرمين؟

أبقى الساعة في يده فيما سارت العربة في شوارع أدنبره وأزقتها. تسارعت دقات قلبه وشعر بضغط عالٍ في أذنه وجبينه. أراد القفز من العربة والركض ولكن لم يكن ذلك منطقياً. لن يساعده ذلك لأن العربة تسير بسرعة أكبر منه.

يكره شارلوك الانتظار، ويكره الاعتماد على الآخرين للقيام بأمور مختلفة. أراد القيام بشيء ما الآن.

نظر إلى خارج العربة للمرة الألف. مرت بالقرب منه جدران، ونوافذ وإشارات ومصابيح بسرعة. كان متأكداً من أن أدنبره مدينة رائعة ولكنه يكرهها الآن.

لاحظ أنهم اقتربوا عندما بدأ برؤية المخازن عوضاً عن المنازل العادية. عندما توقفوا قفز من العربة وركض نحو المستودع الذي دخله سابقاً. قاعدة ماكفرلاين.

صرخ دان لو: «أيها الفتى! انتظرنّا!». تابع شارلوك الركض، ودخل عبر باب المستودع مخترقاً حائطاً من الرجال حاولوا ردعه ومنعه من الدخول. ترك الرجال يصرخون فيما دخل الغرفة حيث تصارع الكلبان ومن ثم دخل الغرفة حيث تصارع الرجال. قال باكيّاً فيما دخل الغرفة التي جلس فيها ماكفرلاين: «لقد أنجزت المهمة!». نظر إلى أميوس غروي الذي وجده واقفاً بطريقة دفاعية إلى جانب فيرجينيا وماتي وراف. تحولت الأنظار إليه فيما توقف بسرعة أمام منصة ماكفرلاين. كرّر شارلوك: «لقد أنجزت المهمة! أعرف من قتل السيد بنيديكت فنشام، أختك ليست القاتلة. إنه كبير الخدم. لا أعرف لماذا ولكنني أنا متأكد أنه هو».

قال ماكفرلاين: «هذه أخبار رائعة». بدت ملامحه متجهمة ثم تابع: «أنا مدين لك كما اتفقنا. ولكن المشكلة هي أنني لست في وضع مناسب لأدفع لك وأنت لست بوضع جيد للاستلام».

أراد شارلوك أن يسأله عن معنى كلماته وأن يشير إلى أنه تم الاتفاق مسبقاً بينهما، ولكنه انتبه إلى أن معظم العيون لم تكن مسلّطة عليه أو على ماكفرلاين بل خلفهما صوب الباب. علم مسبقاً ما كان بانتظاره.

وقف عشرة رجال على الحائط بطريقة تجعل من المستحيل لمن ينظر إلى داخل الغرفة من الخارج أن يراهم. صوب تسعة

رجال سهامهم إلى ماكفرلاين ورجاله وشارلوك. ووقف الرجل العاشر بهدوء أمامهم. كان قصير القامة. تم تفصيل ملابس هذا الرجل حتى تبدو ملائمة له تماماً. أسند يده إلى عصا سوداء خشبية وضعها أمام قدميه. وشكلت جمجمة ذهبية رأساً للعصا. لاحظ شارلوك كل تلك التفاصيل بلمح البصر، ولكن ما أذهله وأبقى ذهنه منشغلاً للحظة هي الوشوم التي غطت بشرته. لم يكن هناك جزء من جسمه غير مغطى بوشوم لأسماء أشخاص. من حيث وقف شارلوك استطاع رؤية أسماء «ألفرد وايتنينغ» و«بيل كوتيمفهام» و«ويني ثوماس» و«بول فالوس». كانت كل تلك الأسماء بالأسود باستثناء اسم كتب بخط عريض على جبينه وهو «فيرجينيا غروي».

قال شارلوك بهدوء: «سكوبيل».

قال سكوبيل بصوته الهادئ: «لقد التقينا مجدداً. أعذر فأنا أعرف أنه لم يحن موعدى بعد ولكنني لم أستطع الانتظار أكثر. فالسيد غروي وابنته الجميلة فيرجينيا موجودان في عقلي وعلى جلدي منذ فترة طويلة». نظر إلى شارلوك. ثم تابع: «لقد سببت لي كثيراً من المتاعب بالأمس. لقد أذيت رجلين من رجالي».

نظر شارلوك إلى صف رجال شارلوك ولكنه لم يجد أي مصاب.

تابع سكوبيل وارتسمت ضحكة على وجهه: «لن تجدهما هنا. كالأحصنة أقتلهم عندما يتأذون».

سأل شارلوك: «إذاً لماذا يعمل لك الآخرون؟ لو كنت مكانهم لما خاطرت». فيما تكلم تفحص شارلوك جسم سكوبيل، بحثاً عن أي شيء، أي نقطة ضعف قد تساعد في حال تعاركا، أو أي شيء قد يهدده به شفهيّاً ولكنه لم يجد شيئاً. لم يكن هناك أي دليل عن شخصية سكوبيل من مظهره، كأنه دمية تمشي وتتكلم فقط.

ردّ سكوبيل: «يخافون مما سيحل بهم إذا تركوا العمل لدي، وأنا بالطبع أدفع لهم كثيراً من المال لأعوض عن خطر الوظيفة. إن هناك شيئاً واحداً تعلّمته عن الإنسان طول حياتي فهو أن الإنسان يعتقد أنه لن يموت أبداً. قد يعتقد أن غيره قد يموت ولكنه شخصياً لا يُقهر ولن يموت».

جذبت الجمجمة الذهبية على العصا انتباه شارلوك. شعر وكأن العينين تنظران إليه. ظن أنه رأى شيئاً أعلى الجمجمة كفتحة صغيرة ولكن قبل أن يتمكن من معرفة ما هي بالضبط رفع سكوبيل العصا، وأدارها حتى أصبح أسفل العصا قبالة وجه شارلوك. ضغط سكوبيل على عين الجمجمة اليسرى فانبثقت سكين حادة من أسفل العصا. لم يكن طرف السكينة يبعد عن وجه شارلوك أكثر من نصف إنش.

شعر بالعرق يتصبّب من وجهه.

قال سكوبيل بالنبرة الهادئة التي طالما استخدمها: «ليس هناك وقت كافٍ للمحادثة، فأنا أتبع جدولاً ووقتي مزدحم جداً وهناك شيء أردت القيام به منذ وقت طويل. يقول الناس: من الأفضل أن تقدم الانتقام بارداً ولكن الانتقام تعفّن على طبعي». نظر إلى غروي وقال: «أنت تدين لي بمقتل زوجتي وابنتي».

صرخ غروي من المنصة: «دع الفتيين يذهبان يا سكوبيل. لم يقوما بأي شيء لإزعاجك. أنت تريد الانتقام مني وليس منهما». ردّ سكوبيل: «على العكس، لقد كلّفاني خسارة رجلين من خيرة الرجال. سأنتقم منهما لاحقاً. سأبدأ بابنتك الجميلة التي أعدك أنها لن تبقى جميلة بعدما أنتهي منها ومن ثم سأنتقل إليك يا غروي».

تقدم غاهان ماكفرلاين وصرخ: «هذه منطقتي. أنت مجرد ضيف هنا. أنا الوحيد الذي أصدر الأوامر هنا».

حدّق سكوبيل إلى ماكفرلاين وأشار قائلاً: «أحمل بين يدي كل البطاقات. لم تقم حتى الآن بأي شيء كي تستفزني ولكن لتتأكد من أنك ستعيش ليوم آخر يجب أن تبقى كذلك».

صرخ ماكفرلاين: «لا يمكنك إعطاء الأوامر في...».

قبل أن يستطيع إكمال جملته رفع سكوبيل يده الشاغرة، فأطلق أحد رجاله سهماً في الهواء. واستقر السهم في وسط

صدر دونهام، أحد رجال ماكفرلاين. نظر دونهام إلى طرف السهم المنغرز في صدره بخوف ثم خرّ صريعاً. حاول النظر إلى ماكفرلاين ليخبره شيئاً ما ولكن الروح كانت قد عادت إلى باريها.

قال سكوبيل بنبرة هادئة يستعملها المرء حين يشتري الصحيفة في الصباح: «إنني أعطي الأوامر متى وأينما أشاء». نظر شارلوك حوله، وراقب كل شيء موجود في الغرفة، وحاول حساب المعطيات المتوفرة في الغرفة التي قد تمكنه من تغيير المعادلة، كان وضع رجال سكوبيل الأفضل في الغرفة، ولم يستطع التوصل إلى أي معطى آخر. بعد بضع دقائق سيخسر فيرجينيا وأميوس غروي. وبعد ذلك قد يكون هو وماتي وستون في عداد الموتى. كان عليه القيام بشيء ما.

نظر شارلوك إلى غاهان ماكفرلاين. كان الرجل بدوره ينظر إلى شارلوك أيضاً. عندما التقت نظراتهما حوّل ماكفرلاين نظره إلى مدخل الغرفة المجاورة ومن ثم إلى شارلوك مجدّداً وهز رأسه.

ما الذي كان يحاول إيصاله لشارلوك؟

تذكر شارلوك الحفرة الموجودة وسط الغرفة المجاورة والكائن المخيف المحتجز داخلها.

أهذا ما أرادته ماكفرلاين أن يفكر فيه؟

لم يعرف ما هو الكائن الموجود في الحفرة، ولكن نظراً إلى عراك الكلبين والرجال الذي شاهده سابقاً ورؤوس الحيوانات المعلقة على الجدار توقع شارلوك أن ماكفرلاين يستمتع بمشاهدة الناس والحيوانات تتعارك. مهما كان الكائن المحتجز في الغرفة لا بد من أنه كبير ومخيف.

خطرت في بال شارلوك فكرة ولكن كان عليه الوصول إلى الغرفة المجاورة أولاً.

قال سكوبيل: «لقد حان الوقت. لقد بقي الاسمان الموجودان على جبيني ويدي حمراوين لوقت طويل. يجب الآن تغطيتهما بالحبر الأسود».

فيما تقدم سكوبيل إلى الأمام، ثبت نظره على الجمجمة الذهبية. فعند الضغط على العين يظهر سكين عند الطرف السفلي من العصا ولكن للجمجمة عينيْن اثنتين.

مدّ شارلوك يده وضغط على عين الجمجمة اليمنى.

اخترق سكين من الطرف الأعلى للعصا يد سكوبيل. فصرخ: صرخة عالية مدوية صدمت الموجودين في الغرفة باستثناء شارلوك. دفع شارلوك رجال سكوبيل، واتجه نحو الباب للخروج إلى الغرفة المجاورة حيث الحفرة. أخيراً، انتبه رجال سكوبيل لما يحصل ولحقوا بشارلوك وهم يطلقون الأسهم عليه، ولكنه كان قد خرج من الغرفة قبل أن يصل إليه أي سهم. سمع شارلوك

صغير الأسهم المتطايرة في الهواء وصوت صرخات عالية حين تهبط تلك الأسهم. كان رجال سكوبيل يصيبون بعضهم بعضاً عن طريق الخطأ.

ساد هرج ومرج في الغرفة التي غادرها شارلوك، وعلا صوت الصراخ والبكاء، وصدى خطوات أقدام الناس الخائفة والضائعة. ولكن شارلوك لم يهتم إلى كل هذا، بل ركّز على الحفرة الموجودة أمامه المحاطة بالألواح الخشبية المرتفعة.

أصدر الكائن الموجود أسفل الحفرة صوتاً مرتفعاً. سمع شارلوك صوت خطوات الكائن وهو يركض باتجاه جدار الحفرة.

أمسك شارلوك بأحد الألواح الخشبية وعمد إلى سحبه إلى الأعلى، كانت الألواح مثبتة بالأرض، ولكنها بدت غير راسخة بعض الشيء. في البداية، كان من الصعب نزع اللوح من مكانه، ولكن اليأس الشديد ضاعف من قوة وعزيمة شارلوك فتمكن من نزع اللوح في النهاية. كان طول اللوح حوالى خمس عشرة قدماً وعرضه حوالى ثلاث أقدام وكان ثقيلاً، فواجه صعوبة برفعه عن الأرض. ولكنه رفعه في النهاية، أداره ومن ثم رماه إلى داخل الحفرة بحيث بقي طرف اللوح على حافة الحفرة أمام قدميه والطرف الآخر على أرض الحفرة.

لقد شكّل بواسطة اللوح منحدرًا ليصعد عبره الكائن الموجود في الأسفل.

خرج الكائن الضخم عبر المنحدر، ووقف على قائمته فاتحاً ذراعيه، مبرزاً مخالب حادة كالسكاكين. كان الكائن دَباً - دَباً بني اللون - وكان طوله حوالى عشر أقدام من ذيله إلى أنفه. لمعت عيناه باللون الأحمر من شدة الغضب. الله وحده يعلم من أين جلب ماكفرلاين هذا الدب. من المرجح أنه جلبه إلى هنا عندما كان رضيعاً. لا بد من أنه كان محبوساً في الأسفل لسنوات عديدة وتعرض إلى عنف كثير وخاض معارك عديدة وهو الآن حر للمرة الأولى.

مرّ الدب يده أمام وجه شارلوك. انحنى شارلوك أرضاً وتدحرج بعيداً عن الدب. في تلك اللحظة دخل ما تبقى من رجال سكوبيل الغرفة باحثين عن شارلوك. نسي الدب شارلوك عندما رأى الرجال مع سهامهم. عندها تذكر الدب كل معاناته. فهاجم.

سقط شارلوك في الحفرة. وسمع صوت صراخ رجال سكوبيل وصوت الدب المخيف.

شعر شارلوك بنفسه ينقطع أثناء ارتطامه بأرضية الحفرة. امتلأ نظره بالنجوم وتطلب الأمر عدة ثوان حتى رجع إلى حالته الطبيعية. وقف شارلوك بحذر وتفقد الحفرة جيداً. عمقها حوالى خمس عشرة قدماً وكانت العظام متناثرة في أرجائها. كانت

العظام قديمة ولكن كان هناك بعض العظام الملطخة بالدم. أعتقد شارلوك أنه رأى بعض العظام البشرية بينها.

تسلق شارلوك المنحدر بحذر وتأكد من أن الدب لم يعد موجوداً في الغرفة قبل أن يخرج. وجد شارلوك خمسة أو ستة من رجال سكوبيل على الأرض، وكان من الصعب عليه التأكد من عددهم بسبب حالتهم المزرية.

غادر شارلوك الغرفة بحذر.

هرب معظم رجال ماكفرلاين إلا أنه بقي على المنصة قرب عرشه إلى جانب ماتي وراف ستون وأميوس غروي وفيرجينيا. كانوا يشاهدون ما يحدث في وسط الغرفة بهلع.

مزّق الدب من بقي من رجال سكوبيل في الغرفة. من الواضح أنهم حاولوا إيقافه وقد أطلقوا جميع الأسهم وقد علق بعضها في فرو الدب الكثيف. بعدما انتهى الدب من الرجال اتجه نحو سكوبيل. كان طول الدب ضعف طول سكوبيل. لم يظهر على وجه سكوبيل ملامح الخوف أو الألم رغم الدم المتدفق من يده اليمنى حيث اخترق السكين يده.

قال سكوبيل بتبرم: «ابتعد عن طريقي. لدي أمور مهمة عليّ إنجازها».

مدّ الدب مخالبه صوب سكوبيل، وغرسها في صدره ورفعته إلى الأعلى كدمية. عندما أفلته حلق في الغرفة قبل أن يصطدم

بالحائط. شاهد شارلوك جسده المحطم ينزلق. كانت تعابيره هادئة، وتظهر عدم مبالاة كالعادة، ولكنها ستبقى هكذا إلى الأبد هذه المرة.

اشتتم الدب رائحة الأشخاص الموجودين على المنصة. نزل الدب ومشى على قائمتيه باتجاه المنصة. اهتزت الأرض بسبب وزنه.

لحق شارلوك الدب. أدرك أنه يتوجب عليه لجمه، ولكنه لم يعرف كيف. وجد أمامه قوساً وسهماً يعودان لأحد رجال سكوبيل. لم يتم استعمالهما بعد. انحنى ورفع القوس عن الأرض. بدا وأن هناك خمسة أو ستة أسهم مغروسة في فرو الدب ولكن لم يبدُ عليه أنه منزعج أو يعاني منها. ربما على شارلوك ايجاد منطقة الدب الحساسة. هل للدبة مناطق حساسة كما للبشر؟

خطا غاهان ماكفرلاين خطوة نحو الأمام، ولكن أميوس غروي وضع يده على كتف الرجل. نظر ماكفرلاين إلى الأميركي عابساً. تقدم أميوس على ماكفرلاين ونزل عن المنصة ثم مشى صوب الدب. تجمد ماتي وراف ستون. اقترب الدب أكثر فأكثر من أميوس. استطاع شارلوك رؤية فيرجينيا تضع يدها على فمها. بدت الصدمة على وجهها وتوسعت عيناها. استطاعت تخيل أبيها يموت أمام عينيها.

رفع شارلوك القوس وصوبه إلى عنق الدب. ربما استطاع إصابة عموده الفقري. عرف بالطبع أن فرص نجاحه ضئيلة خاصة وأن يديه ترتجفان. ولكن عليه القيام بذلك لإنقاذ رفاقه. وقف الدب على قائمتيه الخلفيتين. حام فوق أميوس ماداً يديه ومخالبه، ورفع أنفه للأعلى وأصدر صوتاً يصم الأذن. عندها قام أميوس بأجمل شيء رآه شارلوك طوال حياته. رفع يده إلى الأعلى، وأرجع رأسه إلى الخلف وصرخ كالدب تماماً. تردّد صدى صوته في أرجاء الغرفة. بدا أميوس للحظة بصدرة العريض ويديه ورجليه المفتولة العضلات أكبر من الحقيقة. بدا دبّاً أبيض يرتدي ثياباً بنية؛ دبّاً قطبيّاً. أخفض الدب رأسه ونظر إلى أميوس. اشتّم رائحة أميوس مجدّداً.

قال غروي بصرامة: «لقد تعاملت مع دبة أكبر منك ووحوش أضخم منك من قبل. اذهب من حيث أتيت واستمتع بنهار آخر في هذه الدنيا».

وبالفعل نزل الدب ووقف على قوائمه الأربع. حتى عندما نزل أصبح بطول أميوس. اشتّم الدب غروي لفترة طويلة ثم غادر الغرفة عائداً إلى الحفرة. مر أمام شارلوك من دون أن يلتفت إليه وبقي ينظر إلى الأرض.

كسر ماكفرلاين الصمت وقال: «يدفع المرء كثيراً من المال ليشاهد ما فعلته للتو. هل باستطاعتي عرض وظيفة عليك سيد غروي؟ تواجهه الدب مرتين في الأسبوع وستتفق على الراتب لاحقاً؟».

نظر غروي إلى شارلوك. رأى القوس بين يدي شارلوك فهز رأسه وقال: «لقد تركت مصارعة الدبة منذ زمن طويل أفضل التعليم الآن. أجد فيها تحدياً أكبر».

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي غادروا إسكتلندا. استغرق شارلوك في نوم عميق طوال الرحلة. كان متعباً، جسدياً وفكرياً. لم يبدُ أن أحداً من رفاقه جاهز وراغب في الكلام. في بعض الأحيان عندما استيقظ شارلوك من نومه العميق وجدهم إما نائمين وإما يقرأون الصحف أو ينظرون إلى الخارج عبر النافذة. ركض ماتي بسرعة من القطار في نيو كاسل وعاد إليه بسرعة في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقه مجدداً وفي يديه كيس ورقي مليء بالخبز. كان هذا كل ما حدث خلال هذه الرحلة.

في فارنهام ودّع الأصدقاء بعضهم بعضاً بينما أفرغ الركاب أمتعتهم من القطار.

سأل راف غروي: «ستبقى هنا، أليس كذلك؟». كان هذا هو السؤال الذي أراد شارلوك سؤاله ولكنه لم يجد الوقت لطرحه.

أجابه غروي وهو يضع يده اليسرى على كتف فيرجينيا التي أصبح وجهها أصفر: «ليس هناك من سبب للذهاب إلى أي مكان آخر. لا داعي للهرب بعد اليوم وليس هناك شيء يشدني للعودة إلى بلدي». نظر إلى فيرجينيا ومن ثم إلى شارلوك وتابع: «على العكس لدينا كثير من الأسباب للبقاء هنا. طالما الكوخ موجود في مكانه، ولم يستقر أي غريب فيه. بعدما تركناه ستروني هنا كثيراً».

قال ستون: «أعتقد أنني أتكلم نيابة عن الجميع عندما أقول أنني سعيد لأنكما ستبقيان هنا لأن الحياة من دونكما مملة، ولكنها بصراحة أكثر أماناً».

مدّ غروي يده اليمنى باتجاه ستون وقال: «كنت إلى جانبي عندما كنت بحاجة إليك. هذا هو التعريف الوحيد الذي أعرفه للصدقة. شكراً لك».

صافح ستون غروي متفاجئاً فهو لم يتوقع سماع هذا الكلام الجميل. أغمض عينيه قليلاً لأنه تألم بسبب ضغط غروي الشديدة على أصابعه الناعمة. «كنت لأقول إنه من دواعي سروري أن أقوم بذلك، لكنه لم يكن كذلك، وكنت لأقول لك أن تتصل بي إذا كنت بحاجة إلى أي شيء ولكنني أتمنى ألا تقوم بذلك أيضاً». ابتسم ستون ليظهر أنه كان يمزح فقط. «ولكن رغم ذلك كله فأنت مرحب بك على الدوام».

ثم صافح غروي يدّ ماتي: «يا بني أنت شجاع وذكي في الشارع. بفطرتك وذكاء شارلوك ستشكران ثنائياً لا يُقهر. أكرر شكري».

ردّ ماتي وهو يتحرك بعدم ارتياح: «بدوري أرحب بك». لم يكن معتاداً على تلقي المدح.

ثم التفت غروي إلى شارلوك، ونظر إليه قائلاً: «شارلوك، في كل مرة أعتقد أنني أعرفك، أجده تفاجئني مجدداً. لست متأكداً

بعد اليوم من هو التلميذ ومن هو الأستاذ. أعتقد أن الأمور أصبحت شراكة متساوية بيننا ولا أشعر بعدم الارتياح لأجل ذلك. لا أعتقد أنني كبير جداً على التعلّم». توقف للحظة ومن ثم تابع: «في الحقيقة لولاك لكنت وفيرجينيا في عداد الأموات الآن. أدين لك بأكثر مما أستطيع التصريح به».

نظر شارلوك بعيداً إلى محطة القطار المكتظة وقال: «أحب أن يكون كل شيء في حياتي مألوفاً. أحب أن أعرف أين أجد كل شيء وذلك ينطبق على الأشخاص أيضاً».

«حسناً، يا بني الآن تعرف أين تجدنا فلا تتصرّف كغريب».

أنزل غروي يده عن فيرجينيا، وجهز نفسه للانطلاق إلى الكوخ، ولكن فيرجينيا تقدمت خطوة إلى الأمام نحو شارلوك.

قالت ببساطة: «شكراً». وقبّلته.

قبل أن يقوم بأي شيء سوى الاحمرار خجلاً، كانت قد ذهبت إلى الكوخ شابكة يدها بيد أبيها. في المحطة، صَفّر القطار معلناً عن قرب انطلاقه.

قال راف كاسراً الصمت: «أعتقد أنني بحاجة إلى كأس من الشراب وضادة مدهونة بمرهم لأصابعي، أو كأس من المرهم وضادة مدهونة بالشراب. ففي الحالتين طعم المشروب هنا في فارنهام كالمرهم. دعنا نؤجل دروس الكمان. أعتقد أن أصابعك أكثر خفة الآن من أصابعي ولا أحب أن أتعرض للإحراج».

نظر راف إلى ماتي ورفع أصابعه إلى جبينه وحيّاه: «إلى لقاء قريب سيد آرنت».

مشى ستون مبتعداً. شاهد شارلوك يغادر. كان على شارلوك الشعور بشيء ما حيال الوداع الحاصل حوله ولكنه كان مخدراً بسبب قبلة فيرجينيا.

قال ماتي: «سأراك في الغد».

أجابه شارلوك: «أعتقد ذلك، ولكن الآن لا أستطيع التفكير بشيء سوى النوم».

نظر ماتي إلى البضاعة التي تم إفراغها من القطار ثم قال: «يبدو أن هناك أشياء كثيرة في هذه الصناديق. سأتبعها في حال حدث حادث ما وتحطم أحد الصناديق».

ابتسم شارلوك. لا يمكن إيقاف ماتي مهما حصل. سيجد طريقة للاستمرار والعيش رغم كل الصعوبات التي قد تواجهه. في الحقيقة لن يفاجأ شارلوك إن أصبح ماتي رجل أعمال مهماً عندما يبلغ الخامسة عشرة أو العشرين صاحب استثمارات في شتى أنحاء البلاد، ولكنه سيظل يسرق الحلوى عن رفوف المتجر. كان شارلوك متأكداً من ذلك.

«يعتقد الناس أن هناك خطأ فاصلاً بين العمل القانوني والعمل غير القانوني. ولكنني أظن أن الشيء المهم الذي تعلمته من خلال العيش هنا هو أنه ليس هناك خط. هناك كثير من اللون

الرمادي بين الأبيض في طرف والأسود في الطرف الآخر. علينا أن ننتبه فقط إلى المكان الذي نختار أن نقف فيه. طالما أنني أقرب إلى الطرف الأبيض من الأسود فأنا على ما يرام». ابتسم ماتي ثم استدار وركض.

وقف شارلوك دقيقة منتظراً حدوث شيء ما. لم يكن متأكداً ما سيكون هذا الشيء. ولكن عندما مرت دقائق عدة من دون أن يتقدم أحد للكلام معه أو دون أن يحدث أي شيء مشوق حوله غادر المكان.

عاد إلى عربة آل هولمز بعربة أحد المزارعين. قفز من العربة عند البوابة، ومشى حتى وصل إلى الباب الأمامي وهو يحمل حقيبة ملابسه.

لم يكن الباب موصداً فدفعه ودخل المنزل. تدفق نور الشمس إلى الممر، وامتلاً الممر الذي بدا مظلماً لأشهر عدة بالدفء والنور أخيراً. بدا المنزل مختلفاً تماماً. هل أعتاد المنزل هكذا أم تغير حقاً بعدما غادرت السيدة إيغلانتين؟ هل أخذت الظلال والظلام معها؟

عندما خطا داخل الممر تقدم نحوه شخص من غرفة الطعام. سأله صوت ما: «لا بد أنك السيد شارلوك؟».

استطاع شارلوك بنظره المتعب رؤية امرأة متوسطة العمر ذات شعر ذهبي اللون مربوط في كعكة إلى الخلف وملفوف بشبكة

صغيرة. بدا وجهها لطيفاً وعيناها بنيتين ومفعمتين بالحياة. على الرغم من أنها ارتدت اللون الأسود كان في ثيابها شيء يدل على الحفلات والرقص عوضاً عن الموت والحزن.

قال: «صحيح. لقد غبت عن المنزل لأيام عدة فقط».

«هذا ما قاله لي السيد. لقد توقع مجيئك عما قريب». ابتسمت ثم تابعت: «أنا السيدة مالهيل، وسأعمل في هذا المنزل. لقد باشرت العمل هنا بالأمس».

«أهلاً بك».

«شكراً. أنا متحمسة للعمل هنا». نظرت إلى حقيبته وقالت له: «أنا على ثقة أن في حقيبتك ثياباً وسخة بحاجة إلى غسل. إذا أردت أن تجلس في مكان مريح فيما أحضر لك بعض الشاي والبسكويت. السيد والسيدة ليسا هنا ولكنهما سيعودان قبل العشاء».

قال: «بسكويت وشاي، كم هذا مدهش».

أعطاه حقيبته وتوجه إلى المكتبة. في غياب عمه كانت المكتبة المكان الوحيد الذي شعر فيه بالراحة. فالغرفة الأمامية لاستقبال الضيوف وغرفة الطعام للأكل ولم يرد الصعود إلى غرفة نومه في الأعلى.

جلس على كرسي عمه الجلدي، واستمتع برائحة الكتب حوله. على الطاولة رأى مجموعة من الرسائل والخطب التي طلب منه

عمه فرزها قبل أن يدخل جوش هاركينز، وغاهان ماكفرلاين، وسكوبيل في حياته. بدا هذا منذ زمن بعيد.

كان قد اطلع على الخطبة الموجودة أمامه- كانت عن هجوم شنه كاهن على بعض المجموعات المنشقة عن الكنيسة. جذب اسم الكنيسة الوارد في وسط الخطبة انتباه شارلوك. شعر وكأن نوراً شع في عقله.

الأطباق الذهبية. كانت السيد إيغلانتين مهووسة بإيجاد الأطباق الذهبية لأنها سمعت عم شارلوك يتحدث عنها. كانت مصرة على أنه في داخل هذا المنزل مجموعة من الأطباق الذهبية ولكنها لم تجدها بعد.

هناك كنز بالطبع، ولكن ليس من النوع الذي توقعته. تذكر شارلوك ما قرأه سابقاً في مكتبة عمه عن كنيسة المورمون. بدأت الحركة في أميركا منذ حوالي أربعين عاماً بقيادة رجل يدعى جوزيف سميث جونيور. كان هذا الرجل يدعي أن بحوزته نصاً مقدساً يُدعى كتاب المورمون. عندما سئل من أين حصل على هذا النص قال إنه عندما كان في السابعة عشر من عمره أخبره ملاك يدعى موروني أن هناك مجموعة من الكتابات القديمة للأنبياء المحفورة على صخور ذهبية وهي الآن مدفونة تحت هضبة في نيويورك. تخبر الكتابات عن قبيلة

من اليهود الذي هاجروا من القدس إلى أميركا منذ ستمئة سنة
قبل مولد المسيح.
الأطباق الذهبية.

شعر شارلوك بضحكة تتغلغل من أعماق صدره. لا بد من أن
السيدة إيغلانتين سمعت عمه يتحدث إلى زوجته عن الأطباق
الذهبية. هل ذكر كلمة كنز أيضاً؟ ربما قال شيئاً كالتالي: «يجب
عليّ الاهتمام بهذه الرسالة لأنها كنز ثمين لأنها تتضمن كل ما
أحتاج إليه لأبرهن أن أطباق المورمون الذهبية ليست
موجودة». وعندما سمعت السيدة إيغلانتين لفظتي كنز وأطباق
ذهبية توصلت إلى الاستنتاج الخاطئ. من دون سؤالها لن
يتمكن شارلوك من معرفة حقيقة ما جرى، ولكنه تمنى عدم
رؤيتها مجدداً وأحس أن هذا مستحيل. الكنز الذي تبحث عنه
وهم.

ضحك شارلوك مجدداً وقرّر أن يخبر عمه بما اكتشفه عندما
يرجع.

فيما ضحك شارلوك شم رائحة شيء حلوا. كان الرائحة الحلوة
مألوفة ولكنها ذكرته قليلاً برائحة الدواء. لقد شم هذه الرائحة
من قبل ولكنه لم يستطع تذكر أين. للحظة ظن أن السيدة
مالهيل قد عادت مع البسكويت الذي وعدته بتحضيره ولكن لم
يكن هناك أحد في الغرفة سواه.

أراد الوقوف، ولكن بدأ نظره يصبح أكثر سوءاً. حاول وضع يده على الطاولة كي يسند نفسه حتى يقف، ولكنه فشل في ذلك. وقع إلى الأمام وارتطم رأسه بدفتر السجلات ولكنه لم يشعر بشيء. لم يشعر بشيء سوى كسل جميل يسيطر عليه ومن ثم نام.

مرت أمامه الأحداث كأنها رؤية. عربة سوداء. حبال. منديل دافئ ورطب وضع على فمه. السماء. وجه شخص ذي لحية حمراء. بدا الشخص مألوفاً غير أنه لم يستطع تذكر اسمه... عندما استيقظ كان كل شيء مختلفاً.

كان في غرفة صغيرة بين مجموعة من الحبال. صنع السقف والأرض والجدران من ألواح خشبية. أحس وكأن رأسه ومعدته سينفجران، وبدأت الأرض وكأنها تتحرك تحته، ولكنه انتبه عندما أزاح الحبال عنه ووقف أن المشكلة في الغرفة وليس في توازنه. كانت الغرفة تتحرك.

فتح الباب ومشى إلى الخارج وهو ممسك بالباب خوفاً من أن يقع.

نظر أمامه فرأى ظهر سفينة أمامه. أحاط السفينة بحر رمادي وأبيض اللون. لم ير حوله أي أثر لليابسة.

تقدم بحار إلى الاتجاه الذي وقف به شارلوك، وجمد عندما رآه. تنهد واستدار إلى الخلف وصرخ: «أحضر السيد لارتشمونت. لقد

عثرت على متطفّل في السفينة». عندما أعاد نظره إلى شارلوك قال له: «لقد اخترت السفينة الخاطئة لتهرب عليها». سأل شارلوك: «لماذا؟ إلى أين ستتجه هذه السفينة؟». أجابه البحار: «هذه ليست رحلة سياحية إلى المتوسط». ابتسم البحار مبرزاً أسنانه ملطخة بسبب التبغ ثم تابع: «إنها غلوريا سكوت ونحن متوجهون إلى الصين».

تمت